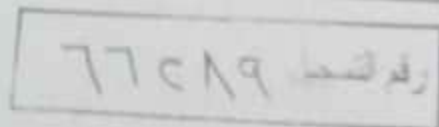
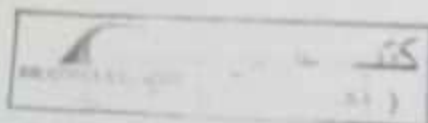


الدعوة الإسلامية في أفريقيا
الواقع والمستقبل

د . عبد الرحمن عمر الماحي

175



الدعوة الإسلامية في افريقيا
الواقع والمستقبل

تأليف

الدكتور / عبدالرحمن عمر الماحي

القاهرة - ١٤١٦ هـ / ١٩٩٩ م

منشورات دائرة الثقافة والإعلام - الشارقة - أ.ع.م

DL

الدعوة الإسلامية في أفريقيا
الواقع والمستقبل

الدعوة الإسلامية في أفريقيا - الواقع والمستقبل / عبد الرحمن عبد

الحفيظ - القاهرة ١٩٩٥ والإسلام - ١٩٩٨ م

١ - أفريقيا ٢٠٠٠ - سلسلة رسائل جامعة ١٦

٢ - الإسلام ودعوة أفريقيا ٣ - الإسلام - مراكش

الإيمان والإصلاح والتغيير ٤ - الإسلام - أفريقيا - تاريخ

٥ - العراق ٦ - السلسلة

في الفهرسة ١١١١ - النشر بمعرفة مكتبة الشارقة

السلسلة الأولى ١١١١ - ١١١٩ م

مكتبات دائرة الثقافة والإعلام

١١١٩ - الشارقة - دولة الإمارات العربية المتحدة

١١١٩ - ١١١٩ م

١١١٩ - ١١١٩ م

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الشارقة ١١٩٩

لقد تم إعداد هذه السلسلة

بمبادرة من

مقدمة

منذ أن أتيحت لي فرصة ممارسة مهنة التدريس والترحال والتجوال في الشوارع والدول المجاورة لها، في الفترة الواقعة ما بين عامي ١٩٦٦ و ١٩٧٢م. وأنا مشغول بالدعوة إلى الإسلام. ويعتبر موضوع الدعوة في أفريقيا ميدانا خصباً لا يزال ينتظر جهوداً كبيرة صادقة من كل المهتمين بالدراسات الإسلامية. وهو من الموضوعات الشائكة التي تكتنفها بعض الصعوبات نظراً لقلة المعلومات عنه في المصادر القديمة من ناحية، وبعثرتها في أماكن متفرقة من ناحية أخرى. وجمع هذه المعلومات وتنسيقها يحتاج إلى جهد كبير. فالمصادر القديمة على كثرتها وتنوعها وضخامتها قد ركزت اهتمامها على أخبار الفتوحات وما صاحبها من الانتصارات والنكسات وعلى تفاصيل الأحداث السياسية وأخبار الفرق والأحزاب والثورات، ولم تلمح مكاناً مناسباً لحركة انتشار الإسلام في أفريقيا، بل حتى في آسيا وأوروبا كموضوع مستقل يستطيع الباحث الوصول إليه مباشرة.

وعلى الرغم من نشاط الكتاب والمؤرخين المسلمين في العصر الحديث فإن موضوع انتشار الإسلام، في العالم عامة وفي أفريقيا على وجه الخصوص، لم يحظ بالقدر الذي يستحقه من اهتمامهم، فلا تزال الكتب التي تناولته محدودة العدد والمساحة الزمانية والمكانية. ومن العجيب أن يكون من أوائل من تناولوا هذا الموضوع في العصر الحديث - إن لم يكن أسبقهم على الإطلاق هو الباحث الإنجليزي «توماس أرنولد» في كتابه المترجم بعنوان «الدعوة إلى الإسلام» (١)، ولعله أوفى كتاب في موضوعه حتى الآن من حيث تغطيته لمعظم أرجاء العالم الإسلامي من ظهور الإسلام حتى مطلع القرن العشرين، لكن مؤلفه قد ارتكب أخطاء كبيرة في فهمه للإسلام. أما على الجانب الإسلامي فإن عدد الكتب التي تناولت الموضوع لا يزال قليلاً، ومن هذه الكتب: (كتاب الدكتور شكري قبصل: المجتمعات الإسلامية في القرن الأول الهجري،

(١) ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب باللغة الإنجليزية سنة ١٨٩٦م ثم أعاد المؤلف نفسه طبعه ثانية سنة ١٩١٣م. وبعد وفاته سنة ١٩٣٠م أعاد طبعه للمرة الثالثة باللغة الإنجليزية أيضاً الأستاذ نيكلسون سنة ١٩٣٠م. وقد ترجمه إلى اللغة العربية الدكتور حسن إبراهيم حسن. والدكتور عبدالمجيد عابدين والأستاذ إبراهيم البحراوي. وطبع لأول مرة سنة ١٩٤٧م بالقاهرة.

ومع أن هذا الكتاب لم يختص مؤلفه بموضوع انتشار الإسلام، فإنه تناول الموضوع والفكر على
الأسوأ في أسلوب علمي رصين. ومنها كتاب الدكتور حسني أحمد محمود، الإسلام والثقافة
العربية في أفريقيا، وكتاب الدكتور حسن إبراهيم حسن، انتشار الإسلام في القارة الأفريقية،
وكتاب الدكتور محمد عبداللّه الثقيرة، انتشار الإسلام في شرقي أفريقيا، ومناهضة الغرب له
وكتاب الدكتور عبدالرحمن ركن، تاريخ انتشار الإسلام في غرب أفريقيا، وما كتبه الدكتور
إبراهيم علي طرخان عن امبراطورية البربر الإسلامية وامبراطورية غانا وامبراطورية مالي.
وقد استقيت بعض معلومات هذا البحث من هذه الكتب إضافة إلى المعلومات المتناثرة في
تأريخ المصادر الإسلامية الأصلية، فضلاً عن رحلتي ومشاهداتي الميدانية في بعض البلدان
الأفريقية بالأسبانية والأوروب

وليس الأمل في أن يساهم هذا البحث في التعرف بتاريخ الدعوة الإسلامية في أفريقيا،
تعرّفاً من شأنه أن يقرب إلى ذهن الدارسين والباحثين وغيرهم، وضع الدعوة الإسلامية في
أفريقيا جنوب الصحراء، ويعكس رؤية واضحة عن ماضيها وحاضرها ومستقبلها وليس المقصد
هنا طرح مختلف القضايا الإسلامية في أفريقيا على الدرس والتحليل، وإنما نعرض الأمور
الإنسانية في حقل الدعوة الإسلامية في القارة الأفريقية، منذ ظهور الإسلام حتى المستقبل
المتصور، كي يسترشد بها العاملون في هذا الميدان.

وقد كانت جامعة الأمير عبدالقادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة سابقة في تدريس هذا
الموضوع كمادة مستقلة، وكان لي شرف تدريس المادة لطلبة قسم الدعوة والإعلام، السنة الرابعة،
وهكذا التقت البواعث النفسية والفكرية مع البواعث العلمية، فكانت هذه الصفحات التي أمل
أن تكون خطوة صحيحة على المنهج الصحيح لتاريخ الدعوة إلى الإسلام في أفريقيا.

وقد قسمت البحث إلى ثلاثة أقسام، فتناولت في القسم الأول مراحل انتشار الدعوة
الإسلامية في أفريقيا، وأفردت القسم الثاني للحركات الإصلاحية في أفريقيا، أما القسم
الثالث فقد خصصته لدراسة مناهضة النصارى للدعوة الإسلامية في أفريقيا.

ولست بحاجة إلى أن أشير إلى الوقت والجهد الذي أنفقته في جمع شتات هذا الموضوع
الشائك والاحاطة بنواحيه المختلفة، ولعلي حققت الغاية التي ظلت أعمل من أجلها طيلة أعوام
حافلة بالعناء، وحسبي أنني كشفت معالم الطريق لمزيد من البحث والدرس والعناية لمستقبل
الدعوة الإسلامية في القارة الأفريقية.

وليعرف لي الإجابة الدارسون والباحثون في تاريخ الدعوة في أفريقيا، إذا كنت قد أخطأت أو
نسيت، والله نسأل أن يعيننا بنعمه على ذكره وأداء شكره وأن يجتنبنا بفضله الخلل والزلل والعلل
في القول والعمل، إنه سميع مجيب وهو حسبي ونعم الوكيل.

د. عبدالرحمن عمر الماحي
قسنطينة ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م

القسم الأول

مراحل انتشار الدعوة الإسلامية في إفريقيا

التمهيد..

المعتقدات الشائعة في المجتمع الافريقي قبل انتشار الإسلام (١)

تكمن أهمية الوقوف على المعتقدات الشائعة في المجتمع الافريقي قبل انتشار الاسلام في انه يساعد على فهم عقلية المسلم الافريقي المعاصر، وتعليل بعض مواقفه وتصرفاته التي قد تتنافى مع مبادئ الإسلام وتعاليمه، فهي مواقف وتصرفات يستغربها من يجهل حقائق اجتماعية وتاريخية كانت خلقية لها.

فالإنسان الافريقي متشبث بالقيم الروحية، فقلما يقوم بحركة هامة او نامية دون ان يسبقها فكرة دينية او تبني على تصور عقائدي، سواء كان ذلك في الميدان الاجتماعي ام السياسي أم في مجال النشاط الاقتصادي، ولذلك فعلى كل من يقوم بمسؤولية الدعوة الإسلامية، ان يدرس المكان الذي تبلغ فيه الدعوة دراسة شاملة وموضوعية، وان يعرف مكان الضلال ومواطن الانحراف معرفة كاملة ومستوعبة، وان يفكر أيضا في اسلوب العمل الذي يتفق مع البيئة وعقلية الناس واستعداداتهم والذي يتلاءم مع مستوى تفكيرهم ومدى استجابتهم.

عند الحديث عن المجتمع الافريقي، من الصعب الفصل بين المجال الديني والعلاقات الاجتماعية، لأن المعتقدات الافريقية تتجاوز الفرد، فكل معتقد يقابل نمطا محيزا من أنماط المجتمع، سواء أكان ذلك المعتقد يخلق هذا النمط أم ينتج منه، فأنماط السلوك الاجتماعي تتحدد بالمعتقدات، فأول مايشعر به كل انسان الوازع الديني أو الخوف من الاخطار، ثم الثقة في مساندة الجماعة التي ينتمي إليها والخضوع للتقاليد التي تفرضها هذه الجماعة أو تفرضها الطقوس والشعائر الدينية.

وكانت الديانة المنتشرة في المجتمع الافريقي قبل الإسلام هي الاحيائية (٢). والاحيائية مجموعة معتقدات يعتقدونها مجتمع بدائي لا يكشف عما يدور في خلده. وتشارك هذه المعتقدات في مظاهر عدة، ولكن بدرجات متفاوتة واشكال متنوعة. ويرتبط كل معتقد من هذه المعتقدات بجماعة معينة وبمساحة جغرافية محددة، ويحل مع الجماعة حيثما ذهبت، ويتأثر بالعوامل الخارجية، مما يدل على عدم ثبات هذه المعتقدات وقابليتها للتطور على الرغم من صلابة ومثانة

(١) الدكتور عبدالرحمن عمر الماحي : المجتمع الافريقي في عهد الاحتلال الأوروبي من ٥ وما بعدها.

(٢) الاحيائية : هي الاعتقاد بقوة روحية في الاشياء اي ان للجساد والنبات ارواحا متشابهة لتلك التي لدى الانسان، وان الروح هي مبدأ الفكر والحياة والعضوية في أن واحد.

جذورها المسند العميقة المتصلة في نفوس أتباعها.

ويعتقد الإحيائيون بأن في هذا الكون المنظم قوة خفية تتحرك. يتبعن على المعتقد تحديد مسار حركتها بظفر من دينة. وذلك لمنع الكوارث التي يمكن أن تلحق الإنسان في نفسه أو ماله أو أبنائه. وإن هذه القوة في مفهوم الإحيائيين كانت تعمل فوق الكائنات. قام بخلق العالم دفعة واحدة ثم تناسى عن البشر وظل إلى الراحة وأجاب عنه في إدارة شؤون النساء الإله «سو» الذي كلف بالتنصير في مثل المطر والبرق والرعد والحشر والموت والحياة وما السها. وهو منزه عن الصفات البشرية. كما أجاب عنه في إدارة شؤون الأرض الإله «سو» حيث وضع في يده أدوات العمل والبحر والحشر والشر ولكنه لم ينزه عن الأغراض والأهواء البشرية.

والإحيائيون يتجهون إلى عبادة الأسلاف ليكونوا وسطاء بينهم وبين تلك القوة الخفية العليا. وهو يرمزون إلى الأسلاف بحيوان من الحيوانات أحيانا أو بشي من النباتات أو الجمادات أحيانا أخرى. ويطلق على هذا الحيوان أو ما يرمز إليه اسم «الطوطم» والطوطم الحيوانية أكثر عددا من الطوطم النباتية. ولما يكون الطوطم مظهر من مظاهر الجماد. فلهذا بعض القبائل الإفريقية معتقدات مؤداها أن جماعة معينة من الناس وأنواعا من الحيوانات يؤلفون وحدة اجتماعية. ومن هنا فإن تلك الجماعة تنزل ما يرمز إلى ذلك الحيوان منزلة التقديس. فمثلا إذا كان الأسد طوطما لقبيلة معينة فعني هذا أن القبيلة أو العشيرة تتخذ هذا الحيوان رمزا لها يميزها عن غيرها من القبائل ولها يحمله جميع أفراد القبيلة للدلالة على انتمائهم إليه. وتنزل هذا الأسد أو ما يرمز إليه منزلة التقديس.

وتزعم بعض القبائل الإفريقية أن روح جدّها الأكبر قد حلت في الحيوان الذي تتخذ طوطما لها. أي أن هذه الحيوانات قد أصبحت مقرا لأرواح السلف من الآباء والأجداد فأصبح اليها التقديس لما تحتويه من تلك الأرواح. ويمرور الزمن أصبحت هذه الحيوانات مقدسة لذاتها وأساس فكرة عبادة الأسلاف عند الإحيائيين. هو أن حياة الإنسان لا تتوقف بمقارفة الروح للجسد. أي أن الموت لا يكون حدثا يسبب قطع الصلات بين الأحياء والأموات. وإنما هو عقوبة وأرتقاء من جراء ضعف يصيب القوة الحياتية السرمدية. فعبادتهم تهدف إلى مد العمر بحيات أطول والحيلولة دون وقوع الكوارث والسر في الحياة. والإحيائية ليست مجرد عبادة الأسلاف فحسب. وإنما الأسلاف يحتلون فيها مكانة عامة. فالملوثى وقد أصبحوا غير ماديين إلا أنهم في نظر الإحيائيين موجودون بينهم ويتدخلون في الشؤون الاجتماعية للأحياء. وهناك العديد من الأساطير والطقوس التي تقوم بدور هام في تبيد مخاوف النفس عند الإحيائيين. وإنهم لا يرجون ثوابا في الآخرة لعدم اعتقادهم بنوم البعث.

وتؤكد الأساطير الشعبية لبعض القبائل الإفريقية الدور الفعال الذي يقوم به الإله «سو» فتعزو إليه مصدر أكمة الجماعة في إقليم معين وتنظيم الطقوس والأنشطة في هذا الإقليم. وهناك العديد من الطقوس التي يقوم بها الإحيائيون للكشف عن التصرفات المتعارضة في المجتمع كالطاعة والمعصية. والصدق والكذب. والذكاء والغباء. تلك الصفات التي من شأنها أن

يلوذ الى النجاح أو الفشل في الحياة

ويوجد اعتقاد بأنه من خلال كائن محسوس مثل الإنسان أو الحيوان أو النبات أو المعدن يمكن أن تنطلق قوى غير حركية تتخطى نطاق الاحتمالات الطبيعية لتتقدم بحمل الخير والشر بين الناس. وهناك قوى أخرى بدون حائل مادي مرتبطة ببعض الأسلاف. الأمر الذي أدى إلى نشر فكرة تقديم القرابين لأرواح الموتى والاستعانة بهم في شؤون الحياة.

والفاسم المشترك بين المعتقدات الاحيائية هو تصور يضم مظاهر الحياة المادية وغير المادية كافة. وتصنيف تتقابل فيه المظاهر الطبيعية، والإنسان والحيوان، والنبات والجماد والاعتقاد في مجموعات متعددة ومتداخلة. وهذه التصنيفات لا يعرقها الجمع بوضوح في كليتها، ولكنهم يستشعرونها بحس وبإحساس الدقة في ممارسة طقوسها. وتشكل الاعتقالات القروية المتجاورة مجموعة متناسقة من حيث المظاهر الرئيسية، وتعادة ما تتقابل مجموعة عرقية أو لغوية متناسقة بدورها. ومن ثم يمكن أن نخضع لتفسير وصفي إجمالي بين نواحي التشابه الموجودة. ليس بين المعتقدات الاحيائية المتجاورة جغرافيا فحسب، وإنما أيضا بين تلك المتباعدة عما يوضح الوحدة الأساسية للاحيائية والوئمة.

وعادة الأسلاف تتخذ شكلا جماعيا وتقام الاحتفالات والطقوس عادة عند ظهور الهلال المحمد في الأفق. حيث تعم القرية موجة من الرقص والصباح والزغاريد طوال الليل. وفي اليوم التالي يخرجون لصيد الحيوانات البرية. ويقدم قدر من الحصيد قربانا للأسلاف، وذلك بتركها في الحلا. وتقديم القدر الآخر للكهنة.

وأذا كان الاحتفال يتعلق بموسم زراعي فإن الأرض تضرب بفأس أو بأي آلة حادة من قبل كاهن القرية. وبعد ذلك يمكن استهلاك أول محصول وشرب أول كأس خمر إكراما للأسلاف. وتستمر طقوس إكرام الأسلاف لمدة شهرين كاملين تحت إشراف الكهنة والزعماء التقليديين. ويعتقد الاحيائيون - كما اسلفنا - بأن الموت لا يفصل الميت عن حياته باعتبار أن روحه تبقى مضافة الى مجموع أرواح الأسلاف، ويستطيع الاحياء الاستعانة بها عن طريق الطقوس المناسبة. وعندما تحدث الوفاة ينطلق البكاء والعويل، ويبلغ الاقارب والاصدقاء ليقوم كل منهم بدوره في هذا الاحتفال الذي يتمثل في الغناء والرقص والمدح والثناء. وقبل الدفن يجري تحقيق حول اسباب الوفاة لإقناع الاسرة باجراء طقوس ومراسم الدفن اللازمة. لأن الوفاة تاورا ما تستقبل بالرضا لدى الاحيائيين.

وبعد معرفة الأسباب عن طريق الكهنة يتم دفن الميت في مكان يتفاوت تبعاً للمكانة الاجتماعية، فأحيانا عند عتبة بيته وأحيانا أخرى خلف البيت أو في المدافن العامة، وتوضع على المقبرة علامة تميزها عن غيرها. كما تدفن مع الميت بعض الاشياء التي كان يمتلكها. وفي خلال ثلاثة أيام من تاريخ الوفاة تذبح الذبائح ويقدم الطعام والشراب للسمعين. وبعد الدفن بشهر أو سنة يرفع الحداد. وعندئذ يقام احتفال كبير تقدم فيه المأكولات الشهية والمشروبات الروحية والطقوس الدينية والرقصات الغنائية.

وهذه الاختلافات في اعتقاد الأحيائيين تعيد التوازن الاجتماعي وتحمي الأحياء من المستعرات التي يفرسها الحقد وتضع اليد في صفوف الأسلاك بشكل نهائي، وترسي القوى الخفية في الساء والأرض، وتحمي الخطايا الماضية. كما أنها تعيد الروابط الأسرية بين الأحياء والاموات.

ومن العادات والتقاليد التي كانت شائعة في افريقيا ما يلي :

أولاً : عادة وأو الأطفال،

كانت عادة ، أو الأطفال منتشرة في المجتمع الافريقي وذلك لأسباب عدة ، فقد يراد الطفل بأنه ولد بقدومه بدناً من رأسه أو لأنه ولد وأحد كفيه ينقص أو يزيد أصبعاً على الآخر . وقد يراد "بطفل" لأن أسنانه العليا ظهرت قبل السفلى على خلاف العادة . وقد يراد التورم أو احدها . كل ذلك اعتقاد من الوائد بأن الروح التي أتت بالطفل روح شريرة . ونتيجة لذلك فإن هذا الطفل يكون معيلاً للتشوم والشر في أسرته إذا بقي فيها ، ولهذا فإن الوالدين سرعان ما يبادران إلى التخلص منه . والحقيقة التي لا ريب فيها والتي تعتبر الدافع الأساسي لثل هذا السلوك هي شعور الأسرة بالضييق والعوز ، فهي وإن كانت تتحلل ببعض هذه المعتقدات فإن ذلك في الواقع والحقيقة مجرد تبرير للحرمة وتعليل للنفس حتى لا تشعر بالآلم عند ممارستها .

ثانياً : الكهانة (١) :

وهي من العادات والتقاليد التي كانت شائعة في افريقيا ، ويرجع ذلك في أصله وأساسه إلى محاولة الافريقيين تفسير الغوامض وتحليل الظواهر المحيطة بهم والتي لا يعرفون لها سبباً . من هنا كان إيمانهم بالكهنة السحرة والوسيلة الوحيدة التي ترضى فضولهم وتكشف لهم في زعمهم أمر كل ما كان يحيط بهم من الظواهر الطبيعية .

والكهانة متعددة الأشكال ، وتمثل في أن يفهم الإنسان ويتنبأ بتدخل القوى الخفية في الوسط الطبيعي المتعلق به ، وهي علم تحتكره قلة من الأفراد الذين اكتسبوه عن طريق الوراثة أو التعلم الخاص جداً . ويتعين على الكاهن الإلمام التام بعادات وتقاليد وأساطير المجتمع ، وفهم كل ما يدور بخاطره وما يحيط بالاستشارة المطلوبة التي قد تتم على جميع المستويات ، كاتخاذ القرارات السياسية في حالة الحرب أو السلم ، وأجراء الاحتفالات الموسمية وعلاج الأمراض .

(١) الكهانة : حرفة الكاهن ، والكاهن أو الكاهنة من يدعي معرفة الأسرار وأحوال الغيب .

وهو عند اليهود والحيثيين الذي يقدم القرابين والذبايح للإله . وعند النصارى من ارتقى إلى درجة الكهنوت ، والكهنوت وظيفه الكاهن وسر الكهنوت احد اسرار الكنيسة المقدسة السبعة يتولى به الكاهن ، أن يقدس الجسم المسبح وذلك في تلاوة القداس وأن يحل من الخطايا . واللفظ إما عن كهن بالعبرانية أو من كهنا بالسرمانية . اما العرافة فهي عمل العراف ، والعراف هو المنجم والمخير الذي يدعي معرفة الغيب أو الماضي والمستقبل بوسائله المختلفة .

والأحياء من الحيوانات
حتى القوى الخفية في
الأحياء والانسوات.

ومفاهيم الزواج والسر وأسباب الوفاة وما إليها..

والكاهن لا ينتج بسلطة تفيدية وغالبا ما يكون قراره جموعه وغير محددة
وطرائق الكهانة الاغريقية متعددة ومتنوعة وتختلف من منطقة الى اخرى. فطرائق قبائل
«سارار» و«ماسا» و«موندنج» على سبيل المثال تضم مجموعة كبيرة من العلامات والأدوات التي
تنتج حول الكاهن، ويتم تلميز البيانات الأولية بأشياء - رمزية كالخس والنوى والعظام والعصا
والقصب والفش. ثم توزع البيانات المختلفة بدورها. وهذه الجاهية لديها عمليات حسابية
وعمليات مراجعة وتحليل يتم خلالها فهم الرموز وإعادة ترتيبها. وبعد تفكير طويل يتم
التشخيص وإعلان النتيجة. وقد يتم التكهن بأمر ما - الحيتوانات المنبوحة، وذلك بتفسير حركاتها
الى أمور تتعلق بطرود المجتمع.

وهناك بعض المفاهيم الشائعة حول التفاؤل والتشاؤم التي تؤيد أو تنزع القيام بعمل ما. وهذه
المفاهيم يعرفها كل فرد من افراد البيئة الاحيائية دون الرجوع الى كاهن أو الاستعانة به..

ثالثا : السحر :

توحي كلمة سحر من حيث اشتقاقها الدقيق بالمعنى الضيق للسحر وهو «الفتنة». وتقرر
المعاجم ان السحر معناه صرف الشيء عن حقيقته أو صورته الى شيء آخر مخالف للحقيقة، أو
الخيال المحض، ويطلق على ذلك في كثير من الاحيان «التحليل».

قال تعالى : « قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى » قال بل ألقوا فإذا
حيالهم وعصهم بخيل اليه من سحرهم أنها تسعى * فأوحى في نفسه خيفة موسى * قلنا لا
تخف إنك انت الأعلى * وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا لما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح
الساحر حيث أتى «(١)».

وقال تعالى : « واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين
كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد
حتى يقولوا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين
به من أحد الا باذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة
من خلاق وليتس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون »(٢).

وقال تعالى : « قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين » قال ألقوا فلما ألقوا
سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجأوا بسحر عظيم * وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا
هي تلقف ما يأفكون * فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون »(٣).

مقد يواد الطفل
الأخر. وقد يواد
أو أحدهما كل
فان هذا الطفل
يبادران الى
السلوك هي
ك في الواقع

سأسه الى
يبدأ من
عصم

س في
ثة أو
كل
فاد

(١) سورة طه، الآيات من ٦٥ الى ٦٩.

(٢) سورة البقرة الآية ١٠٢.

(٣) سورة الاعراف، الآيات من ١١٥ - ١١٨.

ومن المعتقدات التي كانت شائعة في أفريقيا الوسطى والساحل واليهان بالسحرة، على أن السحر في اعتقاد الأفريقيين الأحيائيين نوعان :

سحر نافع يطرد الأرواح الشريرة ويحلب السعادة والخير للفرق والجماعة ويشفي الأمراض ويحدد الطريقة الملائمة لعلاجها، ومن مرابا هذا السحر النافع أيضا أنهم كانوا يستعينون به على حل المشكلات الاجتماعية المستعصية.

أما السحر الضار فهو ذلك النوع الذي يفتك بالأرواح ويهلك الحرث والنسل ويفرق بين المرء وزوجه ، وما إلى ذلك.

وإذا كان للسحر يتوحيه ذلك الإيمان الراسخ في نفوس الأحيائيين فلا ريب أنهم نفتنوا في وسائله وأساليبه، كما أقبلوا على تعلمه واكتساب المهارة فيه. ومن هنا كانت تلك العلاقات الخاصة بين الكهنة والسحرة وبين الأحيائية كعقيدة راسخة.

ويحصل الساحر على أجوبة عما يطرح عليه من مسائل بواسطة أدوات خاصة ووسائل يملك سرها. على أنه يقوم باستقراء المعطيات والاشارات ويفسر الرموز ويفك اللغز ليتركب في النهاية المشكلة المطروحة أمامه فيعطي جوابه عنها. ولا تغف مهمته عند هذا الحد، بل يتولى العلاج أن كان الأمر يتعلق بمرض، وهو عبارة عن ثمانم تتركب من قشور وعروق أشجار معينة، أو أعواد وقرون وعظام، وقد يكتفي الساحر بنفثات في عقد من الخيط أو الشعر أو السعف، ويعلق المريض التسائم أو العقد بعنقه أو يرفقه أو بأي جزء آخر من جسمه، وقد يدفن بعض من ذلك في أماكن يعينها الساحر للمريض.

وخلق بالملحظة أنه في المعتقد الأحيائي لا يعترض الإنسان سبل قوة الطبيعة قصد تسخيرها والتأثير فيها وفق حاجاته، إنما هي التي تؤثر فيه وتوجهه حسب مشيئتها وتصوته وترعاه أو تهمله وتهلكه، ويدهي أن يعيش معتق هذه الحرافات في هلع واضطراب نفس دائم.

رابعاً : الشعوذة :

وهي في اعتقاد الأحيائيين مصدر للخزي والعار وسب لاضطهاد كل من يمارسها أو من يحوم حوله الشبهات في ممارستها، ولذلك ظلت عامتة ويعرف الشعوذة في المجتمع الأفريقي باسم «مصاص» أي أنه يمتص القوة الخيوية للضحايا.

وأعمال الشعوذة تحكى عنها قصص عجيبة يفيض الأفريقيون في ذكرها مع التصديق لها حتى بلغت درجة الخير الذي يبدو وكأنه يصعب تكذيبه، وقد حدثت بسببها قضايا عدة وعوقب المتهمون بها بالضرب علناً، إلا أنه ليس هناك دليل مادي يستند إليه.

ومن القصص الشعبية المتواتر اشتهار بعض الأحيائيين باستخدام السحر في قضاء الحوائج وحل الأمور المستعصية، كما أن هناك بعض السحرة والمشعوذين لديهم القدرة على التشكل في صورة حيوان أو طير أو نبات، ويكتسب الساحر أو الساحرة والمشعوذ أو المشعوذة هذه الخيل عن طريق الوراثة أو التدريب الخاص.

ومن المعتقدات الشائعة أيضا :

١ - المخاطر :

وهو انتقال الأفكار من شخص إلى شخص آخر دون استخدام وسائل الاتصال الخمسة . وهو يتكلم من أشكال الامزاج المعنوي . وله تطبيقات كثيرة في الحياة اليومية خاصة بين التوائم .

٢ - قراءة الأثر :

وهي حالة خاصة من الاستنباط يستلزم فيها الوسط أن ينقل معلومات عن شخص أو شيء . عن طريق الاتصال ببعض متعلقات هذا الشخص أو الشيء . وكثيرا ما تستخدم الملايين أو الخواتم أو القدم في قراءة الأثر لمعرفة مكان الشخص أو الشيء .

٣ - ضرب الرمل أو الخط :

وهو يستعمل لمعرفة الماضي أو الحاضر أو المستقبل . وله ستة عشر شكلا وأسماء معروفة لدى المحترفين أو الهواة . بحيث يرمز بعضها إلى الخير والبعض الآخر إلى الشر . فإذا أراد الانسان أن يضرب الرمل بأن يتراب نظيف ويسطه على الأرض . ثم ينظف فيه بالاصبع الوسطى أربعة أسطر من غير عدد بالأسطر من اليسار إلى اليمين . ثم ينشعه بالخطف زوجة فروجا . حتى ينتهي إلى الآخر . فإذا كان الآخر زوجا أنته . وإذا بقي فردا أنته أيضا . فثبت ما تبقى من السطر الأول أولا . وما تبقى من السطر الثاني تحته ثانيا . وهكذا حتى تتم الأربعة أسطر . فيشكل منها شكل غدي يستنتج منه الحال والطلب .

٤ - استحضر الأشياء :

وهو قدرة على تحريك شيء . من مكان إلى مكان آخر . أو استحضر شيء . من مكان بعيد في لحظات . وهناك الكثير من الروايات المتواترة في هذا المجال .

هذا إضافة إلى بعض العادات والتقاليد الأفريقية المنافية للقيم والذوق السليم (١٨) .

وبنينا كان المجتمع الأفريقي يروج في خضم هذه المعتقدات . ظهرت الدعوة الإسلامية في مكة المكرمة . وعند العام الخامس من ظهورها دخلت أفريقيا بواسطة الصحابة السابقين الأولين الذين هاجروا إلى الحبشة . ولم ينصرم القرن الأول الهجري حتى عم نور الإسلام ثلثي القارة الأفريقية . وهذا ما سنتناوله بالبحث والدراسة والتحليل في الفصول التالية إن شاء الله .

(١٨) الشيخ محمد بن عمر التونسي : تشييد الأدهان بسيرة بلاد العرب والسودان ص : ٢١ .

والدكتور عبدالرحمن عمر الماهي : المجتمع الأفريقي في عهد الاحتلال الأوروبي ص : ٦٨ .

الفصل الأول

عالمية الدعوة الإسلامية

المسلمون في ازدياد مطرد - لقد قدر عددهم في عام ١٩٨٨م (١١١ بحوالى ٢٧٠ مليون نسمة بينما قدر عددهم في عام ١٩٩٢م بحوالى ٣٦٨ مليون نسمة، وفي عام ١٩٥٧ بحوالى ١٩٥ مليون نسمة، وفي عام ١٩٧٨ بحوالى ٩١٣ مليون نسمة، وفي عام ١٩٨٨ بحوالى مليار ومائتى مليون نسمة (٢١). والسؤال الذي نبحت الاجابة عنه هو: كيف انتشر الإسلام؟ وما المسالك التي سلكها المسلمون لشره؟ ولماذا؟

لقد ظهر الإسلام في مكة المكرمة في ١٧ من شهر رمضان في السنة الاربعين من مولد الرسول صلى الله عليه وسلم، الموافق ٦ اغسطس سنة ٦١٠م.

ومنذ ذلك التاريخ شرع رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الناس ويعرض عليهم الايمان بعقد الدين القيم الذي ارسله الله به لإخراج البشرية من الظلمات الى النور.

وأخذ الإسلام ينتشر في مكة بين من نور الله قلوبهم للتقوى، مع أن الدعوة إليه في المرحلة الأولى كانت تتم في استخفاء ودون جهر من القول ومطاهرة من التحسس المكشوف، ومضى على ذلك ثلاث سنوات، ثم أمر الله رسوله بإظهار دينه على الدين كله فقال تعالى: «فاذبح مع نؤمر وأعرض عن المشركين» (٣).

وقال تعالى: «وأندر عشيرتك الأقربين» (٤).

وقال تعالى: «وكذلك أوحينا اليك قرآنا عربيا لنتذر أم القرى ومن حولها» (٥).

كنا أمر الله رسوله بأن يوضح للناس أن دعوته والتدرج في نشرها لا تعني انها خاصة بقرى والقبايل العربية الأخرى وإنما هي دعوة للناس كافة. والآيات القرآنية التي تؤكد عالمية الدعوة الإسلامية كثيرة، نذكر منها ما تيسر:

قال تعالى: «قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السموات والأرض لا اله الا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون» (٦).

(١) الشيخ محمد بن عبد الحامد: صفوة الاعتبار بسندوع الامصار والافطار ص ٢١٠.

(٢) الأهر مؤلف الدعوة الإسلامية الهادي عشر - مارس سنة ١٩٨٨م.

(٣) سورة الحجر، الآية ٩٤، (٤) سورة الشعراء، الآية ٢١٤، (٥) سورة الشورى، الآية ٧، (٦) سورة الأعراف، الآية ١٥٨.

« تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » (١)
 « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (٢)
 وقال تعالى : « إن هو إلا ذكر للعالمين ، ولتعلمن بناءً بعد حين » (٣)
 « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » (٤)
 كما أن ما عبر عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم مختصاً من أن يلاً أول نمار الحقة ، وإن
 صهياً أول نمار الزوم ، وأما سلطان فأول نمار الفرس ليعل دالة واضحة . على أن الإسلام ليس
 مقصوراً على العرب وحدهم كما يزعم بعض المستشرقين .
 جاء الإسلام لإحياء الإنسان في عقيدته وفي سلوكه وفي علاقاته الاجتماعية
 قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن
 الله يحول بين المرء وقلبه وأنه اليه محشرون » (٥)
 فهو دعوة إلى الخير وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر . قال تعالى :
 « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم
 المفلحون » (٦)

وقال تعالى : « ومن أحسن قولاً من دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين » (٧)
 ولقد ذكر القرآن الكريم في تقرير هذه المبادئ وفي الدعوة إلى مراعاتها في جميع الأهداف
 والمقاصد ، ويت في نفوس المؤمنين روح الدعوة إلى الحياة والخير وكون فيهم نزع الأمر بالمعروف
 والنهي عن المنكر بصورة جعلت نشاطهم لم يعهد له نظير في التاريخ ، وحملهم في كل ذلك إلى
 العقل « مناط التكليف » .

قال تعالى : « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصرية أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا
 من المشركين » وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى . أفلم يسيروا في
 الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا
 تعقلون » (٨)

قسم للمسلمين بهذه التوجيهات الإلهية الاستعداد النفسي للقيام بالدعوة إلى الإسلام من
 غير كلل أو ملل ، وحملوا الخير للناس كافة دون تمييز ، وعملوا في هذه السبيل على بصرية
 وإيمان ، فقد كانوا لا يقاتلون أحداً إلا دافعاً عن الدعوة الإسلامية إذا وقف أحد في سبيلها بغتة
 من آمن باختباره بأنواع التعذيب حتى يرجع عما اختاره لنفسه ديناً أو يصد من أراد الدخول في
 الإسلام عنه أو يمنع الداعي من تبليغ دعوته .

قال تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير » الذين أخرجوا من
 ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع

(١) سورة الفرقان ، الآية ١ . (٢) سورة سبأ ، الآية ٢٨ . (٣) سورة ص ، الآية ٨٧ . (٤) سورة الصف ، الآية ٩
 (٥) سورة الانفال ، الآية ٢٤ . (٦) سورة آل عمران ، الآية ١٠٤ . (٧) سورة فصلت ، الآية ٣٣ .
 (٨) سورة يوسف ، الآية ١٠٨ ، ١٠٩ .

وصلوات وسجدة يذكر فيها اسم الله كثيرا ولتؤمنن بالله من بصره أن الله لقوي عزيز * الذين
إن مكثناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وامنوا بالمعروف وانهوا عن المنكر والله بما تعملون
بالخبر ١٩١.

وقال تعالى : « وقالوا في سبيل الله الذين يقالونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين »
واقتلوهم حيث تقتلونهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والغنة أشد من القتل ولا تقاللوهم عند
المسجد الحرام حتى يقالوكم فيه فإن قالوا لكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين ٢١.

والإسلام يأمر بالدعوة والإقناع وينهى عن الإكراه
قال تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك
هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » ١٢٣.

وقال تعالى : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم » ٤٤.
وقال تعالى : « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله
فلقد استسك بالعرصة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم » ١٥.

وكانت مهمة الدعوة إلى الإسلام ملقاة على عاتق المؤمنين والمؤمنات جميعا منذ البداية
قال تعالى : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر
ويؤمنون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز
حكيم » ٦٦.

وقال تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ولتؤمنن
بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون » ٧١.

وسلخص الدافع للفتوحات الإسلامية في القيام بالمهمة الملقة على عاتق المؤمنين والمؤمنات
وهي الدعوة إلى الإسلام لإخراج الناس من الظلمات إلى النور.. وتطبيق منهج الله في الأرض
ليسود العدل وتتحقق السعادة لبني البشر.. والنصر في الدنيا والفوز بالجنة في الآخرة.

قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم * تؤمنون
بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * يقفر
لكم ذلوبيكم ويذللكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز
العظيم * وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين » ٨١.

هذا ولم يكن للدافع الاقتصادي الذي يتكلم عنه المستشرقون خاصة واليهود والنصارى عامة
أي وجود في الفتوحات الإسلامية وإنما يريد هؤلاء.. وأولئك أن يقلقوا من أهمية العامل الروحي في
الإسلام.. ويضعفوا فريضة الجهاد في نفوس المسلمين ويمشوا روح القوة لديهم.. كما حاول بعضهم
أن يجد أسبابا أخرى للفتوحات الإسلامية، فمنهم من قال : كانت محاولة للوصول إلى أماكن

(١٧) سورة الحج، الآية ٣٩، ٤٠، ٤١. (٢) سورة البقرة، الآية ١٩٠، ١٩١. (٣) سورة النحل، الآية ١٢٥.
(٤) سورة العنكبوت، الآية ٤٦. (٥) سورة البقرة، الآية ٢٥٦. (٦) سورة التوبة، الآية ٧١.
(٧) سورة آل عمران، الآية ١١٠. (٨) سورة الصف، الآية ١٠ - ١٣.

لنقوي عزيمته الدين
المشكر ولله عاقبة
الحسب المعتدين
لا تقابلهم عند

حسن أن ربك

«(٤)»

يؤمن بالله

مة

من المشكر
عزيم

مؤمنون

شأن
رض

من

منفعة انفسهم من الجوار واستطيعون منها الدفاع صما حازوا عليه . ومنهم من قال : كانت
إمتناعاً لأعدائهم المتجاوزين لهم حتى يأمنوا جانيهم . ومع الأسف فإن الكثيرين من المؤرخين
المسلمين يرددون ما علموا من النصارى واليهود ولا يعرفون سوى ذلك . هذا من جهة ، ومن جهة
ثانية ، فإن بعض من كتب في هذا المجال قد تأثر بالعوامل اللغوي الذي يحاول أن يفسر التاريخ
بل وكل جادته ، تفسيراً مبادياً خاصاً ، وينتفى أي أثر للامان بالله والمجاهد في سبيل الله . كلتاه
وهنا برز السؤال ، وهو : هل معنى عالمية الاسلام انه يجب أن يكون كل الناس مسلمين ؟ وإذا
كان الأمر كذلك فما هي السبيل لحملهم على ذلك ؟

وللإجابة عن الشطر الأول من السؤال نقول : ليس معنى عالمية الاسلام أنه يتحتم أن يكون
كل الناس مسلمين ، بل أن القرآن الكريم يلفت نظر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أن حمل
الناس جميعاً على دين واحد قد يكون أمراً صعباً إن لم يكن مستحيلاً .
يقول تعالى : «ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى
يكونوا مؤمنين» (١) ويقول : «وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين» (٢) .

ويقول سبحانه وتعالى : «ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين» (٣) إلا من
رحم ربك ولذلك خلقهم وقت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين» (٤) .

وقد يتبادر إلى بعض الأذهان أن هذا تناقضاً . لأننا في الوقت الذي نقول فيه بعالمية
الاسلام ، نعترف بأن حمل الناس كافة على اعتناق دين واحد أمر غير ممكن وغير واقعي ولم
يحدث قط في تاريخ البشرية ، والواقع انه لا تناقض في الأمر لأن معنى عالمية الإسلام أنه دين
منفتح لكل البشر من جميع الأجناس دون قيود أو حدود . وليس ديناً خاصاً بقوم أو قبيلة أو
طائفة من الناس - كما يدعى اليهود أن ديانتهم خاصة بهم ، اختصاصهم الله بها وحدهم دون
البشر ، بل هو دين القطرة التي فطر الله الناس عليها ، والذي يلائم جميع الناس في كل زمان
ومكان لسيطارته ونهولته ويسر عبادته وسلامة مبادئه . فكل إنسان يريد أن يكون مسلماً ليس
عليه أكثر من أن يشهد «أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله» ويعدداً يكون مسلماً له كافة
حقوق المسلمين وعليه واجباتهم .

أما الإجابة عن الشطر الثاني من السؤال ، وهو معرفة السبيل لحمل الناس أو بالأحرى لدعوة
الناس للدخول في الإسلام ، فتأخذها من المنهج الذي حدده الله سبحانه وتعالى للنبي محمد صلى
الله عليه وسلم حين قال له : «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي
أحسن أن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين» (٥) .
فلا اكراه في الدين بعد أن تبين الرشد من الغي . وسلوك النبي صلى الله عليه وسلم العمل

(١) سورة يونس ، الآية ٩٩ .

(٢) سورة يوسف ، الآية ١٠٣ .

(٣) سورة هود ، الآية ١١٨ - ١٢٩ . (٤) سورة النحل ، الآية ١٢٥ .

أكد هذا المنهج وأدركه وشرحه. ففي غزوة تبوك عندما سار النبي صلى الله عليه وسلم لحرب الروم بعد أن بلغه الأخبار بتحركاتهم لهاجسته في المدينة - فلما وجدهم قد انسحبوا عن الميدان إلى داخل الشام - لم يلاحقهم ولم ينشدهم واكتفى بالسحابهم. ولما جاء أمراء المقاطعات الواقعة بين الجزيرة العربية والشام - ومنهم يوحنا بن ربيعة صاحب اليلة - فمعهين مستسلمين - لم يفرحوا بالسلام عليهم بالقوة. ولو كان ذلك منتهجا له ما كان أسهل عليه بالنسبة لهذه الجماعات الصغيرة الضعيفة والتي لم تكن قادرة على مقاومته بعد أن انسحبت أكبر وأقوى قوة في المنطقة من أمامه وهي جيش الروم. بل عاملهم معاملة حسنة وقبل منهم أن يظلوا على عقائدهم واكتفى منهم بالخضوع لسلطان الإسلام ودفع الجزية، وأعطاهم معاهدات ضمن لهم فيها حرية عقائدهم وأموالهم وأنفسهم (١٦).

سبل الدعوة إلى الإسلام إذن هي الحكمة والمروعة الحسنة ولم تكن الحرب يوما هي السبل لنشر الإسلام. وأما الحروب التي نشبت بين المسلمين والفرس والروم وغيرهم فقد اضطرت المسلمين إليها اضطرارا. كما أسلفنا - إما للدفاع عن أنفسهم وإما للدفاع عن حرية نشر عقيدتهم. لا نشرها والفرق كبير جدا بين الأمرين. ولا يخفى لمن يريد البحث عن الحقيقة.

ولما كانت الجزية هي أبرز الالتزامات التي فرضها الفاتحون المسلمون على المعاهدين، وكثر الكلام حولها من جانب بعض المستشرقين من حيث علاقتها بإسلام شعوب البلاد المفتوحة، فسعى أن يحصها بكتابة:

تفردت الجزية على المعاهدين بنص الآية الكريمة: «قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون» (٢٤).

فأدأهم للجزية بكف عنهم القتال ويظلون على عقائدهم فهم لم يقاتلوا ليسلموا، فلو كان القتال لحصلهم على الإسلام لقال الله تعالى قاتلوهم حتى يسلموا. فالجزية إذن لم تكن عقابا لامتناعهم عن قبول الإسلام وإنما هي علامة على التسليم وعدم المقاومة. وفي مقابل أدائها قائلهم إلى جانب فتحهم بالبقاء على أديانهم يستمتعون بحماية الدولة الإسلامية لهم، فإذا عجزت عن حمايتهم فهم في حل عن أدائها. بل أكثر من ذلك فقد كان المسلمون في حالة العجز عن حمايتهم يردون إليهم ما كانوا قد أخذوه منهم فقد رد أبو عبيدة بن الجراح ما كان أخذه من أهل حمص وكتب إليهم: «لما رددنا عليكم أموالكم لأنه بلغنا ما جمع لنا من الجسوع، وأنكم قد اشترطتم

(١٦) راجع سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٩٨ - ١٨١ والبلادي: فتوح البلدان، ص ٧١.
(٢٤) سورة التوبة، الآية ٢٩.

علينا ان نضعكم واما لا نقرر على ذلك: فرددنا عليكم ما اقلنا متكون. ونحن لكم على الشرط
وما كتبنا بيننا وبينكم: فقال اهل حمص: «باسمكم وعدلكم احب الينا ما كتبنا فيه من الظلم
والعشمة» (١).

وبذلك ردت مصالح طائفة من اموال الدولة. فدعا المسيحيون بالركة لرؤسا المسلمين. وقالوا
لو كانوا هم اهل الروم لم يردوا علينا شيئا وأخذوا كل شيء. بلقي لنا (٢).
وقد بلغ عدل الاسلام ورحمته بأهل الذمة. انه لم يكن يعفى لقراهم من الجزية فحسب. بل
كان يفرض لهم عقلا. واما من بيت مال المسلمين.

وكانت الجزية بصيغة عامة يسيرة القيمة. فلذا تراوحت بين ٤٨ درهما في السنة على
الأغنيا.. و٢٤ درهما على المتوسطين. و١٢ درهما على القادرين على الكسب من الفقراء.. كما
كانت تجبي بروح الرحمة. ولم يكن الخلفاء يسمحون اطلاقا باستخدام القوة في جابتها. كما
كان يعفى عنها الفقراء. غير القادرين على الكسب والنساء والاطفال والمرضى والشيخ والرهبان.
ومن يحتاج المسلمون الى خدماتهم في الجيش من القادرين على ذلك (٣).

ويتضح مما سبق ان من بين العوامل التي مكنت للاسلام في البلاد المفتوحة وساعدت على
سرعة انتشاره: عالمية الاسلام وبساطته. ومعاملة المسلمين احسن لشعوب البلاد المفتوحة.
والتزام المسلمين الكامل بالوفا. لعهودهم ومواثيقهم. واخيرا فساد الاديان والعلالها في تلك
البلاد.

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٦٢.

(٢) توماس أرنولد: الدعوة الى الاسلام، ص ٢٩.

(٣) ابو يوسف: الخراج ص ٢٥٩.

الفصل الثاني

الدعوة إلى الإسلام في شرقي أفريقيا

جهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدعوة فوجد فيها العرب هدما لما ألفوه من معتقدات وخرجا عما اعتادوا أن يعبدوه. ولكن هذا لا يقاس بما وجدته أفريقيا - قريش من لقبول سلطانهم ومعتزف عن لذاتهم التي اعتادوها. فخاصوه العدا - وأجمعوا على محاربتهم والقضاء على دعوتهم. فبدأوا به وأنهم لم يختلف التهم وكانوا لا يستطيعون معه أكثر من ذلك. فقد كان سيدا من سادات بني هاشم عرف بينهم بالعبقة والأمانة. كما كان عمه أبو طالب يقف دونه ويمنع الناس أن يقرئوه بسوء.

ولكنهم وإن لم يستطيعوا أن يقرئوه فقد رأوا أن يوجهوا اضطهادهم إلى انصاره خاصة وإلى المستضعفين منهم خاصة. لا سيما هؤلاء الذين يادروا إلى تأسيس هذه الدعوة الجديدة واغتنائها. بعد أن وجدوا فيها مخرجا لهم من ذل الأسر ورقعا بهم إلى مرتبة لا تقل عن مرتبة سيادهم. ووعدا لهم بحسن المثوبة والجزا. فوثبت كل قبيلة على المستضعفين من أفرادها ومواليها. فجعلوا يحسبونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش ورمطنا مكة ليفتنوهم عن دينهم.

فلما رأى الرسول عليه الصلاة والسلام ذلك. رق قلبه الطاهر لأتصاره وخاف عليهم أن يفتنوا. فأشار عليهم أن يفرأ بدينهم ويهاجروا إلى بلاد الحبشة. فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد. وهي أرض صدق حتى يجعل الله لهم فرجا مما هم فيه (١).

فكانت أول هجرة في الإسلام. وكان عدد المهاجرين الأوائل اثني عشر صحابيا وأربع صحابات. يتقدمهم سيدنا عثمان بن عفان وزوجه رقية ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وفق الله لهم ساعة جأوا إلى البحر فقيمتين للتجار حملوهم فيها لقاء نصف دينار.

وكان خروجهم في رجب من السنة الخامسة للدعوة. أي بعد سنتين من جهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدعوة إلى الإسلام. الموافق لعام ٦١٥ م. ولم يكن هؤلاء إلا طليعة الموكب. إذ تنابع المسلمون بعد ذلك حتى اكتمل منهم عدد ليس باليسير (٢).

فلما ظهر لقريش أن المسلمين قد اطمأنوا في الحبشة أرسلت لهم في السنة السادسة من

(١) ابن الأثير. الكامل في التاريخ. الجزء الثالث. ص ٢٨ وما بعدها.
(٢) الطبري. تاريخ الأمم والملوك. الجزء الثاني. ص ٣٢٩ وما بعدها.

العبدة وفداً من عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد ومعهما هدايا للنجاشي بطلبان به المهاجرين
فرفض طلبهما وبغاد خائبين.

ولم تكن هذه الحيلة لئلا يهربوا من السحر في سبيل إرجاع هؤلاء المهاجرين للخصائص منهم
وخرقهم من انتشار الاسلام خارج شبه الجزيرة. فأرسلته وفداً ثانياً : من عمرو بن العاص
وعبدالله بن أمية بن أبي ربيعة، ومعهما أيضاً هدايا إلى النجاشي. وعندما بلغا النجاشي قالا
لدا:

«أيها الملك انه قد لحقنا إلى بلدك منا غلمان سلفنا - فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في ديننا -
وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أئمتنا . وقد بعثنا اليك فيهم لتراف قومهم من آبائهم
وعشيرتهم لتردهم اليهم . فهم أبصر بهم وأرب اليهم وأعلم بما عاثبهم فيه» (١)
فاستدعاهم النجاشي وسألهم قائلاً : ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا به في
ديني ولا في دين أحد من الملل.

فأجابهم جعفر بن أبي طالب الذي وصل إلى الحبشة في الهجرة الثانية قائلاً : «أيها الملك كنا
قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام والأوثان وتأكل الميتة ونأثي الفواحش . وتقطع الأرحام . ونسئ
الجوار . وبأكل القوي منا الضعيف . حتى بعث الله الينا رسولا منا عرف نسبه وصدقه . وأمانته
وعقابه . فصدقنا لرسوله الله . وإن نعيذه ونخلع ما كنا نعبد نحن وأباؤنا من دونه وأمرنا بضد
الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم . وحسن الجوار . والكف عن الحرام والذم . ونهانا عن
الفواحش . وقول الزور . وأكل مال اليتيم . وقذف المحصنات وأمرنا بالصلاة والزكاة فضدناه وأما
بما جاء به من الله سبحانه وتعالى . فتعدى علينا قوماً تعذبونا وقتلونا عن ديننا ليردونا إلى
عبادة الأصنام والأوثان . فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى
بلادك . وأخترناك على من سواك ورجونا ألا نظلم عندك أبها الملك» (٢).

فقال النجاشي : هل معك مما جاء به رسولكم عن الله من شيء؟

فقال جعفر نعم . فقرأ عليه ما تيسر له من سورة مريم . فبكى النجاشي وأسأفته . وقال : إن
هذا والذي جاء به عيسى لينخرج من مشكاة واحدة . ونظر إلى رسولي قريش قائلاً : «انطلقا
والله لا أسلمهم اليكما أبدا».

وبغاد الوفد إلى مكة يجر أذيال الحنية . امتدت إقامة بعض المهاجرين بالحبشة إلى ستة عشر
عاماً.

ولقد اعتبرت هجرة الصحابة إلى الحبشة هي البداية لدخول الاسلام في أفريقيا . كما اعتبر
جعفر بن أبي طالب أول من قام بالدعوة إلى الاسلام في تلك البلاد .
ويرتبط تاريخ الدعوة الاسلامية بالحركة . حركة الانسان الفرد وحركة الجماعة . وإذا كانت

(١) الدكتور حسن إبراهيم حسن : تاريخ الاسلام . الجزء الأول - ص ٧٨ - ٩٠

(٢) فتحى غيث : الاسلام في الحبشة . ص ٤٩ - ٥٠

الهجرة النبوية الشريفة من مكة إلى المدينة هي لفضل العقدي هذه الحركة باعتبارها منحت الأمل والانطلاق من الضيق إلى السعة ومن الضيق إلى الفرح، فإن الهجرة في حياة المسلم بطرقها وبموجها مرتبطة بالسلامة والنجاة في اليوم والليله نفس هجراته، وبهجرات المسلم بخصائصها خمس حركات تتمتع في إطار نسق هو السند باعتباره الذي يتصلق للمسلم من خلاله الهجرات الخمس الأساسية المؤكدة لبعث الحركة في تاريخ الدعوة الإسلامية، وهذه الهجرات هي هجرات الدعوة ونفسه وفكرية وصحية واجتماعية، لم الهجرة من المكان عند الضرورة، ولذلك كان السند أول عمل إنساني نحو إقامة الدولة في تاريخ الدعوة الإسلامية، حيث كان الجامعة الفكرية التي تأخذ على عاتقها مهمة تحويل القيم والمبادئ الأساسية إلى سلوك واقعي وبحكم قبول الدعوة الإسلامية لكافة جوانب الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية، كانت الوظائف الأساسية للسند، ولذلك كلما كانت حركة المسلم حاضرة بالهتاج الاسلامي، أدت إلى انتشار الاسلام بين اليهود والنصارى والحيثيين وأصلحت من شأن المسلمين المتهاولين.

قال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون» فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون (١١٤).

وقال تعالى: «ولذلك خلقناكم أمة واحدة حتى تعرفوا الحق ويؤمنوا به ويعرفوا أن الله واحد ولا شريك له» (١٢٤).

العوامل التي أدت إلى انتشار الاسلام في الحبشة وخاصة في الساحل الشرقي للقارة الافريقية بعامة:

ارتبط سكان الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية بسكان الساحل الشرقي للقارة الافريقية في مختلف العصور بعلاقات تجارية وعقيدة، حيث لم يكن باب المندب عائقا كبيرا بين الشاطئين. ولقد اتضح من خلال الدراسات الاثرية ان هذه العلاقات كانت ذات اثر فعال منذ منتصف الالف الثاني قبل الميلاد، وما زاد هذه العلاقات متانة، الهجرات العربية الجماعية المتعاقبة، خاصة بعد سيطرة الأحباش على اليمن ومحاولتهم نشر النصرانية في الجزيرة العربية وتجريد مكة من

(١١) سورة الجمعة، الآية ٩.

(١٢) سورة آل عمران الآية ٤٤.

(١٣) بني ساء في القرن التاسع قبل الميلاد - يبلغ طوله ٦٦٠ مترا، وعرضه ٨٠ مترا، يقع بين حبلين في اليمن وساء خاصة تلكه ساء ١١٠ - ١٢٠ كم.

سيادتها الدينية - و ربطه اليسن بالشمام (١١).

دخلت المسيحية بلاد الحبشة في حوالي عام ٣٥٠م عن طريق عسبر - ولقد بذلت كنيسة الاسكندرية جهودات حثيثة خلال القرون المتوالية، وكان من نتائج نشاطها وجهودها ان زاد عدد النصارى الاثارية وانتشرت الكنائس والأديرة على طول الساحل الشرقي الاثريقي، وقكنت الكنيسة من تثبيت أقدامها في البلاد - وكان كلما ازداد اعتماد الدولة على الكنيسة، ازداد اعتماد الكنيسة على الدولة، لذلك كانت الاتزمات السياسية والحروب الداخلية التي تنعرج لها بمذكرة الحبشة تؤثر في نفوذ الكنيسة ونشاطها التبشيري وبالتالي كانت تنهيا الفرض أمام الدعوة الإصلاحية للانتشار.

كانت المذاهب المسيحية في الحبشة تناوئ بعضها البعض وتعرض النصارى لرغوة ايمانهم نتيجة للاندماج في الجند المستمر - وعندما ظهر الاسلام وجد فيه النصارى حلجا من هذه المخادلات التي لا تنتهي ولا تعرف اللين والتسامح، واستجابوا الى تلك الحقيقة البسيطة الواضحة، حقيقة الوجدانية، وكما ان هذه البساطة الخالية من «الفسطة» المذهبية كانت مغربة للمسيحيين وحبيبتهم في التحول الى العقيدة الإسلامية، فإنها - ولا شك - كانت أكثر إغراء - للأحيائيين الذين بدأوا يحتكون بالمسلمين في حياتهم العامة، وكان عليهم ان يختاروا بين الاسلام في بساطته وسماحته، وبين النصارية التي اخلتها الكنائس والثقافات «الهلنسية» و «الرومانية» الى عقيدة محقوفة بمذاهب معقدة ملتنة بالشكوك والشبهات، بعد أن كانت تعاليم المسيح عيسى - عليه السلام - الاولى بسيطة لا تعقد فيها.

ويبدو أن المذاهب المسيحية كثيرة جدا، ولكن المذاهب التي ظلت واسعة الانتشار حتى ظهور

(١١) أخذ الملك ذو نواس باني أسعد آخر ملوك حصر الذي حكم اليمن في الفترة ما بين عامي ٥٢٥ - ٥٢٩م الذي كان قد اعتنق اليهودية - في القضاء على المسيحيين في عام ٥٢٢م - لانه ربط بين نصارى اليمن وازدياد النفوذ البيزنطي في البحر الاحمر - وطبع بمذكرة الحبشة في السطرة على بلاد اليمن لضمان توزيع بضاعتهم دون التعرض لهم - وحبر ملك اليمن نصارى نجران بين يدي المسيحية أو المرق فأثروا الاستشهاد - فحفر لهم أخدودا احرقهم فيه واحرق الجحيلهم - وقد ذكرهم الله في القرآن الكريم بقوله تعالى: « قتل أصحاب الأخدود » النار ذات الوقود » اذ هم عليها قعود » وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود » وما تقرءهم الا ان يؤمنوا بالله العزيز الحميد » (سورة البروج، الآية ٤ - ٨).

وأحدثت واقعة الأخدود صدى عبقيا لكل من دولة الروم ومملكة الحبشة التي ارسلت دعوة من الامبراطور البيزنطي جيشا بقيادة «أرياط» استطاع الحاق الهزيمة بذي نواس وقتله سنة ٥٢٥م واستولت على اليمن - ثم خلف أريهة الاشمر أرياط في حكم اليمن - وكان من أبرز ما قام به حملته المعروفة بحملة اصحاب القبيل (التي ورد ذكرها في القرآن الكريم) في سنة ٥٧١م - وكان مصيرها القتل الذريع، ومات بعد عودته من هذه الحملة مباشرة - قال تعالى: « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب القبيل » ألم يجعل كيدهم في تضليل » وأرسل عليهم طيرا أبابيل » ترميهم بحجارة من سجيل » فجعلهم كعصف ماكول » (صدق الله العظيم).

وفي اثنا الصراع الدائر بين الاحباش والعرب من جهة، وبين الفرس والروم من جهة ثانية، وبين العرب بعضهم بعض من جهة ثالثة، أشرقت الارض بنور ربها في ١٧ من شهر رمضان في السنة الاربعين من مولد الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم - الموافق ٦/٤ من شهر أغسطس سنة ٦١٠م.

الاسلام كانت ثلاثة، وهي:
١ - المذهب الارثوذكسي، ويرى ان المسيح ليس إلهاً، والمهاجر انسان نبوي.
٢ - المذهب النسطوري، وهو يقول ان في المسيح طبيعتين مستقلتين إحداهما إلهية والثانية
بشرية.

٣ - المذهب النيقوي، ويقول أصحابه ان في المسيح طبيعة واحدة وان المسيح هو الله.

وانتشر المذهبان النسطوري واليعقوبي حتى وصلا إلى بلاد الحبشة (١).
ولما كان العرب يشتغلون بنقل التجارة بين الاسواق المختلفة كانت الحبشة أحد هذه الاسواق
التي يفسدونها لحمل التجارة منها أو اليها فازدهم البحر الاحمر بالسفن التي تنقل البضائع
الحشة إلى المراكز التجارية العربية وكانت اليمن أهمها، ومنها تنقل التجارة عبر الجزيرة العربية
إلى الشام والعراق وفارس والهند. ولعل أهم سلع التجارة وأروعها ربحاً هي الزعفران
التي كانت مطلوبة من أهم مطالب الدولتين الفارسية والرومانية، فازدهت كل من دولتي الفرس
والروم بالربح. كما ازدهت به الجزيرة العربية نفسها (٢).

وكان سكان الهشة الحبشة وسكان بلاد النوبة وسهول النيل الأبيض وكردفان، ومنطقة
الحيرات (بحيرة فيكتوريا) عادة هذه التجارة.

وعندما ظهر الاسلام ووضع حداً لهذه التجارة، عاد بعض الافارقة إلى أهلهم وذوهم في
شرقي افريقيا ليدعوهم إلى اعتناق الاسلام واستقروا هناك بين أخوانهم واشتغلوا معهم فيما
يشتغلون.

فالهجرة إلى شرقي افريقيا والعلاقات التجارية التي كانت قائمة قبل الاسلام بين الحبشة
وبين جزيرة العرب، استمرت من بعده، وحمل المهاجرون والتجار الحد - كما أسلفنا - اسلامهم
معهم ومن ثم ابتدأ الإسلام ينتشر في شرقي افريقيا ويتغلغل فيها بمقدار ما يتغلغل هؤلاء
التجار ويستقر فيها بمقدار ما يستقرون.

وثمة عامل مهم أدى إلى انتشار الاسلام في شرقي افريقيا وظهور الامارات الاسلامية فيها.
وهو هذه السلسلة من الاحداث المتوالية المتعاقبة التي حدثت في الدولة الاسلامية سواء كانت
أحداثاً سياسية أم اقتصادية دعت الناس إلى الهجرة.

وأول هذه الاحداث التي تعرضت لها الدولة الاسلامية في يد تكوينها هي حركة الردة التي
تركزت في قبائل اليمن وحضرموت وعمان والبحرين حيث رفضت هذه القبائل الخدم لا يكر
الغديق رضي الله عنه بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم، قامت عن دفع الزكاة ولكنها
لم تمنع عن القيام بما فرضه عليها الاسلام من قروض دينية أخرى (٣).

وعندما وجهت اليها الجيوش الاسلامية لم يكن أمامها الا أن تخضع أو تهاجر إلى حيث لا

(١) انظر الحبشة، الاسلام والحبشة، ص ١١٦ وما بعدها.

(٢) الدكتور زاهر رياض، الاسلام في النوبة، ص ٩٨.

(٣) القريشي، الامام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام، ص ٢٢.

بعد ثورة الغريش. ونسب الثانية على شعوبته أجرو عليها وعلى نفسها من الأولى على شعوبها
وسرها.

فأخذت أفواج منها عبر البحر، وحملت أسلحتها معها ولم تراد عنه لما بدل على أن لوحتها
ثم تكن عند الإسلام، ولكنها عند السيادة القرشبة التي لم تصور أن يكون خضوعها لها نتيجة
عسبة لاعتناقها الإسلام، فكان البشتون والهندسارمة أول هؤلاء المهاجرين وأسقمهم، ولا غربة
في ذلك فهم أقرب الناس إلى شرق أفريقيا وأكثرهم خبرة بهذه الرحلة. واشتد القبائل العربية
عصية وعداوة لغريش في الجاهلية.

وفي أعقاب مقتل سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه، انقسم المسلمون إلى شيع كثيرة،
ونشبت المعارك بين العرق المختلفة، ثم اشتد الخلاف على الرقياء الأمويين في دمشق، بينهم وبين
آل سيدنا علي كرم الله وجهه ومتاصريهم وأصبح النزاع قويا، ومن أجل ذلك لجأت جماعات من
المتشيعين إلى الهجرة من الجزيرة العربية والشام وفارس والعراق إلى شرقي وشمال وسط
أفريقيا، في الفترة ما بين عامي ٣٥ و ١٣٢ هـ / ٦٥٦ و ٧٥٠ م، واستوطن هؤلاء المهاجرون في
الساحل الأفريقي والجزر المجاورة، ولا سيما في جزر «الدهلك» والمناطق التي تعرف الآن بإريتريا
والصومال وكينيا وتنزانيا، وعلى أثر وصول تلك الجماعات بدأ الأهالي من الأفريقيين يعتنقون
الإسلام وظهر عدد من المدن الإسلامية على طول الساحل، من سواكن بالسودان شمالا إلى سفالة
بموزمبيق جنوبا.

وكانت أساطيل المسلمين التجارية تتردد عليها بانتظام، وحمل التاجر المسلم مع سلعته
إسلامه الذي هذب خلقه وصقله على الصدق والأمانة وعدم الغش، مما جعله مشارا أصحاب
الأفريقيين في كل مكان، فاعتنق كثير منهم الإسلام.

وإذا كانت مذبحة كربلاء قد أسلمت الأمر إلى الأمويين فإنها اشاعت في جميع أنحاء الدولة
الإسلامية شعورا بالقرع وعدم الاستقرار. فأبقت القبائل العربية المناصرة للعلويين أنه لا سبيل
إلى الحياة الحرة الأبوية تحت ظل الدولة الأموية، كما أيقن العلويون أن أية محاولة جديدة لن
تزيدهم إلا قناء، فأخذوا يتفرقون في الأمصار، وتقصد جماعات منهم إلى حيث لا يمتد سلطان
الأمويين، فقصدت جماعة منهم شواطئ أفريقيا الشرقية، وإذا كانت المصادر التاريخية لم تسجل
لنا إلا هجرة «زيد بن الحسن بن علي» وبعض انصاره من الزيدية بعد أن فشلت ثورتهم أيام
هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ هـ / ٧٢٤ - ٧٤٣ م) واستقراهم في ساحل أفريقيا الشرقي
الجنوبي وتوسع رقعتهم بفضل من كان يتوالى عليهم من المهاجرين من شبه الجزيرة العربية، إلا
أن استيلاء بني أمية على مجموعة جزر الدهلك، بدلنا على اتجاه موجات أخرى من المهاجرين،
فلا بد أن جماعة أكبر من الأولى قصدت شرق أفريقيا ووجهت إليها الدولة الأموية الجزء الأكبر
من قوتها وجعلت منها أن تراقبهم مراقبة دقيقة فاستولت على مجموعة الجزر لتتمكن من ذلك
على أتم وجه.

كل هذه العوامل التي كانت تدفع بالمسلمين إلى الهجرة إلى ساحل إفريقيا الشرقية خاصة
 وإلى الحبشة خاصة. قد ساعدت في انتشار الإسلام واللغة العربية. حتى إذا جاء القرن الثاني
 الهجري الثامن الميلادي. وجدنا المسلمين قد كونوا بممالك وإمارات وسلطات إسلامية من
 «صقلاب» شمالاً إلى سفالة جنوباً. وقد اعتنت هذه الإمارات أو السلطات بإنشاء المدارس
 والمساجد وانبعت المنهج الإسلامي في الحكم والقضاء. وفي الممارسات العامة في الحياة اليومية
 بما يدل على أن حكامها وولايتها ورعاياهم كانوا من المسلمين في الغالب. وقد انعكست الحضارة
 الإسلامية على حياة الناس في تلك الممالك وحظيت علوم الشريعة الإسلامية واللغة العربية
 بنصيب وافر من العناية والدراسة وصارت مدينة براوة بالصومال مركزاً علمياً هاماً لمصنفه طلاب
 العلم والمعرفة من كل فج. وكان للعدل والتسامح والبساطة والحكمة والموعظة الحسنة أكبر الأثر
 في القبال الأفريقيين على اعتناق الإسلام والصهارهم في المجتمع الإسلامي الجديد (١١).
 فالإسلام بنقله للإنسان الأفريقي من الأحيائية والنظام القبلي الضيق بمنحه مجتمعاً بدلاً
 حتى لا يكون فريسة الشعور بالفناء ونهباً للتمزق النفسي فهو يرمي به إلى مجتمع أرحم
 يسوده الأخاء وبطللة التعاون والوفاء. كيف لا وهو مجتمع يساوي بينه وبين غيره من المسلمين.
 مجتمع مبراز الكرامة فيه التقوى والعمل الصالح لقوله تعالى: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من
 ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم أن الله عليم خبير» (٢١).
 وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الناس سواصة كأسنان المشط. لا فضل لعربي على
 أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى كلكم لأدم وأدم من تراب».

(١١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، الجزء الثاني، ص ١٢٠ وما بعدها. وابن الأثير: الكامل في التاريخ، الجزء
 الثاني، ص ٢٥ وما بعدها. وتوماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص ٤٠٢ وما بعدها.
 (٢١) سورة الحجرات، الآية ١٣.

الفصل الثالث

علاقة المسلمين بالنصارى في الحبشة

ذكرنا في الفصل السابق ان مسلمي الحبشة تألقوا عن المهاجرين الذين عبروا البحر الاحمر في اوقات مختلفة تحت ضغط ظروف مختلفة ومن انضم اليهم من سكان شرقي إفريقيا. وقد ذكرنا أيضا أن هؤلاء المهاجرين تكوّنوا من مختلف الفئات، فكان منهم الزراع والتجار والرعاة. كما نجد بينهم الاغنياء والامراء والعلماء، وغير ذلك.

ولكن أي من أجزاء الشاطئ الاثريقي كان معروضا أكثر من غيره لهؤلاء المهاجرين، لابد أنهم يقصدون المراكز العامرة أولا، ثم يسرون إلى غيرها من الأجزاء.

وأكثر هذه الأماكن عمراناً في تلك الفترة الجزء الشمالي حيث مصوع الحالية، وحيث أقيم ميناء «عدوليس»، وحيث تقرب أطراف الهضبة الحبشية من الساحل فتكون الظهير التي يمتد بها السلع التجارية وما تحتاج إليه من مورد غذائي لاجل القاطنين فيها.

أما فيما بين هذا الجزء ومضيق باب المندب فقير تصعب الحياة فيه، صحراء الدناكل تمتد من الشاطئ مباشرة إلى مسافة كبيرة في الداخل والهضبة بعيدة، كما تتحدر انحداراً شديداً ناحية الشرق مما يجعل الصعود إليها صعباً.

ثم نشاهد منطقة أخرى تبدأ من شمال مضيق باب المندب بقليل وتنتد على الساحل الجنوبي لخليج عدن حيث تقع حالياً الصومال وحيث توجد موانئ جيبوتي وزمبيق وبربرة، وهي منطقة تمتاز بقرىها الشديدة إلى الجزيرة العربية، كما انها اقربها مدخلا إلى الهضبة الحبشية عامة وإلى منطقة تعد من أخصب مناطقها وهي منطقة هرر.

ومن هذه المناطق الثلاث أخذ المهاجرون في الدخول إلى المناطق الداخلية لشرقي إفريقيا خاصة التجار والرعاة، واستمرت الهجرات طوال القرون الأولى والثاني والثالث الهجري، أي الثامن والتاسع والعاشر الميلادي.

وكان هؤلاء المهاجرون يقدون إلى المناطق المختلفة ويقطنونها ويستغلون فيما يشتغل فيه أهلها في هدوء وسلام، ووجد أهل البلاد في هؤلاء المهاجرين نوعاً من الحماية فازداد تقربهم اليهم واندماهم فيهم حتى أخذ عدد المسلمين يكثر طورا بالمهاجرين الذي يتوالون على اسلافهم، وطورا بالمسيحيين والاحبابيين الذين ارتبطوا معهم برباط العقيدة والمصاهرة. فجاء نتاج هذا الامتزاج جيل اسلامي جديد أخذ يكثر بمرور الايام والسنين وينضم اليهم من يعتنق الاسلام عن

وحتى وفاته قاضيه لهم هذا الدين الجديد من الاحتفاظ ببعض عاداتهم الاجتماعية التي لم يتركها منها المسيحية والتي تشبه الفسافة في تأسيس عليها ومنعهم من ممارستها ولم تكن علاقة المهاجرين بالسلطات المسيحية تعذر في هذا الظور علاقة الخوض للاعباء الذين يتكلمون هذه الاجزاء كما يتفحص أهل البلاد حيث يدعون الضرائب ويظهرون كما يظهر غيرهم من المواطنين بظهور الولاء لهؤلاء الحكام. وظل الوضع بهذه الصورة الى ان تكن المسلمين من انشاء امارات اسلامية في شرقي افريقيا في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي كان للاحياء اتصال دائم مع النصارى في أوروبا للعمل معا ضد المسلمين في كل مكان فعند الغزو الصليبي للدولة الاسلامية قدم الاحياء المساعدات المادية والمعنوية وأصبح لهم دور خاص في بيت المقدس. وحرصت الحشيشة على مساعدة ملك قبرص النصارى وتحريضه على اخذ مصر. وكان اثر ذلك غزو الاسكندرية في عام ٧٦٧هـ / ١٣٦٥م. والقدت الحشيشة على القيام ببعض اعمال القوسة في البحر الاحمر. الا ان تحريك الجيش المملوكي قد حال دون استمرار تلك الاعمال. وعندما فتح المماليك جزيرة قبرص عام ٨٣٠هـ / ١٤٢٦م. اتصل الاحياء بملوك أوروبا للعمل ضد المماليك. وقد نجحوا مع ذلك ملك فرنسا ارغون.

وبعد ذلك الحشيشة المماليك بالقيام بغزو البلاد الإسلامية. وخاصة الأماكن المقدسة والحويل بحري نهر النيل. ووعدت البرتغال بتقديم المساعدات للاحياء في قتالهم ضد المسلمين. ومن الطبيعي ان يفر المسلمون ضد هذه الاعتداءات التي كانت تستهدف الدعوة الإسلامية. ففي مطلع القرن العاشر الهجري حصلت امارة «عدوليس» راية الجهاد في سبيل الله في شرقي افريقيا. ووصل نفوذها الى مشارف المرتفعات الحشيشة في الوقت الذي كان العثمانيون يقتنون البلاد العربية ليوحدوا المسلمين ويقفوا في وجه البرتغاليين والاسبان واطماعهم. الا ان حكام امارة عدوليس قد امنظروا فيما بعد الى مسألة الاحياء بعد ان خسروا عدة معارك.

ثم حصلت امارة هر همة الجهاد في سبيل الله. وشجع حكامها وصول العثمانيين الى شرق افريقيا ووقوفهم في وجه الخلف الحشيشي البرتغالي. اذ دعم العثمانيون سلطان هر احمد بن ابراهيم الملقب بالقرين. وكانت النتيجة ان ضم سلطان هر اجزاء من همة الحشيشة وعاد الى الاسلام بعدد من الذين سبق لهم ان تنصروا تحت ضغط الحكام والولاة الاحياء. ففي سنة ١٥٣٦م. كتب أحد هؤلاء الى احمد القرين كتابا هذا نصه : «أنا من أول مسلم وابن مسلم وأسرى الكفار ونصروني. وان قلبي مطمئن بالايمان. والان أنا جاز الله وجار رسوله وجارك أن تغيل بومني ولا تؤاخذني بما عملته فانا نائب الى الله. وهذه جنود الملك الذين هم معي. انما احتال عليهم حتى يدخلوا عندك ويسلموا» (١).

وقد اثر الجيش ان يقتدي بقائده فاستسلم واسلم على يد القرين. وبالتالي. وجد الاسلام طريقه الى قلوب كثير من الاعيان والزعماء الاحياء. غير أن بعض المتعصبين من الامراء (١) توماس أولو - المرجع السابق. ص ١٣٧ وما بعدها.
والدكتور زاهر رياض - الاسلام في اثيوبيا في العصور الوسطى. ص ١٥٤ وما بعدها.

التصارى كثيرا ما كانوا يستلزمون إلى المسلمين. ولكن الأيام اثبت لهم ان المسلمين اهل للثقة والاحترام.

وفي هذا الشأن يقول روبيل: «انه كثيرا ما لاحظ في خلال رحلاته في الحبشة انه عندما يراد شغل منصب من المناصب التي تتطلب ان يكون الشخص الذي يشغلها امينا كل الامانة موثوقا به تمام الثقة، كان اختيارهم يقع دائما على شخص مسلم».

وقد عقد الكاتب مقارنة بين المسلمين والمسيحيين فقال: «ان المسلمين كانوا اكثر حيوية ونشاطا، فقد التزم كل مسلم تعليم ابنائه القراءة والكتابة في الوقت الذي نرى فيه الاباء المسيحيين لا يتعلمون الا عندما يزمعون القيام بأعمال الكهنوت، وان ما ناله مسلمو الحبشة من هذا التفوق الادبي على الاهالي المسيحيين لفسر لنا الى حد بعيد ما احرزه الاسلام من انتشار مستمر» (١).

ولكن في عام ١٨٧٨م حدث في الحبشة ما لم يكن في حسان المسلمين. إذ عقد الملك يوحنا الرابع الذي حكم في الفترة ما بين عامي ١٨٧٢ و ١٨٨٩م، مجمعا يضم رجال الكنيسة الحبشية ونادوا به حكما أعلى في المسائل الدينية، وقرروا وجوب الاختصار على دين واحد في كافة انحاء المملكة، واعطى المسيحيين على اختلاف طوائفهم - ما عدا البعافية - مهلة عامين ليصبحوا فيها متفقين في الرأي مع كنيسة البلاد، وألزم المسلمين بالتحويل إلى المسيحية في خلال ثلاث سنين، والوثنيين في خلال خمس.

وإذاع الملك مرسوما بعد ذلك بأيام قليلة أوضع فيه ان مهلة السنوات الثلاث التي منحها للمسلمين ليست ذات أهمية، وذلك انه لم يقتصر على إلزامهم ببناء كنائس في مناطقهم ودفع العشور للقساوسة الذين يعيشون في مقاطعاتهم فحسب، بل أندر كل الموثقين المسلمين بأن يختاروا في خلال ثلاثة أشهر بين قبول التعمد أو التخلي عن مناصبهم.

وكان مثل هذا التنصير الاجباري الذي لا يشتمل الا على طقوس العباد ودفع العشور عديم الأثر بطبيعة الحال، ففي الوقت الذي تظاهر المسلمون فيه بالقبول كانوا في الخفاء يؤكدون ولا هم لدينتهم. واسلمت قبائل بأجمعها كانت تدين بالمسيحية ولكنها ظلت تحمل اسماءها القديمة مخافة الفتنة مثل قبائل تاكليبه أي نبات يسوع، وهيتبه اي عطية يسوع، وتيساريم أي عطية مريم. وكانت قبيلة منسا مسيحية بأسرها، ثم دان السواد الاعظم منها بالاسلام (٢).

ومما جعل هذا التنصير الاجباري ضعيف الأثر هو انه كان مقصورا على الرجال دون النساء. ذلك انه لما كان المرسوم الملكي لم يشر إلى النساء لا من بعيد ولا من قريب، فإنهن لم يتعرضن لسوء بحال من الاحوال، ومن ثم فقد قمن بدور فعال في سبيل نشر عقيدتهن الاسلامية في البلاد، رغم التدابير الصارمة التي اتخذتها الحكومة من أجل التنصير.

(١) توماس ارنولد: المرجع السابق، ص ١٢٩.

(٢) فتحي غيث: المرجع السابق، ص ٢٠٥ - ٢٠٧.

وهذا لا يعني أنه لم يكن هناك للإسلام دعاء إلى جانب المسلمات الداعيات في تلك الفترة
المرحلة، بل كان هناك رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينظر
وما بدلوا تبديلاً. فقد ظل كل منهم يعمل متفرداً متطوعاً معتمداً على جهده الشخصي لا يعتمد
إلى مؤسسة لهذه الحال والقوة والجاه، كما هو معهود في الأساليب التبشيرية الكنسية. وعلى
الرغم من أنه كان في العصور المتوالية قد تألفت جماعات دينية أخذت على عاتقها تنظيم نشر
الدعوة الإسلامية وتنشيتها في الحبشة، فإنها لم تبلغ في تأثيرها ما وصل إليه هؤلاء الدعاة
الأوائل الذين كانوا يعملون فرادى بجانب نشاطهم التجاري أو العلمي أو السياسي.
وقد سيطرت على ملوك الحبشة عدة عوامل في أثناء مقاومتهم للدعوة الإسلامية، أهمها
العامل الديني. ثم العامل السياسي والاقتصادي. فالحبشة مملكة مسيحية متعصبة لمسيحيته.
وليس هذا غريباً إذا علمنا أن انتشار الإسلام في شرقي أفريقيا لم يعم بلاد الحبشة فحسب بل
عم مناطق أخرى لم تكن تحت نفوذ مملكة الحبشة، وقد أدى ذلك إلى عزل الحبشة عزلاً تاماً عن
العالم الخارجي، ولا سيما بعد قيام إمارة عدوليس قرب ميناء مصوع، وهو تغر مملكة الحبشة
ومنفذها الوحيد إلى البحر الأحمر. الأمر الذي أدى إلى تدهور أحوالها السياسية
والاقتصادية (١).

ومما هو جدير بالذكر أن وسائل انتشار الإسلام في الحبشة وقبة دول شرقي أفريقيا تكاد
تكون متشابهة، إلا أن الدعاة على وجه الخصوص والمسلمين على وجه العموم، لم يتجن أحدكم
في عقيدته في أي منطقة من مناطق شرقي أفريقيا سوى الحبشة، وذلك لأسباب قد سبق شرحها
ومن أشهر الدعاة خلال فترة العصور الوسطى حتى نهاية القرن التاسع عشر، الشيخ إبادير
الذي قام بنشر الإسلام في إمارة عدوليس، ثم انتقل إلى إمارة هرر التي جعل منها مركزاً للدعوة
والدعاة في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، وكذلك الشيخ إبراهيم أبو زرياي الذي نقل
بين بربرة وممسة وإمارتي هرر وعدوليس - في النصف الأول من القرن الخامس عشر الميلادي -
من أجل نشر الإسلام وإنشاء المساجد والمعاهد والمراكز الإسلامية.

ومن أبرز الدعاة أيضاً الإمام أحمد بن إبراهيم الأشول، الذي ظهر في القرن السادس عشر،
وجاهد في الله حق جهاده حتى حرر الصومال من المعتقدات الفاسدة ونشر الإسلام في مناطق
أخرى كثيرة، وكذلك الشيخ عبدالله بن حسن الذي ذاع صيته في القرن التاسع عشر الميلادي،
فقد دعا إلى الجهاد في سبيل الله ضد الأحياس وغيرهم ممن يعوقون حركة الدعوة الإسلامية
ووحدة المسلمين.

لا شك أن الأفارقة الذين اعتنقوا الإسلام قد أسهموا أسهاماً عظيماً في نشر الدعوة وتأهيلها
في نفوس الناس وتأمين استمراريتها في شرقي أفريقيا..

(١) المغربي: الإمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، ص ٢٢.

الفصل الرابع

اوضاع المسلمين في الحبشة المعاصرة

لقد مرت الدعوة الاسلامية في الحبشة - كما اسلفنا - بطور شديد التعقيد ومتحركة في الخصوصية. ولقد بلورت الاحداث التاريخية لهذا البلد نوعاً فريداً من اختلاط الالوان والجنسيات والديانات واللغات.

ولقد ركز نظام الحكم الحبشي على مر العصور على اضطهاد المسلمين واضعاف مركزهم السياسي، وعدم اعطاء أي منهم، أياً من المراكز المهمة في الوزارة او السلم الوظيفي للدولة أو في قيادات الجيش. كما ان هناك تقييداً شديداً لبناء المساجد وانشاء الجمعيات الاسلامية واقامة الشعائر والأذيرة، وانشاء الجمعيات الكنائسية في المناطق الاسلامية والوثنية، وبغرض قيسا غير دينية، ويعمل على زواج المسلمة من المسيحي او الوثني.

وحينما استولى الجيش على الحكم في سبتمبر ١٩٧٤م، من الامبراطور هيلاسلاسي الحاكم رقم ٢٢٥ منذ بدء الاسرة السليمانية في عام ١٢٧٠م - تلك الاسرة التي تزعم انها تنحدر من نسل سليمان بن داود عليهما السلام ويلقبس ملكة سبأ - واعلن قيام الجمهورية، كان عليه ان يتعامل مع الميراث التاريخي للعقد للأمة الحبشية.

فبدأ في اتخاذ اجراءات اساسية تجاه المسلمين، مثل رعاية المساجد وضمان حقوقهم في اقامة شعائرهم، والسماح لهم بالحج وزيارة الاماكن المقدسة ولكن كل هذه الاجراءات مشروطة وعقيدة. فانه اذا كان من حق المسلمين اقامة الشعائر الدينية في المساجد، فان الامر يجب ان يقتصر على الصلاة فحسب، واذا كان خطيب المسجد يلقي خطبة الجمعة او العيدين، فانه يجب ان يقتصر خطبته على الوعظ والارشاد والاقتباس من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وعدم ربط ما يقول بما يجري داخل المجتمع الحبشي.

ورغم ان النظام السياسي الحديث في الحبشة يطرح نفسه على انه نظام علماني يفصل بين الدين والدولة، فيانه لا يمكن انكار دور الكنيسة في الحياة السياسية واليومية للبلاد. ويعتبر معظم من ينتمون الى الفئة الحاكمة في البلاد من المسيحيين «الارثوذكس» أو «الكاثوليك»، ولا يوجد وزير مسلم واحد في الحكومة او عضو مسلم في قيادة المجلس العسكري الحاكم للبلاد. واكبر المناصب التي يمكن ان يصل اليها مسلم في الحياة العامة في الحبشة لا تتعدى نائب مدير عام او رئيس قسم او وكيل وزارة او سفيراً في الخارجية او عقيداً او عميداً في الجيش، وكلها حالات نادرة.

ومن الملاحظ أن تعرف أن عدد المسلمين في العاصمة الحشية «أديس ابابا» أكثر من عدد المسلمين فيها، ويتركز المسلمون في الحشة في سبع ولايات ضمن (١٤) تنقسم إليها البلاد.

وهذه الولايات هي:

- أريتريا، ويبلغ التعداد الكلي للسكان بها ٢.٥٥٩.٠٠٠ نسمة.

- جونا، وتعدادها ٢.١٦٦ نسمة.

- هرر، وتعدادها ٣.٢٩٧ نسمة.

- تيجري، وتعدادها ٢.٢٨١ نسمة.

- شوا، وتعدادها ٦.٧١٢ نسمة.

- والثر، وتعدادها ٢.١٥٦ نسمة.

- سيدامو، وتعدادها ٢.٩٦٢ نسمة.

ويبلغ مجموع السكان في الحشة حسب الإحصاء الرسمي لعام ١٩٨٢م ٣٣.٧٧٤.٠٠٠ نسمة.

وتقول التقارير الرسمية أن معدل زيادة السكان يبلغ ٢.٥٪ سنوياً، ولا توجد أي دراسة أو وثيقة رسمية حشية عن التوزيع الديموي للسكان (١).

وفيما يلي نسبة المسلمين في دول شرقي إفريقيا، وذلك حسب إحصاء عام ١٩٨٠م/ ١٩٨٣م (٢).

اسم الدولة	نسبة المسلمين	اسم الدولة	نسبة المسلمين
الحشة	٪٦٥	ملاوي	٪٣٥
أريتريا	٪٩٣	موزمبيق	٪٣٥
الصومال	٪٩٩	مدغشقر	٪٢٥
جيبوتي	٪٩٩	جزر القمر	٪٩٩
زنجبار	٪٩٠	جزر سيشل	٪١٠
تنجانيقا	٪٦٨	جزر موريشوس	٪٢٠
كينيا	٪٥٣	جزر ريونيون	٪٤٠
أوغندا	٪٤٨	بروندي	٪٤٠
رواندا	٪١٠		

(١) المسلمون: العدد ٤٦، السبت ٩ ربيع الآخر ١٤٠٦هـ، ص ٦ - ٧.

(٢) محمود شاكر: العالم الإسلامي ص ٣٥ وما بعدها، ومصطفى مؤمن: قسائم العالم الإسلامي، ص ١٣٤ و ١٣٨.

كثير من عقد
بها البلاد.

ويستطع من المصادر التي تناولت تاريخ شرقي افريقيا، ان القبائل الافريقية لم تستطع ان
تذيب المهاجرين تماما، لأن مورد العرب كان منهلا لا يكاد ينضب، ويترتب على ذلك ان احتفظ
هؤلاء المهاجرون ببعض سماتهم المميزة، وقد نتج عن هذا الوضع الاجتماعي المتحرك، اللغة
السواحلية، وهي مزيج مركب من لهجات ولغات متباينة، وتعتمد في معظم مفرداتها على اللغة
العربية، وذلك بنسبة تتراوح بين ٣٥ و ٤٥٪ وتكتب اللغة السواحلية بالحروف الهجائية
العربية. قبل ان يفرض الاستعمار الاوروبي لغته على شرقي افريقيا، وهي أي السواحلية تنتشر
الآن بنسب متفاوتة في البلاد الافريقية المذكورة آنفا.

٣٢٠ ٧٧٤ . . .

جد أي دراسة أو

عام ١٤٠٣ هـ /

السلحين
٣٥٪
٣٥٪
٢٥٪
٩٩٪
١٠٪
٢٠٪
٤٠٪
٤٠٪

الاسلاميا

الفصل الخامس

الدعوة إلى الإسلام في شمال أفريقيا

قبل أن نتعرض إلى دراسة تاريخ الدعوة الإسلامية في وسط وغربي أفريقيا نشاول منطقة شمالي أفريقيا باعتبارها الطريق الأعظم الذي سلكه الإسلام إلى تلك البقاع . وليس من غرصة في هذه الدراسة أن نتعرض لتفاصيل الحملات الإسلامية لفتح المغرب . وإنما يحسن بنا أن نتناول البحث عن الطرق أو الوسائل التي انتشرت بها الدعوة الإسلامية في المغرب . ثم نتناول إلى المناطق الموالية . وبؤسفنا أن المادة التاريخية التي تعيننا على تحقيق هذا الغرض قليلة نسـة وافية .

عن النبي صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى . بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة . ويعرج أبو بكر الصديق رضي الله عنه بالخلافة (١١-٣١ هـ / ٦٣٢-٦٣٤ م) فسار على نهج الرسول صلى الله عليه وسلم في الدعوة إلى الإسلام وإدارة شؤون الدولة الإسلامية . ولما نزع أبو بكر الصديق رضي الله عنه على فتح الشام خصه بأربعة ألوية على رأسها أربعة من كبار الصحابة . وهم :

١- أبو عبيدة بن الجراح ويتجه إلى حمص .

٢- شرحبيل بن حسنة ويتجه إلى الأردن .

٣- يزيد بن أبي سفيان ويتجه إلى دمشق .

٤- عمرو بن العاص بن وائل ويتجه إلى القدس .

وقد وجدت هذه الجيوش مقاومة شديدة من الروم . إلا أنه تم الفتح بفضل الله . وفر هرقل إلى القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية . مودعا بلاد الشام . قائلا كلمته المشهورة « عليك السلام يا سوريا ونعم هذا البلد للعدو » (١) .

(١) مزيد من التفاصيل راجع المصادر والمراجع التالية :

أ - ابن عبد الحكم : فتح مصر . ص ٤٧ وما بعدها .

ب - البلاذري : فتوح البلدان . ص ١٦٦ وما بعدها .

ج - الدكتور عبد الشافي محمد عبد اللطيف : العالم الإسلامي في العصر الأموي . ص ١٢ - ١٣ .

د - الدكتور إبراهيم العدوي : تاريخ العالم الإسلامي . ص ١١٢ - ١١٥ .

وعندما فتح عمرو بن العاص «القدس» أمير عقرونيوس بطريرك القدس بلى ان يسلم هذه المدينة المقدسة الى الخليفة شخصيا، هذا بالإضافة الى عوامل أخرى، جعلت الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى الشام سنة ١٧هـ / ٦٣٨م، وتسلم القدس، وعقد مؤتمرا في الجابية، وهي تقع في مرتفعات الجولان بالقرب من سوريا تم فيه تنظيم بلاد الشام الى اجناد، هي: جنه دمشق، وجند حمص، وجند الاردن، وجند قنسرين، وقد عين الخليفة عمر بن الخطاب معاوية بن أبي سفيان واليا على الشام، كما تقرر في مؤخر الجابية فتح مصر لنشر الدعوة الاسلامية، ولتأمين بلاد الشام من التجمعات البيزنطية التي انسحبت من فلسطين الى مصر التي كانت مستعرة بيزنطية، وكان فيها جيش بيزنطي كبير.

تولى فتح مصر الصحابي الحليل عمرو بن العاص في نهاية سنة ١٨هـ، واتم فتحها في حوالي ثلاث سنوات (١٨ - ٢١هـ) (١).

ويرجع النجاح السريع الذي احرزه المسلمون في مصر الى ما لقوه من ترحيب الاهالي المسيحيين الذين كرهوا الحكم البيزنطي، لما عرف به من الادارة الطالحة، واضطهاد اتباع المذهب يعقوني، فقد كان المصريون يعاقبة بقولون بالطبيعة الواحدة للمسيح أي انه إله، بينما كانت الدولة البيزنطية تدین بالمذهب النسطوري القائل ان المسيح طبيعتين «إلهية وبشرية».

وقد مارست الدولة البيزنطية أشد انواع الاكراه لحمل المصريين على اعتناق مذهبها. واشتد الأذى عندما جاء الامبراطور هرقل (٦١٠ - ٦٤١م) بمذهبه التوفيقي الجديد، وهو مذهب المشيئة الواحدة للمسيح، وحاول فرضه على المصريين بالقوة، وأوكل هذه المهمة الى قيرس - المقوقس - الذي عينه حاكما على مصر بجانب رياسته للكنيسة. وقد اشتط المقوقس في فرض هذا المذهب الجديد، وتحث ضغوطه تحول كثيرون اليه ممن لم يستطيعوا الهرب، ومنهم بعض الاساقفة، أما البطريك بنيامين فقد هرب وظل مختفيا في الصحراء الغربية. حتى دخل عمرو بن العاص مصر، واعاده الى كرسى البطريكية، ومن لم يستطيع الهرب، ولم يقتل المذهب الجديد فقد قاسى أشد العذاب، مثل الأب مينا أخي البطريك بنيامين، هذه الصورة القاتمة من الاضطهاد الديني الذي مارسه البيزنطيون في مصر، حلت محلها صورة مضيئة مع مجيء الفتح الاسلامي الذي وفر للمصريين، حياة تقوم على الحرية التي لم يتمتعوا بها قبل ذلك بقرون. وقد تركهم عمرو بن العاص احرارا على ان يدفعوا الجزية وكفل لهم الحرية في اقامة شعائرتهم الدينية، ونظرا لذلك فقد تحول كثيرون منهم الى الاسلام، وتركوا عقيدتهم المسيحية.

ولم يقتصر اعتناق الاسلام على القبط، بل أسلم كثير من الروم الذين بقوا في مصر بعد الفتح. وأصبحت مصر بالتدريج بلدا مسلما أغلبية سكانه مسلمون، وبقي بعض القبط على دينهم حتى الآن. وبقاء هذا العدد من المصريين على مسيحيتهم دليل على التسامح الاسلامي، وعلى ان من اعتنق الاسلام منهم اعتنقه عن رضى وقناعة دون اكراه، وهذه حقيقة يعترف بها

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٤٩ وما بعدها، وابن عبد الحكم: المرجع السابق، ص ٢٤ وما بعدها.

الكتابات المسيحية في سرية خاصة (١١).

والذي يعرفه كل مطلع على سيرة الدعوة الإسلامية أن أعظم ما يدخل السيرة على قلب المسلم أن يهدي الله به ولو رجلا واحدا إلى الإسلام فهذا خير له من حشر النعم. فقد أضاف في عذب منسجني مصر إلى الإسلام دور القاضي إلى «دنه بالحكمة والمعرفة الحسنة» والقضاء الطيبة. فالحق - والأمراء - والقادة كان دورهم الوعظ والإرشاد والتشجيع وإحقاق الحق بالأساس والالتزام بدعوى الإسلام ونصوص المعاهدات والشريعة والتسامح بين العباد. وبذلك فالفلاحون لم يكونوا يخشون المسيحيين فنة فوق المصريين يتعالتون عليهم. بل احتفظوا بخصرهم وعاشروهم وكان انتشار الإسلام. يزداد في مصر مع ازدياد وقوة القبائل العربية وإقامتها لشعائر الإسلام. وانقطاع صاعقات منها للدعوة، لم تكن هذه القبائل تعيش في طائر محصور. ولكنها كانت تجوب مناطق كثيرة. ولم تكن تعيش منعزلة. والمما كانت تشارك في كل مظاهر الحياة وألوان النشاط في إطار من سلوكها الإسلامي. ولذلك فإن لنا أن نتصور أنها اعانت على نجاح الدعوة الإسلامية وسكنت لها في البلاد.

لما استقر الوضع في مصر التحم عمرو بن العاص نحو القلم برقة وما يليه من بلاد المغرب. وذلك لنشر الدعوة الإسلامية. والحفاظ على المكاسب الإسلامية في مصر. ودفع ما قد يظهر من مشروعات بيزنطية ترمي إلى استعادة مصر عن طريق برقة وطرابلس. وتوسيع رقعة ولاية مصر الإسلامية وزيادة مواردها.

لم يدخل المغرب بوجه عام في الإسلام بحملة واحدة - بل بسلسلة من الحملات الإسلامية استمرت أكثر من سبعين سنة متقطعة بدأت بحملة عمرو بن العاص على مصر سنة ١٨ هـ / ٦٣٩م. وانتهت بحملة موسى بن نصير التي فتح فيها المغرب الأقصى سنة ٩٠ هـ / ٧٠٨م (٢). واستغرق فتح المغرب هذه المدة الطويلة قد يرجع إلى عدة عوامل نذكر منها على سبيل المثال ما يلي:

- ١ - اتساع البلاد وصعوبة التوغل في أراضيتها.
- ٢ - عدم انتظام الجيش الإسلامي. لأن سرعته أو إبطاءه كانا يتوقفان على سياسة الدولة الإسلامية. وعلى الأحداث الجارية فيها. وعلى سياسة الجيش الإسلامي أزاء السكان.
- ٣ - تدخل الروم لوقف الفتح الإسلامي.
- ٤ - مقاومة الأمازيغ.
- ٥ - كانت القيادة الإسلامية في دار الخلافة. قادة على متابعة جيوشها مباشرة في فارس والعراق والشام ومصر. ولكن الأمر اختلف في بلاد المغرب. وعلى الرغم من المقاومة العنيدة التي لقيها المسلمون الفاتحون من أهل المغرب ومن طول أمه

(١) توماس أرنولد. المرجع السابق. ص ٦٥ و ٨٨.

(٢) الدكتور حسين مؤنس. معالم تاريخ المغرب والأندلس. ص ٣٤ - ٣٥.

الفتح، فإن الملاحظ، ان الاستجابة الى الاسلام كانت اسرع وأوسع انتشارا مما حدث في المشرق، ويرجع ذلك الى عدة الامازيغ للروم وحقق تأثير المسيحية عليهم، فالقبائل التي كانت تسكن الناحية التي أقبلت فيها القسروان أو تحيط بها معدودة من قبل الديو الدين ليشوا على عدة الروم زما طويلا، وان تأثير المسيحية فيها كان ضعيفا.

قد يكون هذا أو ذلك من الأسباب، لكن من المؤكد ان هذه الأسباب وحدها لم تكن هي التي دفعتهم الى اعتناق الاسلام، الا اذا كانوا قد اقتنعوا به دينا يدعو الى توحيد الله في بساطته وتسامحه، وانه خلق لهم المساواة باخوانهم الفاتحين، فأقبلوا عليه وأخذت أعدادهم تزيد باطراد حتى أسلموا جميعا (١١).

ومن المؤكد أيضا ان هؤلاء الذين اعتنقوا الاسلام في ذلك الوقت المبكر قد حسن اسلامهم، وظلوا متسكنين به رغم اشتغال المسلمين عن الفتوحات في المغرب، من أواخر خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه حتى بداية خلافة معاوية بن أبي سفيان (٤٠ - ٦١ هـ) لانا نجد كثيرين من مسلمي الامازيغ ينضمون الى عقبة بن نافع، ويدعون معه إلى الاسلام عندما أسند اليه معاوية قيادة الفتح الاسلامي في المغرب (٥٠ - ٥٥ هـ / ٦٧ - ٦٧٥ م)، وكان عقبة مجاهدا، ومرابطا وواعظا ومرشدا، واغوجا لما ينبغي ان يكون عليه المسلم المخلص المتحمس لعقيدته.

ازداد انتشار الاسلام في المغرب في ولاية أبي المهاجر دينار الذي خلف عقبة في المغرب (٥٥ - ٦٢ هـ) والذي عرف الامازيغ وتقرب اليهم بالحكمة والموعظة الحسنة، وقد نجحت دعوته وآت ثمارا طيبة في مجال تقرب الاسلام الى نفوس وقلوب الامازيغ، فازداد اقبالهم عليه، وقد فتح ابو المهاجر المغرب الأوسط، وتحملت نتائج دعوته بعد الفتح، في جذب ابرز زعيم امازيغي في المنطقة، وهو كسيلة بن لزم الى الاسلام، حيث اسلم باسلامه كثير من قومه، ولم يكتف ابو المهاجر باسلام كسيلة ومن تبعه من قومه، وانما عمل على نشر الاسلام في المغرب كله، فكان كلما فتح مدينة يقيم فيها ويسني المساجد ويدعو الناس الى الاسلام، فعمل ذلك في مناطق كثيرة وكان يعمل على تحقيق الامتزاج والوحدة بين المسلمين العرب والامازيغ، وقد أثمرت جهود أبي المهاجر في مجال الدعوة الى الاسلام ووضحت آثارها بعده بثلاثين سنة تقريبا، حيث نجد رجالا من الامازيغ مسلمين على ثقة وتمكن من دينهم يسرون مع العرب جنبا الى جنب لفتح البلاد ونشر الاسلام في اوربا المسيحية وافريقيا الوثنية.

وبينما كان أبو المهاجر دينار يواصل فتوحاته في المغرب ويدعو الناس الى الاسلام ويحقق النجاح ثلو النجاح، اذا بالخليفة يزيد بن معاوية (٦٠ - ٦٤ هـ) يعزله، ويرد عقبة بن نافع ثانية الى المغرب..

وقد قام عقبة في هذه المرحلة بحملته السريعة التي وصل فيها الى شواطئ المحيط الاطلسي، وفي هذه المرحلة اسلم على يديه خلق كثير من الامازيغ، وقد ترك فيهم عقبة بعض اصحابه

(١١) ابن خلدون : العبر ودبران المبتدأ والخير .. ج ٦، ص ١١٠ وما بعدها.

عليهم القرآن الكريم والشريعة الإسلامية، منهم تاجر صاحب الرباط، وغيره (١).

وقد ظهرت آثار جهود عقبة ومن سبقوه في الدعوة إلى الإسلام وتثبيتها في نفوس الأمازيغ في حادثة نهضة التي استشهد هو فيها، وعلى الرغم من صرامة هذه المأساة، فإنها كشفت عن

رسم الإسلام في نفوس الأمازيغ وسعة انتشاره في البلاد (٢).

ثم إن كسيلة بعد سيطرته على المغرب عقب استشهاده عقبة بن نافع وأسحاب القضاة

الاسلام من القيروان إلى برقة لم تسجل المصادر التاريخية على لسانه كلمة معادية للإسلام

المسلمين مما يبعد عنه تهمة الردة التي خلط المؤرخون بينها وبين حركته السياسية ضد عقبة وغيره

بن قيس الثوري.

والواقع أن حركة كسيلة كانت تستهدف في المقام الأول تخليص صديقه أبي المهاجر دينار من

امر عقبة، وليست مقاومة للدعوة الإسلامية في المغرب وهو موقف يتم عن الوفاء بالحركة التي

قام بها كسيلة ضد عقبة، تشابه إلى حد كبير بعض الحركات السياسية التي كانت تدور بين

القيادات الإسلامية في المشرق في تلك الفترة.

ويبدو أنه من الصعب على النفوس الشريرة أن تتخلص من نزعاتها، فمضادونا تجمع على أن

عقبة بن نافع المجاهد الكبير عامل أبا المهاجر معاملة قاسية (٣).

لقد عرف كسيلة للقيروان مكانتها الإسلامية فاحتفظ بها عاصمة للبلاد، وحكم منها الكور

والأجناد، ولم يمس الآثار الإسلامية فيها، وتمتع المسلمون في فترة حكمه التي دامت خمس سنوات

بالأمن والطمأنينة (٤).

ولما تولى قيادة الجيش الإسلامي حسان بن النعمان (٧١١ - ٨٥ هـ) / ٦٩٠ - ٧٠٤ م

استطاع أن يقضي على النفوذ البيزنطي في المغرب كله. كما مكنته انتصاره الساحق على الكافة

من توطيد أركان الإسلام في المغرب.

أما موسى بن نصير (٨٥ - ٩٥ هـ / ٧٠٤ - ٧١٤) فقد أتم فتح المناطق الداخلية من المغرب

الأنصى، وركز اهتمامه على نشر الإسلام بين القبائل بإرسال الفقهاء والقراء إلى كافة أنحاء

المغرب وبالإضافة إلى هذا لعبت الهجرات العربية إلى المغرب دورا عظيما في انتشار الإسلام

واللغة العربية بين السكان (٥).

هذه الجهود المتلاحقة التي بذلها الولاة لنشر الدعوة الإسلامية في المغرب حققت دفعة هائلة

في عهد عمر بن عبدالعزيز (٩٩ - ١٠١ هـ)، الذي جعل هدفه الأول نشر الدعوة الإسلامية

وتطبيق المنهاج الإسلامي في البلدان المفتوحة، وقد خص المغرب بأكبر قدر من اهتمامه، واختار

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ج ١، ص ٤٢ وما بعدها.

(٢) ابن عذاري: المرجع السابق ج ١، ص ٤٢.

(٣) ابن عبد الحكم: المرجع السابق، ص ١٣٤.

(٤) ابن الأثير: المرجع السابق، ج ٤، ص ١٠٨ وما بعدها.

(٥) ابن عذاري: المرجع السابق، ج ١، ص ٤٣ وما بعدها.

لولايته أسامة بن عبد الله. وعهد إليه نشر الدعوة. وأرسل معه عشرة من التابعين ليعاونوه
 في مهمته. منهم عطاء الرحمن بن رافع النخعي ومعه بن مسعود النخعي وشريح (١).
 ولما ان تصبوا اثر العظيم الذي يحدثه وصول عشرة من الدعاة التابعين الى المغرب. في
 تعظيم الامايزع امور الشريعة الاسلامية. وقد وضع هؤلاء العلماء. نواذ التعليم الاسلامي المنظم في
 المساجد ويصفه خاصة في القيروان التي اقام فيها معظمهم. وكان الناس يقدون اليهم من انحاء
 المغرب لتلقي العلم والتفقه في الدين (٢).
 وخلال هذه القبول ان الدعوة الاسلامية قد نظمت في المغرب منذ مطلع الفشوحات. والمحدث
 مسيرتها. وكانت في كل يوم تكسب ارضا جديدة. حتى عممت الاقاليم كلها. وقامت على ما
 حولها. واكتسبت للمغرب كل الاسباب. ونهأت كل الفرص من تشجيع الخلق. وجهود الزلا
 والدعاة ليصبح بلادا اسلامية عربية خالصة. يحكمها عامل المصلحة المسلمين. واختفى المغرب
 القديم بأديانه ومذاهبه المختلفة ليحل محله المغرب الاسلامي.
 وبدأ هذا القطر الكبير يأخذ طريقه الحضاري ليقوم بدوره المجيد في تاريخ الاسلام والحضارة
 الاسلامية.

(١) ابو العرب القيرواني : طبقات علماء افريقيا. ص ٨٤.
 (٢) المالكي : المرجع السابق ج ١. ص ٦٤ وما بعدها.

الفصل السادس

الدعوة إلى الإسلام في السودان الأوسط

يقصد بالسودان الأوسط المنطقة الشاسعة الممتدة من الضفاف الشرقية للبحر الأوسط حتى الضفاف الغربية للبحر الأبيض. وتضم هذه المنطقة النيجر ونيجيريا والتشاد والكاميرون والغانا والكونغو والجزء الغربي لجمهورية السودان الديمقراطية.

عاشت أفريقيا قبل الإسلام وهي منقسمة إلى قسمين: أفريقيا شمالي الصحراء وتسمى بلاد البيضاء وأفريقيا جنوبي الصحراء وتسمى بلاد السودان وكأنهما عالمان لا يعرف الواحد منهما الآخر. والصحراء الكبرى حاجز طبيعي منيع لأن عرضها يبلغ في أضيق أجزائها ثلاثة آلاف كيل متر، كانت تقطع في الماضي في ثلاثة شهور على الأقل. ومن العسير جداً على أي مسافر أن يحمل معه ماء لشخصه ولدايته يكفي ثلاثة شهور. ثم إن رحلة الفرد الواحد مستحيلة لكثرة الاخطار وبعد المسافة وصعوبة تدبير الراحة والتوهم والطعام على إنسان بمفرده، فلا بد من قافلة تضم بضعة عشرات أو مئات من الناس معهم بضعة عشرات أو مئات من الدواب التي تحمل الانقال. تضيف إلى ذلك أن جو الصحراء لا يسمح لأهل الشمال بالعبور إلى الجنوب، ولأهل الجنوب بالانتقال إلى الشمال بانتظام طول العام.

ولكن الإسلام دين لطيف ينتقل مع الريح لا تقف في سبيله الحواجز الرملية أو الجبلية أو المائية. وقوته الذاتية وقضائله التي لا تعد ولا تحصى عبر الصحراء. وانتشر نوره بين الناس في بلاد السودان.

وفيما يلي نرى كيف أن الإسلام انتشر في السودان الأوسط بالحكمة والموعظة الحسنة التي عرض بها دعاة الإسلام تعاليمه واقتدى الناس بها. والكلمة الطيبة التي فتحت مغاليق القلوب ونقلت إلى الإسلام أقواماً كان الغرب يقول إلى حين قريب «أنهم ليسوا من البشر».

بلاد النوبة :

لم يفتح المسلمون من أفريقيا بالجيوش إلا بلاد المغرب أو شمالي أفريقيا بما في ذلك بلاد النوبة. أما بقية ما دان للإسلام من بلاد هذه القارة فقد دخل الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة. كان لبلاد النوبة أوثق العلاقات مع مصر وكانت تتأثر بما يجري في مصر من أحداث، لذلك كان للفتح الإسلامي لمصر أثر كبير في بلاد النوبة التي حاولت أن تقاوم هذا الفتح. وبلاد النوبة

واسعة تقع جنوب مصر وأهلها نصارى يعتقدون المذهب البعوثي منذ القرن الخامس الميلادي
وارتبطوا جميعا بالكنيسة القبطية. وكان فيها عدة ممالك مسيحية أهمها مملكة المقرة أو النوبة
السفلى وعاصمتها «دقلقة» ومملكة علوة أو النوبة العليا وعاصمتها «سوبا».

في سنة ٢١ هـ / ٦٤١ م. أرسل عمرو بن العاص القائد عقبة بن عامر إلى بلاد النوبة، لمقاتل
أهلها «دون فتح» لأنهم قاوموا الجيش الإسلامي مقاومة شديدة، وكانوا مهرة في رمي النبال
وأصابة الهدف... وعندما تولى امر مصر عبدالله بن أبي السرح، قام في سنة ٣١ هـ / ٦٥١ م. بفتح
بلاد النوبة وعقد مع ملك دقلقة معاهدة ورد في جزء منها ما يلي:

«وعليكم حفظ المسجد الذي ابتناه المسلمون بفا مدينتكم ولا تمنعوا منه مصليا ولنا
عليكم بذلك أعظم ما تدبونه به من ذمة المسيح وذمة الخواريين وذمة من تعظمونه من أهل
دينتكم ومدينتكم، الله شاهد بيننا وبينكم» (١).

وكان معه في هذه الحملة عقبة بن عامر أيضا... وقد ضمت هذه المعاهدة للمسلمين استمرار
الدعوة الإسلامية في بلاد النوبة. وفي الوقت نفسه أطار العلاقات السياسية والاقتصادية بين
بلاد النوبة والدولة الإسلامية. ومنذ ذلك التاريخ لم ترسل حملة لفتح بقية ممالك النوبة إلا في
عهد الخليفة المتوكل بن الواثق العباسي (٢٣٢-٢٤٧ هـ / ٨٤٧-٨٦١ م) حيث امر بضم أرض
المعدن إلى ولاية مصر وأرض المعدن وهي وادي العلاقي المؤدي من «فوس» على شاطئ البحر
الأحمر قبالة «جدة» إلى عيذاب، فعهد إلى مصر إلى رجل يسمى محمد بن عبدالله القمي.
قدخل وادي العلاقي حتى وصل عيذاب. وجاؤه ملك البجة اعتراض القمي ولكنه تغلب عليه،
فطلب ملك البجة الهدنة، فاشتراط الخليفة المتوكل أن يقد ملك البجة إلى بغداد فتم ذلك وصرح
سنة ٢٤٦ هـ / ٨٥٥ م على ادا الجزية (٢).

ان التأمل في تاريخ الدعوة الإسلامية في شرقي أفريقيا وبلاد النوبة، أو سودان وادي النيل،
والسودان الأوسط، يجد الكثير من أوجه الشبه بين الأسباب والوسائل والتطورات والنتائج.
فاتصال مصر الوثيق ببلاد النوبة كان من أهم العوامل التي ساعدت على انتشار الإسلام وفي
تطور الثقافة الإسلامية وغوها واتخاذها طابعا خاصا. كما دخلت المؤثرات الإسلامية من شرقي
أفريقيا عبر بلاد النوبة، وتركت في تاريخ وادي النيل والسودان الأوسط وتطور ثقافته الإسلامية
أثرا واضحا..

كما لعبت الهجرات العربية في بلاد النوبة أو سودان وادي النيل والسودان الأوسط، دورا
مماثلا للدور الذي لعبته في نشر الإسلام في شرقي أفريقيا. هذه الهجرات هي التي حملت
الإسلام واللغة العربية إلى تلك المناطق وطبعت البلاد بطابع لا يزال مستمرا إلى اليوم. ففي
أثناء الفترة الكبرى وقيام الدولة الأموية، والثورات التي شهدتها، أصبحت بلاد النوبة والمناطق

(١) راجع : الدكتور حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام في القارة الأفريقية، ص ١٣٩ وما بعدها.

(٢) البلاذري : فتوح البلدان، الجزء الثاني، ص ٢٨٢.

والدكتور / حسين مؤنس : أطلس تاريخ الإسلام، ص ١٣٣ ١٣٤.

المواجهة لها في السودان الأوسط، ملأوا نغمة اليه القبائل العربية، وذلك عن طريق مصر وبلاد النيل والبحر الأحمر ودون الأربعين وقرآن وكانت هذه الهجرات تدخل بلاد النوبة والسودان الأوسط دون أن يستشعر الملوك أي خطر كانت هجرات مسالمة لا تعدو جماعات برية تنتمس الآن بالمقام وتحاطب السكان ولا تسيب اليهم ولا تفلن بالهالكين، وكانوا يتركونها وشأنها لا يتعرضون لها بسرا، وتنازع حصانها في حرية وعدو- وطنانية، وهناك من الشواهد ما يدل على أن سقوط الدولة الأيوبية وقضاء الدولة العباسية قد صحبه فرار كثيرين من بني أمية وانصارهم واقامتهم ببلاد النوبة والسودان الأوسط، وكان هؤلاء اللاجئون عاملا هاما في نشر الاسلام بين أهل هذه البلاد. ومن العوايد أيضا حاجة الدول الاسلامية التي قامت في مصر الى تجميد السودانيين في الجيش الاسلامي وقد وضحت هذه الحاجة بشدة منذ ايام الدولة الطولونية (٣٥٤ - ٢٩٢هـ/٨٦٨ - ٩٠٥م) واستمرت هذه الحاجة في عهد الدولة الاخشيدية (٣٢٤ - ٣٥٩هـ/٩٣٥ - ٩٦٩م) ثم تضاعفت في عهد الدولة الفاطمية (٣٩٦ - ٥٩٧هـ/٩٠٩ - ٧٣٠م). وشارك السودانيون في حركات كثيرة في عهد تلك الدول، واستعان بهم الخلفاء والولاة في القضاء على الفتن والثورات هؤلاء الجند كانوا يعتنقون الاسلام، وكان بعضهم يقيم في مصر بعد تسريحه من الخدمة العسكرية وبعض منهم كانوا يعودون الى اوطانهم، وكانوا أحسن مثل لما يمكن أن يفعله الاسلام بالافريقي من حيث الارتفاع بمكانته الاجتماعية والاقتصادية. ولا نستبعد أن يكون هؤلاء الجند العاملون الى الوطن من أحسن الدعاة الى الاسلام بين ذويهم (١).

ومن الهجرات العربية التي اندفعت الى النوبة والسودان الأوسط في العصر المملوكي الأول أو البحرية (٦٤٨ - ٧٨٤هـ/١٢٥٠ - ١٣٨٢م)، هجرة جبهة وهي واحدة من خليط من القبائل في منطقة السودان الأوسط لتعزز من وجود القبائل العربية الاخرى التي وفدت الى المنطقة في فترات سابقة، وانتشر بانتشار هذه القبائل الاسلام واللغة العربية، واختلط العرب بالسكان السودانيين، ثم انتهى بهم المطاف الى الامتزاج واقامة المسالك الاسلامية. وكان اسلام الملوك والامراء وسقوط مملكة مقرة ومملكة علوة خطوة كبيرة في هذا الاتجاه، إذ يسقط هاتين المملكتين انتهت المقاومة المسيحية للدعوة الاسلامية وسط المسلمون نفوذهم على بلاد النوبة ومنطقة السودان الأوسط نهائيا (٢).

وكانت مملكة الفونج (٩١١ - ١٢٣٧هـ/١٥٠٥ - ١٨٢١م) أول دولة اسلامية قامت جنوب مصر، في المنطقة الممتدة من سواكن شرقا الى النيل الابيض غربا، ومن اقصى جبال فازو على جنوبا الى الشلال الثالث شمالا، أي انها شملت معظم اراضي مملكتي مقرة وعلوة السابقتين. ولم يسهم ملوك الفونج في نشر الاسلام متوسلين بالجهد فحسب، انما استعانوا بالوسائل

(١) الدكتور حسن أحمد محمود: الاسلام والثقافة العربية في افريقيا ص ٢٨٧ - ٢٨٨.
 (٢) الدكتور حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص ٢٩٦ - ٢٩٧.

السلمية أيضا، فعملوا على تطبيق الشريعة وإنشاء المساجد ورحبوا بالدعاة والعلماء الذين قصدتهم فحسبوا لهم الإقامة ووعبوا لهم الضياع والأراضي الشاسعة ولم يردوا لهم طلبا ولا شفاعا واشتدت رغبتهم في العناية بتحفيظ القرآن الكريم، وبث الثقافة الإسلامية ولصمغ العقيدة من الشوائب، ومصادق ذلك تشجيعهم للجهود التي بذلها الفقيه يدوي الديري في جبال النوبة والجهود التي قام بها الشيخ اسماعيل الوالي في جبال «كتدكرو».

وقد أسهم في هذه الحركة الإسلامية الواسعة الدعاة الوطنيون والدعاة الواقفون من البلدان الإسلامية المختلفة (١١).

وكان من الطبيعي بعد انتشار الإسلام في بلدان شمالي أفريقيا أن تتوطد العلاقات بينها وبين البلدان الواقعة إلى الجنوب منها. ويقول المقرئ (١٣٦٦ - ١٤٤٢ م) : أن الدعاة والتجار الواقفين من شمال أفريقيا إلى السودان الأوسط كان لهم نشاط واسع. ويبدو أن تأثيرهم كان كبيرا على رؤساء القبائل والأمراء والملوك مما مكنتهم من الدعوة إلى الإسلام في كل مكان وبناء المساجد في مختلف المحاضر (٢).

الإسلام في السودان الأوسط :

وصل الإسلام إلى منطقة السودان الأوسط، خاصة إلى حوض بحيرة التشاد في زمن مبكر. عقلا من إقليم فزان الذي افتتحه المسلمون في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، على يد نافع بن عبد القيس القهري. ويحتل اقليما فزان وكوار مكانة هامة بالنسبة لتاريخ أفريقيا جنوب الصحراء، فهما يكونان معا الطريق الأوسط الذي كان الناس يعبرون بواسطته الصحراء الكبرى. أما الطريق الشرقي فهو طريق وادي النيل. ينحدر الناس حتى اسنا بمصر ثم من اسنا يمتد طريق الأربعين حتى دارفور ووداي، ومن هناك إلى بحيرة التشاد، والحقيقة أن السودان الأوسط كان كله يكون في الماضي السحيق اقليما واحدا، قامت فيه في القديم حضارة ذات شأن، كما قامت فيه دولة كانت الإسلامية (١٨٤ - ١٣١١ هـ / ٨٠٠ - ١٨٩٣ م) وعن طريق الأربعين وفزان وكوار جاء الإسلام إلى السودان الأوسط، وكانت القوافل تشرع من القيروان إلى طرابلس، ومن طرابلس إلى مرزق وكانت أكبر مدن إقليم فزان، ثم إلى بلما، وهي عاصمة إقليم كوار، ومنها إلى الجيمي وهي عاصمة مملكة كانم، وعندها أيضا ينتهي الطريق الشرقي الهابط من مصر.

وقد ذكر أن عالما يعرف باسم أبي زيد الفزاري، كان يدعو للإسلام في الجيمي في أواخر القرن السابع ومطلع القرن الثامن الميلادي.

(١) نعم شقير : تاريخ السودان القديم والحديث، ج ٢ ص ٧٧.

(٢) ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ٧ ص ٢١٠.

ومن مخطوطة عربية ترجع كتابتها إلى الفترة ما بين عاصي ١٦٥٧ و ١٦٦٩م. فترى على الرحالة الفرنسي «بويل دي ميزير» «في كثير» أن هناك جماعة من بني أمية لجأوا إلى كانم عند سقوط الدولة الأموية (١٣٢هـ - ٧٥٠م) واستطاعوا أن يكبروا أسرة حاكمة في وسط إفريقيا، وأن مملكة كانم قامت على أيديهم.

وحال القرن التاسع الميلادي والقرن الموالية. جاءت وفود المسلمين المهاجرين إلى منطقة بحيرة التشاد. وكان من بينهم العرب والأمازيغ أحفاد أولئك الذين جاهدوا في الله حق جهاد مع عقبة بن نافع في أثناء فتوحاته في افريقي قربان وكوار سنة ٤٦هـ - ٦٦٦م. ومنذ ذلك التاريخ أخذ عدد الذين يعتنقون الإسلام يزداد بمرور الأيام والأعوام، وأن مدناً إسلامية قد أُنشئت وازدهرت بالمساجد والعلماء والدعاة والتجار والسلع المختلفة، كمدينة بلما والعجسي ودي وكوكا وماو ومنلو وغيرها (١).

وقد ادعى السلطان عثمان بن زينت الكانمي (١٢٧٩ - ١٣٠٠م) أنه من سلالة الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه. وورد في نصوص المخطوطات العربية التي خلفتها مملكة كانم أن السلطان عثمان بن زينت هذا هو خليفة المسلمين، وأن تربيته في الخلافة الإسلامية يأتي بعد الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١هـ) (٢) وسوا. صرح هذا الادعاء أم لم يصح فإنه يدل على أية حال على مدى اهتمام سلاطين كانم بالإسلام وانتشاره في بلادهم.

أما جهود السلطان إدريس ألوما (١٦٠٢م) في الدعوة إلى الإسلام فقد خلفها كتابات الإمام أحمد بن فرتو مؤرخ مملكة كانم في عهده. فقد عني السلطان إدريس ألوما بتطبيق الشريعة الإسلامية في بلاده، وأوكل للقضاء حماية العدل وسلامة العقيدة في المملكة. كما أكرم من بنا المساجد وتكرم العلماء الذين يعقدون فيها الحلقات الدراسية. والمذهب الفقهي السائد في مملكة كانم، بل وفي إفريقيا جنوب الصحراء عموماً هو مذهب الإمام مالك بن أنس (١٧٩هـ/٧٩٥م) وقليل من يتبع مذهب الإمام الشافعي (٢٠٤هـ/٨١٩م) (٣).

يقول القلقشندي: «وسلطان الكانم من بيت قديم في الإسلام، وقد جاء من ادعى النسب في بني الحسن بن علي كرم الله وجهه، ومذهب بمذهب الإمام الشافعي». وفي موضع آخر يقول: «والعدل قائم في بلادهم ويتمذهبون بمذهب الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه وهم يأسون في الدين» (٤).

وتعتبر مملكة كانم مثلاً حياً وصادقاً لازدهار الحضارة الإسلامية في الممالك التي قامت في

(١) بالفهرست الحسوي: معجم البلدان، ج ٧، ص ٢١٠ وما بعدها.

(٢) الدكتور إبراهيم علي طرخان: امبراطورية برنو الإسلامية، ص ٧٠ - ٧١.

(٣) الدكتور إبراهيم علي طرخان: المرجع السابق، ص ٧٣ - ٧٤.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج ٥، ص ٢٨١ وما بعدها.

والانتماء فقط (١١).

ونظرا لعدة اعتبارات، فإن الحكومة العنصرية ترى المسلمين مصادر قلق ومثار قلق، فلتسور عليهم وتشدد من العقوبات.

وحل ما يقرب من ثلاثين عاما، كان الشيخ عبدالله هارون من كبار رجال الدعوة الإسلامية في جنوب أفريقيا، وكان ذا حظ وافر من العلم والنشاط المتواصل، ولكن الحكومة العنصرية ضيق عليه وعلى غيره من الدعاة، فألقت عليهم القبض ودرج بهم في السجن مدة طويلة، حتى مات الشيخ عبدالله هارون في عام ١٩٦٧م.

وقد أحدث سجنه، ثم موته فراغا واسعا في ميدان الدعوة إلى الإسلام في جنوب أفريقيا. ثم خلفه ابنه محمد هارون، وهو دون أبيه علما ونشاطا. ونجحت الحكومة العنصرية فيما كانت تهدف إليه، إذ حققت روح الجهاد أمام عنف العقوبات، وضعفت الدعوة إلى الإسلام في البلاد، ومن ناحية أخرى ليس للمسلمين في جنوب أفريقيا رابطة أو علاقات مباشرة بالعالم الإسلامي، ولكنهم جماعات، ومصلحة كل جماعة إسلامية على قلبها أو كثرتها أن ترعى لنفسها القيادة وحسن السير على المهج الذي وضعه الله سبحانه وتعالى لعباده.

ومن جانب التصراية فقد وصل المسيحيون إلى وظائف في الدولة لم يصل إليها مسلم أفريقي، ويوجه عام يتقص المسلمين العلم بالإسلام وتحريك الدعوة الإسلامية بينهم. ومع ذلك لا يزال الأفريقيون يفضلون الإسلام دينا لهم ويقلون عليه اقبالا عظيما.

وتمثل «الكاب» الآن حركة من حركات الصراع بين الدعوتين الإسلامية والصليبية، وبين المسلمين والحكومة العنصرية في البلاد، وقد ذهب الدعاة شهداء الدعوة الإسلامية، فمنهم من قضى نحبه في السجن ومنهم من أعدم، ولا تتهاون الحكومة العنصرية مع رجال الدعوة إلى الإسلام، ولا تسمح بوفود دعاة يجوبون البلاد، ويشدد الصراع أكثر في «جوهانسبورغ» العاصمة.

وفي ١١ يوليو ١٩٨٣م، اعتمدت الحكومة العنصرية ثلاثة من المسلمين الوطنيين رقم النداءات الكثيرة المسترحمة لهم من شتى دول العالم، وليست جرمتهم أنهم وطنيون، ولكنها أنهم مسلمون (٢).

كنا نود لحكومة جنوب أفريقيا وهي حكومة المجليزية العنصر، أن ترعى شيئا من ديمقراطية الانجليز، وتفتح رعاياها حرية الاعتقاد، ولكنها مع الاسف الشديد تمارس اضطهادا مخزيا.

استنادا إلى احصاء عام ١٩٨٠، فإن ١٢٪ من مجموع الهنود في جنوب أفريقيا هم من المسيحيين، و ١٧٪ من المسلمين، وبينما الباقون كانوا من الهنودوس. وقد بدأت اعمال التنصير بين هؤلاء على نطاق واسع، وبعد مقاومة قبل كثيرين من الهنودوس ان يتنصروا. والآن أصبح

(١) المسلمون: العدد رقم ١٠٩، السبت ٧ رجب ١٤٠٧هـ / ٧ مارس ١٩٨٧م.

(٢) علي شوقي: الإسلام والتفرقة العنصرية، ص ٣٥ وما بعدها.

هدف التبشير في جنوب افريقيا يتركز على الـ ١٦٪ الباقية من هؤلاء الهنود المسلمين.
ويعيش حوالي ٩٠٠٠٠ من المسلمين الهنود في منطقة «زبان» وحدها. ويشكلون معاً
١٢٪ من مجموع السكان الهنود في المنطقة ولديهم أكثر من ٣٠ مسجداً والعديد من المؤسسات
الاقتصادية (١١).

وذكر المصادر المسيحية ان الشعور بالانتماء إلى الجماعة الاسلامية قوي جداً بين المسلمين
هناك. وان هذا الشعور بشكل اكبر عقبة في تنصيرهم. كما تذكر أيضاً ان هؤلاء المسلمين
يقفون أركان دينهم ووطنيتهم. ولذلك اقترح المجلس «الانجيلكاني» الذي يضم ستين مسجداً
من ستة وأربعين بلداً من المستعمرات الانجليزية. ان تشكل فرق تبشيرية خاصة للعمل بين
المسلمين في منطقة «دريان» للتبشير. واقترح ان يكون الفريق مؤلفاً من أزواج. وتعمل ان
يكون أحد أفراد الفريق من المسلمين المتنصرين.

ويجب ان يجد الفريق الذي يوجه الى العمل تدريباً خاصاً. على أن يتابع فيما بعد دراسات
للغة العربية والقرآن والسنة النبوية والثقافة الاسلامية. وذلك لتسهيل الاتصالات بين المسلمين
والتنصاري. وكذلك لتلقي المعلومات حول الاسلام وهو امر يعتمد عليه نشاط التبشير في افريقيا
وأسيا.

(١١) منار الاسلام : العدد ١١، ص ١٠٤ وما بعدها.
وعلي شوقي : الاسلام والتفرقة العنصرية . ص ٤٠ وما بعدها.

الفصل العاشر

تجّاح الدعوة إلى الإسلام في إفريقيا

لقد تتبنا في الفصول السابقة مراحل انتشار الدعوة الإسلامية في القارة الإفريقية، ورأينا مدى التجّاح العظيم الذي لاقته الدعوة في تلك المراحل.

١ - قدوم عدد كبير من التجار والعلماء والدعاة من المشرق والمغرب، وقد أدى هؤلاء واجهم في نشر الدعوة الإسلامية والثقافة العربية في ربوع القارة الإفريقية، والنحو كثير منهم بمجالس السلاطين وقدموا إلى الأمراء والوزراء والخيرة والمشورة وحسبوا اليهم الإسلام وتطبيق الشريعة الإسلامية.

٢ - شعور الإفريقي المسلم منذ الوهلة الأولى بالاخوة الحقيقية بينه وبين الداعية.

٣ - القيم الداعية التي ظهرت في بقايا الأحيائية، لأن المستوى الثقافي والأخلاقي والفكري للإفريقي المسلم كان يمثل الذروة. فلم تصمد الأحيائية أمام الإسلام، فانتصر عليها انتصاراً عظيماً في كل المناطق التي وصل إليها، ومن ثم فإن الأحيائيين ينظرون إلى المسلمين على أنهم قدوة يحتذى، لهذا يستجيب الأحيائيون إلى الإسلام شيئاً فشيئاً.

٤ - أن شعور الأوروبي المستعمر بالتمييز العنصري واحتقاره للإفريقي ولو كان أحماء في النصرانية، قد أدى إلى نفور الأحيائيين من المسيحية دبابة البيض، وأن أسلوب الداعية المسلم وعلاقة إفريقيا التاريخية بالمسلمين في المشرق والمغرب، قد جعلت للإسلام أغراء خاصاً لدى الإفريقيين الأحيائيين، هذا فضلاً عن موقف الإسلام الحازم من التمييز العنصري والفوارق الاجتماعية في أنحاء القارة الإفريقية.

٥ - في الإسلام تأخذ الحقائق شكلاً ملموساً واقعياً تدركه الأذهان بسهولة مما جعل الإفريقيين على الإقبال عليه والافتناع به والعمل على نشره دوماً هواده.

٦ - كانت شعائر الإسلام نفسها عوناً على انتشار الدعوة وجذباً لنفوس الإفريقيين إليها. فقد كان لصيام شهر رمضان المعظم وما يقارنه من مجالس الوعظ والإرشاد، وقراءة القرآن وصلاة التراويح وحفلات ليلة القدر وليالي العيد ومظاهر التعبيد وما شاكل ذلك، لها جاذبية قوية تجذب النفوس والقلوب وتأخذ بمجامع الالباب.

٧ - وكان لما يرافق السفر إلى الحج والعمرة من حفلات التشجيع والاستقبال، وما يشتمل

عليها من انشيد في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، وذكر فضائل الحج والحجاج باللغة العربية واللغات المحلية. وما يشاهد الحجاج عند العودة من التعظيم والتسجيل. أثر عشق في العرب الأفريقيين. وعامل من عوام ازدياد الافارقة الى بيت الله الحرام في كل عام.

٨- هذه المزايا التي ذكرناها ليس لها مثيل في الاحيائية أو النصرانية وبطبيعة الحال كانت تؤثر ايجابيا في نفوس الافريقيين الكبار والصغار من الرجال والنساء. فيدخلون في الاسلام المرادا وصاعدا عن طواعية واقتناع. وفي مدى خمسة قرون من تاريخ دخول الاسلام في افريقيا جنوب الصحراء، اسلم حوالي ٦٠٪ من مجموع السكان في غربي ووسط افريقيا و ٥٠٪ في شرقيها، و ١٠٪ في جنوبيها.

فالاسلام ينقله لعقلية الانسان الافريقي من النظام القبلي الضيق يمنحه مجتمعا بدلا حرا لا يكون فرصة الشعور بالضياع ونها للتعمق النفسي. فهو يرمي به الى مجتمع ارحم. يوسع الاحياء، ويظلم التعاون والوفاء. كيف لا. وهو مجتمع يساوي بينه وبين غيره من المسلمين. مجتمع ميزان الكرامة فيه التقوى والعمل الصالح. لقوله تعالى: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير» (١) وقد ذكر لوس موزل (٢): «ان الاسلام يأخذ بيد الافريقي فيمنحه المساواة مع الناس جميعا. فمنذ اليوم الاول الذي يعتنق الاحيائي فيه الاسلام، لا يستطيع أي مسلم من العرب والاسان وغيرهم، ان يتسامى عليه بسمو الجنس أو برقعة النسب».

فالاسلام إذا بالنسبة للافريقي سلم نحو مفهوم اسمى للوجود والثقة بالنفس وكان يدخل بمحض ارادته بعد ان يقتنع به.

ولقد أحاد السير توماس ارتولد، عندما اشار الى تلك الحقيقة بقوله: «من السهل ان نعلم كيف كان مظهر التجار المسلمين في ملابسهم الفضفاضة البيضاء. وهم يصلون في خشوع لإله خفي. يؤثر في الافريقي الاحيائي. لأن هذا الافريقي كانت له خبرة سابقة في احبائته بما يشترك تلك الاسرار الخفية، تلك الاسرار التي تدفعه الى حب الاستطلاع للمقارنة بين اسرار احبائته وبين تلك الاسرار التي أتى بها الاسلام والمبادئ التي يدعو اليها. فمنذ اطلاعه على تعاليم الاسلام واقتناعه بها يكون ذلك ادعى الى اعتناق الاسلام، مما لو عرض عليه الدخول فيه دون موازنة».

وهذا هو السر في ان الاسلام وجد اقبالا عظيما في افريقيا، واعترف بهذه الحقيقة علماء الغرب الذين اتصلوا بالافريقيين سواء عن طريق التبشير أم الدراسة. ولكنهم اختلفوا في تسمية الآثار التي تربت عليه، فراحب به قلة منهم لأنها رأت فيه سبيلا لارتقاء القبائل الافريقية سلم الحضارة والمدنية ووسيلة لتحقيق نوع من الانسجام والوحدة العقائدية. أما غالبيتهم فكانت

(١) سورة الماعنات، الآية ١٣.

(٢) مششرق تشكولوفسكي وعضو المجمع العلمي العربي (ت ١٩٥٣).

تنظر الى الاسلام في افريقيا نظرة خوف وحذر. ولعل هذا السر في تهمز هؤلاء على الاسلام. ومن الملاحظ في المجتمع الافريقي ان الافريقين الذين اعتنقوا الاسلام لم يستطيعوا ان يعيشوا في حي واحد مع الاحياء. فأنشأوا أحياء - وقرى خاصة بهم - هذه الاحياء والقرى تستقطب الاحياء الذين يرغبون في اعتناق الاسلام والارتقاء الى حياة اجتماعية افضل من وقت لآخر.

وقد أسس المسلمون في تلك الاحياء - والقرى المساجد والزوايا والخانات لتحفيظ القرآن الكريم، وتعليم اللغة العربية والعلوم الشرعية لأبناء الافريقين الذين اعتنقوا الاسلام. وأقبل الافريقيون على دراسة القرآن الكريم والعلوم الشرعية والقوية اقبالا عظيما. وظلت الثقافة الاسلامية هي الاساس في توير المجتمع الافريقي. فحينما اشرق نور الاسلام لما معه التعليم اذ من الواجب على كل مسلم ان يتعلم في اقل تقدير ما يكفيه لأداء شعائر الله، كإمامة بعض الآيات والسور القرآنية والاحكام الشرعية.

ولا يخفى علينا ان الاسلام دائما يحث على التعليم ويجعله جزءا لا يتجزأ من الدين الخفيف.

وقد ذكر فرنسيس مور في كتابه: «رحلات في ربوع افريقيا» الصادر في باريس عام ١٩٣٩، ما يلي:

«في كل بلد افريقي توجد جماعة أغلبهم يتكلم اللغة العربية لأنهم يتعلمونها في مساجدهم ومدارسهم. ولأن القرآن الكريم وهو مصدر شريعتهم مكتوب بهذه اللغة».

وقال توماس ارنولد في كتابه الدعوة الى الاسلام: «ان الاسلام قد بلغ في انشاره وتأثيره في افريقيا حدا يفوق كل وصف، بل انه اصبح منهاجا للمعاملات والحياة اليومية بين ثلثي سكان القارة الافريقية» كما اشار الى التقرير الذي عرض على مجلس العموم البريطاني عام ١٩٠٢، والخاص بمستعمرة «سيراليون» وقد جاء في فقرة من فقراته مايلي:

«انه منذ سبعين عاما مضت استقرت جماعة من المسلمين في الشمال من السيراليون، فتحو مدارس تدرس فيها العلوم الشرعية واللغوية، كما تحسكوا بتعاليم الاسلام وتأثروا بالسلف الصالح. وقد أقاموا لأنفسهم مجتمعا استنبطوا أسسه ومبادئه من الكتاب والسنة، وجلبوا الى البلاد حضارة بلغت شأوا عظيما وتفتح المقبلون منهم على التعليم بكثير من الاحترام. ثم أصبحوا معلمين يجلبهم الناس بعد ان يعودوا مزودين بالعلم من مساجد فاس وتلمسان والقيروان وطرابلس والقاهرة ومكة والمدينة».

ومعلوم ان الارتحال في طلب العلم عامل من اهم العوامل التي توثق الروابط بين الشعوب، وتعد رمزا من رموز الاتصال المحكم بين العقيدة واللغة والثقافة والفكر. وقد أسهمت تلك البعثات والرحلات في المحافظة على استمرار الدعوة ونشاط الدعوة في المجتمع الافريقي. كما أسهمت الحملات الدراسية التي كان يعقدها العلماء في المساجد والبيوت والخانات في الحفاظ على التراث الاسلامي في افريقيا.

وأنكز معظم المصادر التاريخية أنه منذ القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي وحتى القرن
الاستعمار الأوروبي لأفريقيا في أواخر القرن التاسع عشر - كان الإسلام شريعة وسننًا والخط
العربية لغة الدواوين والمراسلات الرسمية لجميع الممالك الإسلامية في إفريقيا جنوب الصحراء
إلا غلبت العربية أن يكون تاريخ هذه الممالك حزينًا لا يتجزأ من التاريخ الإسلامي وتقرن في
جامعات الدول الإسلامية.

وقد استطاع الإسلام أن يثبت وجود الحضارة الأفريقية وأن يطورها. لأن الإسلام لم أبطل
يدخله إفريقيا نظام المعاهدات والصكوك والمكاتبات التجارية، ونظام الرسوم على المنتجات
المستوردة والمصدرة.

وكان للإسلام الأثر البالغ في تشجيع العمل الزراعي وتربية المواشي. وكذلك أوقف المدارس
القبيلة الأفريقية، بأشكالها المختلفة.

وكما قدم الإسلام للأفريقيين المبررات النفسية والاجتماعية للعمل في الدعوة والتجارة
والزراعة، فإنه خلق قوى من النشاط في الصناعة التقليدية، فأصبحت تقدمًا ملحوظًا في مختلف
العصور.

وكان انتشار الإسلام في المجتمع الأفريقي قد أذن بانقضاء عادة التعري الوثنية. وحث الناس
على ارتداء الملابس، فازدهرت نتيجة لذلك صناعة السيج وحياسة الملابس.
ويمكننا أن نقسم إفريقيا جنوب الصحراء إلى منطقتين جغرافيتين الأولى تمكن الإسلام منها
تمكنا متينًا. وقدر عدد المسلمين فيها اليوم بأكثر من ٨٠٪ من مجموع السكان. وهي المنطقة
التي تحصر بين جنوب الصحراء وشمال خط الاستواء. أما الثانية فيؤلف المسلمون فيها الثلث
تتراوح بين ٥٠٪ و ١٥٪، وهي المنطقة التي تقع جنوب خط الاستواء. باستثناء جزر القمر التي
يبلغ عدد المسلمين فيها ٩٩٪ وتزانيا ٦٨٪.

والواقع يثبت أن عدد المسلمين في المنطقتين في ازدياد مطرد بسبب نجاح الدعوة الإسلامية
وانتصاراتها على الإحيائية والنصرانية.

يقول فوندا سي صاحب كتاب «إفريقيا الفرنسية» في هذا الشأن ما يلي:

«أن الإسلام في نحو دائم لأنه يعمل على تطهير النفوس من الشوائب والبدع، ولهذا السبب
فإننا إذا ما قدرنا أحصاء المسلمين في المستعمرات الفرنسية لعام ١٩٢٠م، وفيه بلغت نسبة
المسلمين ٥٠٪ من مجموع السكان، مع أحصاء المسلمين لعام ١٩٤٥م، وفيه بلغت نسبة
المسلمين ٦٥٪ فإننا نرى لزوماً أن تسجل انتصار الإسلام الناشئ عن كسب هذا الدين للوثنيين
كسباً عظيماً. والفضل ما شهدت به الأعداء».

الفصل الحادي عشر

رجال الدعوة الإسلامية وأثرهم في إفريقيا

كان للإسلام الفضل الأول في نقل اللغة العربية والعلماء إلى إفريقيا والأفريقيين. ولم يكن لمجهود الدعوة والوعاظ ولا للحلقات العلم والتحصيل في المساجد والبيوت من هدف سوى شرح أسس وفروع الإسلام لتنظيم المجتمع على أسس جديدة. ولم تعرف الشعوب الإفريقية الصراعات المذهبية والفكرية التي قامت في المشرق أو في المغرب والاندلس. وقد أصبح المذهب المالكي هو المذهب الأكثر شمولية بسبب الاحتكاك المباشر بين سكان المغرب وسكان إفريقيا جنوب الصحراء. وقد مرت الدعوة الإسلامية إلى المجتمعات الإفريقية بثلاث مراحل:

أولاً: المرحلة التي قام بها الدعوة من التجارة والعلماء المتجولين وسط القبائل الإفريقية. وقد قامت هذه المرحلة بنشر الإسلام وتعاليمه بين الإفريقيين وامتدت من القرن الأول إلى الرابع الهجري.

ثانياً: المرحلة التي امتازت بتوثيق العلاقات بين المشرق والمغرب من جهة، وبين إفريقيا جنوب الصحراء والمشرق والمغرب من جهة أخرى، وفيها جاء الدعوة والمعلمون من كافة التخصصات إضافة إلى المهندسين المعماريين من مختلف الاقطار الإسلامية، وجانبوا مناطق إفريقيا مما نتج عنه قيام مدارس نظامية وبناء مدن ومساجد على طراز المعماري الإسلامي في المشرق والمغرب. وقد امتدت هذه المرحلة من القرن الرابع الهجري حتى القرن العاشر.

ثالثاً: المرحلة التي تبدأ من القرن العاشر الهجري وتمتد إلى القرن الثالث عشر الهجري. وقد كانت النتائج الطيبة للمرحلتين الأولى والثانية. وفي هذه المرحلة كانت الريادة في الدعوة إلى الإسلام للعلماء الأفارقة الذين كان انتاجهم مساهمة في نشر الحضارة الإسلامية ودفعاً جديداً للحركة العلمية في إفريقيا. كما أصبح كثير من العلماء الأفارقة اساتذة في الحرمين الشريفين والأزهر والقيروان وفاس وغيرها من مراكز العلم والمعرفة في العالم الإسلامي.

وفيما يلي سنذكر أهم العلماء الذين ساهموا بعلمهم في نشر الإسلام والحضارة الإسلامية في إفريقيا جنوب الصحراء:

١- محمد عبد الكريم المغيلي:

ينتسب إلى قبيلة مغيلة التي تقطن نواحي تلمسان. ولا نعلم تاريخ ولادته بالضبط. غير أن

وفاته كانت سنة ٩ - ١٠٣٠ هـ / ١٥٠٣ م. منطقة نوات.

انتقل المغيلي إلى فاس حيث أتم دراسته فيها. وكانت له مع علماء فاس مناقشات جادة وصلت إلى درجة الخلاف. ولم يظلم للمغيلي العيش في المغرب فهاجر إلى بلاد السودان. واستطاع بواسطته علمه وقوة شخصيته التأثير في الناس في بلاد السودان. وأصبح من أبرز العلماء فيها. وفي تلك الفترة اتصل به الأسبق الحاج محمد سلطان سغاني وقربه إليه. وألّف عشرات الكتب ومن أهم مؤلفاته معنى اللبيب في شرح مختصر خليل، وأكليل معنى اللبيب والتبليغ، وأجوبة المغيلي عن أسئلة الأسبق الحاج محمد. وقد اعتبر المغيلي أماناً يسر على الدراسة المنهجية. كما أضع الفكر الإسلامي للنقاش والحوار وأهتم بتدقيق طلابه ورسالاته إلى الاختتام إلى الكتاب والسنة (١).

وستطيع أن نقول: إن الدور الذي قام به المغيلي لا يدانيه أي دور قام به عالم مغربي في السودان العربي والأوسط. فقد ترك أثراً إسلامياً كبيراً وقام بتصحيح مفاهيم كثيرة كانت مغلوطة في أذهان العامة والسلطين.

٢ - محمد بن محمود (ت ٢٠٠٢ هـ / ١٥٩٣ م):

حفظ القرآن الكريم وتعلم علوم اللغة العربية والفقه والحديث والتفسير والتاريخ. على يد والده القاضي محمود في «تيكنو» ثم هاجر إلى مصر حيث حضر مجالس العلم والعلماء بها. وبعد فريضة الحج رجع إلى تيكنو لتدريس الفقه والحديث والمنطق والتاريخ. ويقول عنه تلميذه أحمد بابا: «لقد صار شيخ زمانه في العلوم والفنون لا نظير له، لازمته أكثر من عشر سنين، فقرأت عليه بلفظ مختصر الخليل وابن الحاجب قراءة بحث وتحقيق وتحرير. وختمت عليه الواجب قراءة تفهم، وحضرته كثيراً في المدونة، ورجز المغيلي في المنطق والخزرجية في العروض. وسعت بقرائه هو كثير من البخاري، وهو استاذي وشيخي ما انتفعت بأحد انتفاعي به وبكتبه وأجازني جميع ما يجوز له ومنه وكتب لي بخطه في ذلك». كان طويل الروح في التعليم لا يألف من صتدي ولا من بليد، وكان يقرأ من صلاة الصبح إلى الضحى، ثم يقوم لقضاء حوائجه إلى وقت الزوال، ثم يصلي الظهر بالناس ويدرس إلى العصر، وإذا صلى المغرب درس في المسجد إلى العشاء، ثم رجع لبيته، وكان مع ذلك محققاً داركاً ذكياً فطناً غواصاً في اللطائف حللاً للمشاكل الاجتماعية بالحكمة والموعظة الحسنة. وقد طارت شهرته في الافاق... فجزاء الله عنا أحسن الجزاء (٢).

٣ - أحمد بابا التيمبكتي:

ولد أحمد بابا في منطقة أروان من أعمال تيكنو سنة ٩٦٣ هـ / ١٥٥٥ م ونشأ في أسرة عريقة

(١) الشيخ عوض الله: العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي، ص ١٩١.
(٢) لمزيد من التفاصيل، راجع: أحمد بابا، نيل الانتهاج، ص ٤٣ وما بعدها.

في العلم تولى غالبية أفرادها مناصب القضاء. درس علوم اللغة العربية والدراسة الإسلامية على يده وأبى. بذل حياته للتدريس والتأليف. حيث ألف ما يزيد على الخمسين مؤلفاً. وأصبح له دور كبير في نشر الإسلام والعلم في غرب إفريقيا. حتى أشهر أمره وسبق له علماً. الإحصاء في العلوم والقانون كلها.

وفي عهد السلطان المغربي أحمد المنصور الذهبي. تعرضت تمبكتو للغزو المغربي. وألقي بعض المصنعة حين كسرت ساقه في الطريق إلى المغرب. أثر سقوطه من فوق ظهر دابة. وهناك سجن (١٥٩٤م) حيث اتهمه السلطان الذهبي بشغال نيران الفتنة ضد حكمه. وبعد إطلاق سراحه قام بالتدريس والوعظ والإرشاد. وكان الناس يقدون إليه من كل البقاع لما له من علم غزير وسعة طيبة. وأصبحت كتبه أكثر الكتب تداولاً بين الناس. وقد برزت شهرة معرفة أحمد بابا للعلوم الإسلامية في أهم كتاب له على الإطلاق «نيل الابتهاج بالدليل على الفساح» ثم «كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الدين» ويقول أحمد بابا في مقدمة نيل الابتهاج أن وجوده في صراكش وتوفر المراجع هنا اللذان أنجحا له فرصة التأليف. على أن الدارس لكتاب «نيل الابتهاج» سوف يحظى أيضاً بكثير من المعلومات الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية. كما أن الكتاب يعتبر أساساً سجلًا للإعلام الأندلسيين والجزائريين والتونسيين والمغاربة. وقد أصبح الكتابان المذكوران من أهم المراجع في موضوعهما في جميع أنحاء العالم الإسلامي ولا يزالان حتى اليوم. لأنهما في الواقع موسوعة في الحركة الدينية المغربية التي ضمت في صفوفها كثيراً من رجال الدعوة الإسلامية المخلصين.

ولما ولي العرش السلطان زيدان بعد المنصور الذهبي. أذن لأحمد بابا بالعودة مع أفراد أسرته إلى «تيمكتو» سنة ١٦٠٥م فرجع إلى وطنه وواصل حياته العلمية. فتمتلكه له عدد كبير من أبناء عالي وسفاهي ويرون. وكان من بين تلامذته العلامة عبدالرحمن السعدي المؤرخ الشهير بمؤلفه «تاريخ السودان». وقد توفي أحمد بابا عام ١٦٣٢هـ/١٦٢٢م.

٤ - عبدالرحمن بن عبدالله بن عمران بن عامر السعدي:

ولد في غرة جمادى الآخرة سنة ١٠٠٤هـ/١٥٩٢م في تمبكتو. وتلقى العلم فيها على شيخ علماء. الفقه المالكي أحمد بابا وغيره من العلماء. قام بالدعوة في مناطق عدة. وفي سنة ١٦٦٦م أصبح اماماً لمسجد سنكورة في «جنى» وفي سنة ١٦٤٦م. استدعاه محمد بن عثمان باشا. حاكم تمبكتو ليشغل منصب ناظر خارجيته. فظل في هذا المنصب حتى توفاه الله سنة ١٦٥٥م - ١٦٦٦هـ. وفي خلال توليته المنصب المذكور سافر كثيراً متجولاً في أنحاء مملكة سفاهي. وكان قد استقر رأيه على أن يكتب تاريخاً لبلاده. واستطاع الفراغ منه في ٥ من ذي الحجة سنة ١٠٦٣هـ. الموافق ٢٨ من أكتوبر ١٦٥٣م وسماه «تاريخ السودان» وقد تحدث السعدي في كتابه عن الممالك الإسلامية في السودان. وتحدث عن نشأة المدن الإسلامية ونبذة عن أخبارها. كما

تناول ذكر الدعاة والعلماء الذين سكنوا تلك المدن ونسبة عن حياتهم ونسبة عن السلاطين والأمراء وأئمة المساجد. فضلاً عن بيان التاريخ القديم للقبائل عالياً والسفاري والطوارق والفلاني كما تحدث السعدي عن أساتذه «الوطوري» فيقول: «لقد تعلمت منه الكثير وأجاز لي كتابة كتابه عليه بخط يده». وأهديت إليه بعض المصنفات التي ألفتها بمساعدته. ثم سرى السعدي في أقاليم برافين تؤكد وجود مجتمع إسلامي متنوع يشبه المجتمعات الإسلامية الأخرى في المغرب والمغرب (١).

٥ - الشيخ محمد صغيرون:

تلقه محمد صغيرون على خاله اسماعيل بن جابر الذي أجاز له بالتدريس ثم رحل إلى مصر حيث درس مختصراً خليل. وعند عودته إلى السودان، جلس في مجالس أحواله يدرس الفقه والثر فحاجه حفيظة ابنه. فأخبروا صدر «زمراري» سلطان الشافعية عليه حتى قاده بالقتل. وعلى اثر دعوة من سلطان «القونج» يادي سيد القوم الذي كان يجعله يؤمن بصلاحه تزج الشيخ محمد صغيرون سنة ١٦٦٤م إلى ديار المجلين، واستقر بالمحججة جنوبي شناري حيث أقطعته السلطان أرضاً وأنشأ فيها مسجداً درس فيه العلوم الإسلامية وتقاطر الطلاب على مسجده ودروسه. وتحت قيادة ابنه وخليفته الشيخ الزيني اتسعت المدرسة وصارت أهم مركز تعليمي في الجزء الشمالي من سلطنة القونج. حيث اشتهر الشيخ الزيني بالعلم والصلاح وجلس في حلقة أبيه من بعده وشدت إليه الرحال، وضم مجلس علمه ألف طالب، وتلاميذه صاروا شيوخ الإسلام. وتوفي الشيخ الزيني سنة ٨٦٠ هـ / ١٦٧٤م فخلفه في التدريس والدعوة ابنه محمد الأزرق. وظلت مجهودات أولاد جابر العلمية متواصلة في نطاق منطقة السودان الأوسط وبلا النوبة.

ومن الأسر السودانية التي انحبت عدداً من العلماء والدعاة، وارتبطت ببعض المراكز الدينية وقامت بدور فاعل لجهود أولاد جابر وحظيت بشهرة واسعة مدرسة الغيش في بربر، والمجاهدين في الدامر، والعركيين في أبي حراز شرق النيل الأزرق. والشيخ إدريس بن أرياف في «العليقون»، والشيخ خوجلي بن عبدالرحمن. واهتم هؤلاء العلماء بدراسة القرآن الكريم واللغة العربية والحديث والفقه والأصول والمنطق والتاريخ. وقد ازدهرت هذه العلوم في بلاد السودان الأوسط على يد محمد بن عيسى سوار الذهب تلميذ الشيخ التلمساني المغربي والشيخ محمد القناري المصري (٢).

وحقيقة الأمر إن كثيراً من العلماء والدعاة كانوا يتمشعون بنفوذ عظيم بين الناس نتيجة الاحترام الذي أسبقوه عليهم ونتيجة للخدمات القيمة والمساعدات التي ببذلونها. فكثيراً ما

(١) عبدالرحمن السعدي - تاريخ السودان ص ٤٦.

(٢) معهد البحوث والدراسات العربية - ندوة العلماء، الأقارعة ومساهماتهم في الحضارة العربية والإسلامية، ص ١٩٩.

وقف العلماء والدعاة في صف الضعفاء.. ضد الظلم والطغيان وقسوة الطبيعة.. كما أنهم يتقدم الصدقات وأبوا.. أينا.. السبل في مجتمع يفتقد لمعاليمة الدولة فرسوا نوايا وحدا واستقر بين الباعهم ومريدتهم مما جعل نوعا من التماسك والترابط بين المجموعات المختلفة في إطار الدولة واستقل العلماء.. هذه المكانة الأدبية في حل المنازعات بين السلاطين والأمراء.. رؤساء القبائل من جهة وتعميق الاسلام في النفوس والسلوك من جهة أخرى.

٦ - الشيخ أحمد بن سميح:

ولد ابن سميح في جزر القمر سنة ١٨٦٦م. درس العلوم الاسلامية على يد والده أولا. ثم على يد الشيخ عبدالحسن أحمد جمال الليل. وحين بلغ العشرين من عمره. توجه عام ١٨٨١م للدراسة في حضرموت. وبعد عودته عام ١٨٨٣م. عينه السلطان برغش فاطما ثانيا في زنجبار. وهو منصب تدرّس مكث فيه ثلاث سنوات. بعد ذلك قام برحلات عديدة في العالم الاسلامي. قابل خلالها الكثير من العلماء ورجال الدعوة الاسلامية. والحكم. وعندما عاد الى زنجبار في أواخر عام ١٨٨٨م. أعيد الى منصبه السابق كقاض زنجبار. وهو منصب ظل يشغله مع ترفيات مستمرة حتى وفاته عام ١٩٢٥. ألقى الشيخ ابن سميح العديد من المحاضرات على عدد كبير من الطلاب القادمين من مختلف المدن الساحلية. وذاع صيته في أنحاء العالم الاسلامي. كان ابن سميح غزير العلم والكتابة انجز مؤلفات عدة في الفقه والتاريخ وفي حركة الدعوة الاسلامية في شرق افريقيا واماكن أخرى ويعتبر اكبر داعية في المنطقة بعد الشيخ علي بن عبدالله بن نافع المزروعى (١٨٢٥ - ١٨٩٤م) قاضي بمسنة. وقد خلفه ابنه عمر كقاض زنجبار ومرشد للدعاة في شرق افريقيا.

٧ - الشيخ عبدالله بن محمد باكثير:

ولد باكثير سنة ١٨٦٠ في «لامو» من توابع زنجبار. بدأ يتلقى الدروس الدينية في وقت مبكر. وكان من بين اساتذته الشيخ أبويكر بن عبد الرحمن الحسني (١٨٢٨ - ١٩٢٢) والشيخ احمد بن سميح عالم زنجبار الكبير. ثم توجه الى مكة المكرمة والمدينة المنورة ليتلقى العلم على يد كبار علماء الحجاز. ثم سافر من مكة الى جاوة لنشر الدعوة الاسلامية وفي عام ١٩١٩م. سافر باكثير الى «كينب تاون» في جنوب افريقيا. وقد بنى مسلمو جنوب افريقيا مدرسة تكرما له واطلقوا عليها اسمه «مدرسة باكثير».

استقر باكثير بعد ذلك في زنجبار حيث بذل كل وقته للوعظ والارشاد والتدريس. وقد اصبح عالما محبوبا ومحط اعجاب العديد من المسلمين في شرقي افريقيا. وتشمل اعماله في رحلاته العديدة لخدمة الاسلام والمسلمين وفي تدريسه للعديد من الطلاب الذين أصبحوا فيما بعد علماء. اجلاء. في شرقي ووسط وجنوبي افريقيا. ومنهم على سبيل المثال الشيخ الامين المزروعى (١٨٩١ - ١٩٤٧م) الذي اهتم على نحو بأعمال ابن تيمية وواصل عمله التعليمي والوعظي

بحسين فائق. حيث أقام مدرسة خاصة به في محبة أطلق عليها اسم «مدرسة الغزالي الإسلامية»
وقد التحق بهذه المدرسة طلاب من مختلف مناطق شرقي أفريقيا.
التزم الشيخ الأمين بالإصلاح وتأثر بتعاليم السلف، كما تأثر بحركة الشيخ محمد بن
عبد الوهاب وحال الدين الأفغاني ومحمد عبده. وعهد إلى الجمع والتوفيق بين المبادئ الإصلاحية
التي دعا إليها هؤلاء الرجال. أصبح الشيخ الأمين قاضي محبة عام ١٩٣٢م. ثم رفع إلى منصب
قاضي قضاء عام ١٩٣٧م. وهو منصب ظل يشغله حتى وفاته عام ١٩٤٧م. وقد استمر في
التأليف والتدريس إلى جانب عمله القضائي. وقد برع في نشر الدعوة الإسلامية في شمال
إفريقيا، حيث أثرت تعاليمه الإصلاحية في العديدين. كما ساعد موقفه الصلب في دعم
الغالبية في الحد من نمو هذه الحركة الهدامة في شرقي أفريقيا، وأرشد المسلمين في كل مكان
إلى السعي لتحقيق حياة إسلامية حقة. ومازالت الكتب التي ألفها بثلاث لغات (العربية
والسواحلية والإنجليزية) واسعة التداول وتحظى بالتقدير الكبير. كما أن طلاب مدرسته
«الغزالي» قد شغلوا أعلى المناصب في المؤسسات الدينية في مختلف دول أفريقيا، بل يكاد لا
يوجد أي عالم آخر لعب مثل هذا الدور الفاعل في التطور الثقافي لقمة علماء شرقي أفريقيا في
تلك الفترة كما فعل الشيخ الأمين.

وإذا كانت الغالبية من العلماء والدعاة قد مارسوا نشاطهم في المدن الساحلية، فقد كان هناك
آخرون ممن توغلوا في الداخل الريفي لشرقي أفريقيا. ومنهم الشيخ شعيب سيماكولا الأوغندي.

٨ - الشيخ شعيب (١٨٧٥ - ١٩٧٥):

ولد الشيخ شعيب في بوسيرو الواقعة في الجنوب الغربي من أوغندا وتميز عن بقية علماء
شرقي أفريقيا الذين كانوا ينتمون لسلالات ذات تراث إسلامي بأنه ولد في عائلة مسيحية حديثة
العهد بالإسلام. بدأ دراسته في زنجبار، وبعد عودته إلى أوغندا رافق إحدى البعثات الموجهة
للدعوة الإسلامية في مدينة مبالى في شرق أوغندا حيث كان هناك عدد كبير من السكان
المسلمين والأحيائيين. ولازم بعد ذلك المعلم يوسف، حيث توجه الاثنان لتدريس الإسلام لصغار
الضباط الأوغنديين العاملين في خدمة الحكومة الاستعمارية في المقاطعة، إضافة إلى السكان
الحليين. وفي أثناء إقامته في مدينة مبالى تعرف إلى الشيخ عبد الصمد بن نجيب الذي منحه
«إجازة عالم» سنة ١٩١١م. وظل يتابع العلم في مختلف جهات شرقي أفريقيا، وكان فائق
الشهرة لمعرفته الواسعة ودراساته المتعمقة، وقد منحه معرفته بالنصرانية بداً علياً في أية
مواجهة مع المسيحيين الذين لم يكونوا على اطلاع واسع، بل يجهلون الإسلام.

أسس الشيخ شعيب أربع مدارس قرآنية وحاضر فيها على مئات المسلمين الأوغنديين،
وحوالي ٥٠٪ من العلماء والدعاة في أوغندا، قد درسوا عليه. لم يكن الشيخ شعيب كثير
الكتابة ولكنه دفع بالعديد من تلاميذه إلى التأليف حول المبادئ الأساسية للإسلام، وقد قام
مؤخراً أحد تلاميذه وهو الشيخ عبدالرازق ماتوقو بإحجاز أول ترجمة لمعاني القرآن الكريم إلى

اللغة الانجليزية حيث تم طبعه من قبل المؤسسة الإسلامية في «سروبي» والشيخ عبدالرزاق هو
القاضي الخافي لاوغندا. إن العمل الاسلامي الذي قام به الشيخ شعيب في أوغندا، لا يزال يعطي
شارة للاحتياط والعلماء الذين يشتغلون الآن لقصة الدعوة إلى الاسلام.

٩- الشيخ عبدالله صالح فارسي (١٩١٢ - ١٩٨٢).

ولد في زنجبار وتوفي في مسقط، ودخل فارسي المدرسة الابتدائية المركزية في زنجبار عام
١٩٢٤م. بعد أن أنهى حفظ القرآن الكريم، وكان من التلاميذ النابغين، ونسجته لتعليمه المزدوج،
استطاع الشيخ فارسي أن يتقن من المصادر الإسلامية والعربية التي اطله أن يحتل موقعا فريدا
مقارنة بالعلماء الآخرين في عصره.

وبعد أن أصبح أستاذا في التفسير والفقه واللغة العربية قضى معظم أوقاته في قراءة الأعمال
السلف والترجمة إلى السواحلية. ثم انتقل من التدريس إلى العمل كمفتش للتعليم، ثم تم ترفعه
إلى منصب رئيس الأكاديمية الإسلامية في زنجبار. وخلال عمله كموظف حكومي وأصل نشر
تعاليم الاسلام بين المسلمين وغيرهم في زنجبار، وقام بإلقاء محاضرات عامة في المدارس
العلمانية.

وفي سنة ١٩٦٠ عين قاضيا لزنجبار وهو منصب ظل يشغله حتى عام ١٩٦٧. ثم هاجر إلى
كينيا، بعد خدمة طويلة حافلة في زنجبار، حيث عين قاضي قضاء كينيا عام ١٩٦٨ وهو منصب
ظل يشغله حتى عام ١٩٨١م.

كان الشيخ الفارسي غزير الكتابة، أرح حياة الشخصيات الهامة في الدعوة الإسلامية في
شرقي إفريقيا، وألف اثنين وستين كتابا منها: «معبشة النبي محمد صلى الله عليه وسلم،
والحسن، والحسين، وسورة الكهف، والبدع في الاسلام، وعلماء الاسلام، وسلاطين زنجبار»، كذلك
نشر عملا بعنوان: «تاريخ الامام الشافعي وعلماء شرقي إفريقيا» ويعتبر هذا الكتاب أساسا
لكل من يهتم بتاريخ الدعوة الإسلامية في شرقي إفريقيا، كما واطب الشيخ الفارسي على
الفتوى بانتظام في صحيفة «موانغوزي» وهي جريدة باللغة السواحلية تصدر يوميا في زنجبار،
وقد استخدمها للإجابة عن أسئلة الجماهير ونشر مبادئه الإصلاحية وذاع صيته كذلك كمدرس
إذاعي في البرنامج الإسلامي الذي يبث من محطة إذاعة زنجبار.

لم يخل الفكر الإسلامي في شرقي إفريقيا من الشوائب، لذلك كانت هناك حاجة ملحة
لتطهيره، وقد أحسن العديد من علماء زنجبار بهذه الحاجة ولكنهم لم يملكون الثقة الكافية
للحوض في هذه المهمة، غير أن الشيخ الفارسي شكل استثناء، فقد امتلك شخصية إسلامية
اصولية، وأمن بضرورة اتباع الكتاب والسنة، وبدأ مهمته التطهيرية بالسفر في أنحاء شرقي
إفريقيا والوعظ المكثف ضد البدع، فقد كانت مهمته شاقة وغير مستحبة على النطاق العام.
تلقى التهديدات من مختلف الجهات، ولكنه استمر في الدعوة لإيمانه الراسخ بها.
وسبب خدماته الجليلة للدعوة ومآثره الكثيرة في مجال الأدب الإسلامي باللغة السواحلية

ونجاح مهمته في اصلاح العقيدة الاسلامية من الشوائب التي علفت بها. فقد تم تعدد مراكز
الملك فيصل عام ١٩٨٠م (١)

ان التحليل السابق لنشاط بعض الدعاة يوضح ان علماء افريقيا جنوب الصحراء قد تقدموا
خدمات عظيمة ومتميزة للاسلام والمحافظة الاسلامية، وان المجال هنا لا يتسع لذكر وتوضيح كل
المجاز ومساهمة مما قدمه كل عالم أو جماعة من الدعاة، بل إن الامثلة التي اختيرت لا تغطي كل
الانجازات الخاصة باصحابها.

الق

الحركات الإسلامية

(١) معهد البحوث والدراسات العربية - المرجع السابق - ص ٢٧٢

القسم الثاني
الحركات الإصلاحية في افريقيا

التمهيد

الوضع في العالم الإسلامي قبيل ظهور الحركات الإصلاحية في إفريقيا

لقد بلغ العالم الإسلامي في بداية القرن التاسع عشر الميلادي نهاية جزره في القوتين الروحية والمادية. لأنه تلقى عن القرون السابقة أنقلا من المتاعب لم تمتحن أمة قبله بمثلها. كان القرن التاسع عشر أسوأ من كل القرون التي تقدمته، لأنه القرن الذي اتسعت فيه «المسألة الشرقية» من بقايا الحروب الصليبية. تلك المسألة التي كانت تعنى في أول الأمر تخليص الممالك المسيحية من أيدي الدولة العثمانية. وفي مرحلة ثانية أصبحت تعنى تقسيم الدولة العثمانية والدول الإسلامية الأخرى التابعة للخلافة بين الدول الأوروبية الاستعمارية. وغض النظر عن كل طرف متفق عليه يقع في قبضة الطامعين فيه من المتنازعين على تركة الرجل المريض. أي الدولة العثمانية في مرحلتها الأخيرة. وهو اصطلاح أطلقه الأوروبيون. لقد بدأ الهجوم على العالم الإسلامي في كل أقطاره واحتلته به الجيوش والاساطيل في عقر داره. واهتز المسلمون لهذا الأمر. وبدأ رد الفعل بظهور حركات الإصلاح في البلاد الغربية منذ النصف الثاني للقرن الثامن عشر الميلادي. وجميعها قامت بتأثير عوامل ثلاثة.

الأول : إحساس بعض المسلمين بسوء الأوضاع الدينية والاجتماعية، والسياسية والاقتصادية والثقافية في العالم الإسلامي.

الثاني : تحدي الغرب للعالم الإسلامي واحتلاله لأجزاء منه.

الثالث : إحساس بعض المسلمين بتخلف الأمة الإسلامية وانعطاطها.

وأولى هذه الحركات، حركة الإصلاح والتجديد في الدولة العثمانية، التي بدأت في عهد السلطان مصطفى الثالث (١٧٥٧ / ١٧٧٤م).

وهذه الحركة عنيبت بالإصلاح العسكري فقط، وذلك لأنها قامت على أثر نكسات الدولة العثمانية أمام الجيوش الأوروبية المزودة بالأسلحة الحديثة كان الغرض منها العمل على إيقاف تلك النكسات. ولم تع هذه الحركة أهمية الإصلاح الشامل إلا في عهد السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ / ١٩٠٩).

ثم هناك الحركة السلفية التي قامت في نجد على يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الفترة ما بين ١١١٥ و ١٢٠٦هـ الموافق لعام ١٧٠٣ و ١٧٩١م.

وكان الواقع لها إحساس مؤسسا بانحطاط المسلمين وضعفهم وسقوط همتهم ونفسيهم

سبب ابتعادهم عن العقيدة الإسلامية الصحيحة. وهناك عدد كبير من الحركات الإسلامية

تناول أسد أمين بعضها بالدراسة في كتابه «رعاة الإصلاح في العصر الحديث».

وتتفق هذه الحركات في أنها نشأت نتيجة لتحدي الاوضاع الداخلية السيئة أو العدو الخارجي

الأوروبي.

وقد كانت حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب مصدر إلهام بنسبة مباشرة أو غير مباشرة

لعظم الحركات الإسلامية الأخرى في آسيا وأفريقيا.

وقد اختلف أسلوب المصلحين في المشرق الإسلامي عنه في أفريقيا جنوب الصحراء. فبعد

كان هؤلاء المصلحون في المشرق يحاولون مواجهة التحدي القادم من الغرب بالعمل على الملاحقة

بين المبادئ الإسلامية وبين الأفكار الوافدة من الغرب - ماعدا الحركة السلفية والنوسية - فإن

المصلحين في أفريقيا جنوب الصحراء يحاولون البحث عن الوسائل التي تعود بالاسلام الى ثقافته

وصفاته. ليس من أجل تعديله لسياير الأراء العلمانية الوافدة. وإنما لترسيخ مبادئه لمواجهة

الشرك والالحاد وعدم الالتزام بالمنهج الإسلامي لحركات الإصلاح في أفريقيا تعني العودة الى

تطبيق الشريعة الإسلامية كما كان في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين.

والحركات الإصلاحية في أفريقيا عديدة. وقد اكتتفها بعض القموض بيد أنها استطاعت أن

تبني دولا وتصحح الشوائب التي علفت بمبادئ الاسلام وتعاليمه. ووقفت في وجه الاستعمار

الأوروبي المدجج بالأسلحة والعناد بقوة الايمان بالله عز وجل. قال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا

إن تصروا الله بصركم ويثبت أقدامكم» والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم * ذلك بأنهم

كروهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم» (١).

وقال تعالى: «... ولنصرن الله من نصره ان الله لقوي عزيز» الذين ان مكناهم في الارض

أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمرنا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور» (٢).

وهناك قضايا إسلامية تدعونا الى دراسة هذه الحركات، منها:

١ - إبراز الدور الذي لعبه المصلحون في القارة الأفريقية والنهوض بالمجتمع الأفريقي

وحاجة المسلمين اليوم الى مثل هؤلاء الدعاة.

٢ - غموض أثر الاسلام في الشعوب الأفريقية، وفي كتابات الأوروبيين رغم التغييرات

التي طرأت عليها بعد اعتناقها للدين الإسلامي الحنيف.

٣ - إبراز دور الدعوة الإسلامية في الإصلاح والنهوض بالامة وبناء الدول الإسلامية.

٤ - محاولة دحض الدعوات القائلة إن الإسلام لا يواكب تطورات الحياة وإنه غير قادر على

بناء دول عصرية على أسس ومبادئ إسلامية.

٥ - توضيح الاخطار التي تنجم عن عدم تطبيق المسلمين لمنهج الله.

(١) سورة محمد: الآيات ٧، ٨، ٩.

(٢) سورة الحج: الآيات ٤٠، ٤١.

٦ - التأكيد على أمر العدة التي أمرنا الله بها لمواجهة الأعداء - وضرورة تلازم الإعداد الروحي والمادي.

وسيكون التركيز في البحث والدراسة على أبرز الحركات الإصلاحية

الفصل الأول

حركة الشيخ عثمان بن قودي

ولد الشيخ عثمان بن محمد بن صالح بن هارون بن محمد بن جب. الملقب بابن قودي (العلما بقرية مرت من أعمال امانة «جوير» ولاية مكنتو في نيجيريا حاليا. يوم الاحد ٢٩ من صفر سنة ١١٦٨هـ الموافق ليوم ١٧ من نوفمبر سنة ١٧٥٤م. وقد نشأ الشيخ عثمان بن قودي في سنة علمية توارثت العلم كابرا عن كابر منذ القرن الخامس عشر الميلادي وقد هاجرت قسبته «الفولانية» الى بلاد الهوسا من «فوت تورو» والتي تقع على نهر السنغال حوالي القرن الخامس عشر الميلادي بقيادة الشيخ موسى جكل الجد الأكبر للشيخ عثمان بن قودي.

وتقول بعض الروايات الشعبية المتواترة: «ان الصراع حول السلطة في مناطق فوت تورو وفوت جالو، هو الذي أجبر مجموعات كثيرة من قبائل الفولانيين على الهجرة الى الشرق بحثا عن المراعي وعن أوضاع سياسية أفضل، وتتفق هذه الروايات مع بعض الوثائق المحلية في بلاد الهوسا.

لقد بدأ الشيخ عثمان حياته العلمية كغيره من طلاب العلم في ذلك الوقت بحفظ القرآن الكريم، وقد تم له حفظ القرآن على يد والده الشيخ محمد قودي. ودرس العلوم الإسلامية على يد الشيخ عبدالرحمن حمدا، وقد تجول الشيخ عثمان بن قودي من بلد الى آخر في سبيل طلب العلم كعادة الطلاب في ذلك الزمان، اذ ان متهمهم كان يعتمد أساسا على شيخ متبحر في علم من العلوم لتدريسهم فنا أو كتابا معيناً، وبعد اجازتهم في ذلك العلم أو الكتاب يذهبون الى عالم متضلّع في فن من الفنون أو متمكن من كتاب في أحد الفروع لينهلوا من معينه. ولا تنفك عملية الاخذ هذه في سن معينة أو لدى علم معين فهي عملية مستمرة يستوعب فيها الطلاب عشرات أو مئات المؤلفات. ويستوعبون فيها فنونا شتى على مراحل متفاوتة أو متباعدة.

وقد يقطع الطالب دراسته في سن معينة، ويعود اليها في سن متأخرة. وعلى هذا النوال درس الشيخ عثمان بن قودي مختصر خليل على عمه عثمان بن الامين، ولم يشتهر هذا الشيخ بإتقانه لكتاب المختصر فقط، بل اشتهر ايضا بتقواه وصلاحه ودعوته للامر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقد اقتدى الشيخ عثمان بن قودي بهذا الشيخ ولازمه لمدة سنتين وتطبع بطباعه الحميدة، وبعد ذلك انتقل الشيخ عثمان بن قودي الى الشيخ جبريل بن عمر، وكان من أكبر علماء السودان في ذلك الزمان.

وذكر المصادر التاريخية أن الشيخ جبريل كان قد رحل إلى الحج وأكمل بكبار العلماء، في نحو سنة كاملة يقرأ عليه ويستمع إلى وعظه وأرشاده، وحسب اعتراف الشيخ عثمان بن قودي للمرة الثانية صاحبه بتلميذه إلى بلاد «أغاديس» وأراد أن يرافقه في رحلته هذه، ولكن الشيخ جبريل أمر تلميذه بالعودة إلى أهله، لأنه لم يستأذن والده في الذهاب معه إلى الحج. وقد يكون هذا هو السبب الذي حجب اشجان وعواطف الشيخ عثمان بن قودي لبشر قصيدته المشهورة التي يعتقد بأنها أول تأليف له مما ينبغي على المائة بيت. ويقول الشيخ في مطلع هذه القصيدة مايلي: (١١)

هل لي مبر نحو طيبة مسرعا لأزور قبر الهاتسي محمد
غدت منهم الذموع مزمدا شوقا إلى هذا النبي محمد
أحكي المصاب بشوقه عالي سرور دون زودة سيد

ولا شك أن الشيخ جبريل قد أثر في الشيخ عثمان بن قودي تأثيرا كبيرا وقد أقر بذلك الشيخ عثمان حيث يقول عن شيخه: «أنه أول من قام بهدم العادات والتقاليد الفعيسة في بلادنا السودانية، وكان كمال ذلك ببركة الله على أيدينا، ونحن بالنسبة إلى مقامه نسبة الضالعين من الضالعين...» ثم يقول هذا البيت:

إن قيل في بحسن الظن ما فيلا

فصوحة أنا من أسواج جبريلا

يمكننا أن نقسم حركة الشيخ عثمان بن قودي إلى ثلاث مراحل رئيسية:

المرحلة الأولى:

وهي الفترة التي بدأ فيها الشيخ ابن قودي يدعو الناس إلى دين الله وتصحيح عقائدهم وهدم البدع وإقامة السنة على طريق الوعظ التعليمي والأرشاد الديني. وتبدأ من عام ١٧٧٥ إلى عام ١٨٠٢م. وفي سبيل نشر الدعوة الإسلامية سافر الشيخ عثمان بن قودي إلى عدة أماكن داخل بلاد الهوسا ليتطلس بنفسه الحياة الاجتماعية والأخلاقية للناس ولكن يدرس إرساء قواعد الإسلام وكيفية اقناع الناس بحسن نواياه وأخلاصه، وكان من عادته ألا يزور أصحاب السلطان ولا يتعامل معهم ومع ذلك كان لا يتدخل في شؤونهم السياسية مركزا اهتمامه على تربية الناس وشرح قواعد الإسلام بأسلوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(١١) ظن بعض الباحثين أن الشيخ عثمان بن قودي قد حج وليس هذا صحيحا، ظن ذلك كل من الدكتور حسن إبراهيم حسن في كتابه: انتشار الإسلام في القارة الأفريقية ص ١١٩، وأحمد شلي في موسوعة التاريخ الإسلامي، ج ٦، ص ٢٢٥.

وكان يتخذ من بلدة «دعل» مقرا ينطلق منه الى اماكن كثيرة، ثم يعود قاصدا الى مقرا
للاستقرار في شردعوله. وكان يساعده في ذلك بعض من تلاميذه المخلصين الذين لا يرمون في
الحل والترحال ونظروا على يديه العلم ونهروا من معين نقواء. وفي هذا يقول تلميذه «أخو» عبدالله
بن فودي الذي لم يشاركه منذ أن كان بالغيا الى ان قارب الخمسين من عمره: «قمنا مع الشيخ
بعينه على سبيل الدين يسير لذلك شرقا وغربا يدعو الناس الى دين الله بوعظه وفضائله ويعلم
المعادات المخالفة للشرع، فيأني اليه بعض الناس من الأفاق ويتخلطون في جماعته، ونحن في بلدة
التي اشتهر به ونسب اليه وهو «مفل» - ومن الاماكن التي زارها الشيخ في خلال تجواله للدعوة
اقدم زمير الذي كان تحت سيطرة اماراة جوير في ذلك الزمان. واقام فيه مدة خمس سنوات
كاملة. يدعو الناس الى الاسلام. وكان الاهالي يأتون الى مجلس العلم مختلفين رجالا ونساء.
فأثار هذا المسلك حفيظة بعض العلما. كالشيخ المصطفى القوي الذي انكر على الشيخ عثمان
بن فودي وجماعته هذا المسلك. حيث اعتبره أمرا مخالفا للشرعة الاسلامية ووسيلة الى نشر
المفاسد الاخلاقية بين الناس. وانتشرت الشائعات بين بعض ذوي الاعراض الشريفة على ان
مجلس الشيخ عثمان بن فودي قد اصبح مأوى للفساد الاخلاقي.

وفي هذا الأمر ألف الشيخ المصطفى القوي بعض الابيات طائلا من الشيخ ان يمنع الناس من
زيارة مجلس وعظه.

وتقول بعض أبيات هذه القصيدة (وهي من بحر البسيط):

عليك منا تحيات مباركة

تسمن مسكا وسكا من يلاقونا

أيا ابن فودي قم تنذر أولي الجهل

لعلهم يفتقروا الدين والدنيا

فامنع زيارة نسوان لعظك إذ

خلط الرجال بنسوان كفى شيا

لا تفعلن ما يؤدي للمصائب إذ

لم بأمر الله عيبا كان يؤذينا

ولما وصلت هذه الابيات، أشار الشيخ عثمان بن فودي الى أخيه عبدالله أن يرد على هذه
الانهايات التي تشتت الى الدليل الشرعي. وفي هذا يقول الشيخ عبدالله بن فودي به النفس
الوزن والقافية):

يا أيها ذا الذي قد جاء يرشدنا

سعنا لما قلت فاسمع انت ما قلنا

نصحت جهدا لكن ليت تعلمنا

وقلنت سبحان هذا كان بهتان

إن الشايطان إذا جاءوا لمجلسنا

هم يشنون سوء القول طغياننا

لنا نخالط بالنسوان كيف وذا

كننا نعلم لكن قلنا ما لنا

إن كان ذلك ولكن لا أسلم

أن نتركن بالمجهل عدلا كان انسانا

إذا ارتكاب أخف الضر قد حنا

يكفر المجهل أن ذا كان عيانا

هذي البلاد وجدنا قومها غرقوا

في المجهل تمنعهم أن يفقهوا الدنيا

قد قبل تحدث للأقوام أفضية

بقدر ما أحدثوا خذ ذلك ميزانا

الحمد لله ذي الإنعام هادينا

ثم الصلاة على المختار هادينا

وقد أثارت هذه المسألة قضايا فقهية متعددة اضطر الشيخ عثمان بن فودي أن يكتب فيها بعض الكتب، ففي مقدمة كتابه: «تسبب الاخوان على حصار اتحاد مجلس لأجل تعليم النسوان».. يذكر أن سبب تأليف ذلك الكتاب هو ما يلقه من أن بعض الناس كان يعترض على حضور النساء لمجلس وعظ الشيخ عثمان بن فودي. وقد نقد الشيخ هذه الآراء، ودافع عن المرأة وحقوقها في الإسلام. وقد قام بتعليم زوجاته وبناته تعليمًا شاملاً، ومن بنات الشيخ عثمان بن فودي اللاتي اشتهرن في ميادين الدعوة والتربية والسياسة خديجة وأسماء ومريم. وكانت أشهرهن أسماء التي شاركت في التربية والتعليم والأنشطة الاجتماعية والسياسية وكانت كلمتها مهابة خاصة بعد وفاة والدها وأخيها محمد بيلو، وكانت مصدراً مؤثراً لتاريخ جماعة والدها الشيخ عثمان بن فودي، ولها عدة مؤلفات باللغة العربية والفلاتية والهوساوية. وكان العلماء والأمراء يستفتونها في كثير من المعضلات الفقهية والسياسية والاجتماعية التي تواجههم. وكان الشيخ عثمان بن فودي في بداية دعوته يحدث الناس في حصة أمور رئيسية، أولها ما فرضته الشريعة من الأصول والفروع الظاهرة والباطنة والثاني ما يتعلق باتباع السنة وترك ما دونها من البدع والمنكرات. والثالث في رد الأوهام والآراء المخاطنة في أذهان الطلبة مما تلقوه من علم الكلام، وتكفيرهم عامة الناس بلا مبرر شرعي، وخاصة أنه شاع في ذلك الزمان أن بعض العلماء الأفاقة كانوا يحرمون أكل ذبائح العامة أو التزواج معهم لجهلهم بحقيقة التوحيد. عالج الشيخ عثمان بن فودي هذه الأفكار المخاطنة وأكد إيمان العامة، وبين أن خوض الطلاب

في هذه المناقشات الكلامية يصرّفهم عن الواجب الشرعي وعن الدعوة إلى الكتاب والسنة. أما
الرابع فيستور حول أعضاء البعثة الشيطانية التي أحدثتها الناس في دين الإسلام وزد العائلات
المخالفة للشرع. ويختص الأمر الخاص بتعليم العلوم الشرعية وتنسيق مشكلاتها وتزجيها من
فهم العوام.

وكان الشيخ يفسر العلوم بلغة الحاضرين لأنه كان يتحدث بجانب اللغة العربية اللغات
الفارسية والهندوساوية والتمناجك (أحدى لهجات الفوارق) وكان الكثير من دورس في أصول الدين
والفقه والتوحيد يترجم إلى اللغتين الهندوساوية والفارسية، ويتغنى الناس في جلساتهم وأوقات
مراقبتهم بقصائده الرعوية التي كانوا يحفظونها عن ظهر قلب، وكان لا يترك صغيرة أو كبيرة في
فروع من الفروع إلا شرحها شرحا وافيا.

لقد استخدم الشيخ عثمان بن فودي أسلوب الحكمة والموعظة الحسنة في تربية العامة
وتوجيههم الوجهة الإسلامية الصحيحة وقد ساعده في ذلك فهمه العميق لنفسية مجتمعهم في
ذلك الزمان ومعرفته الدقيقة للأوضاع الاجتماعية والسياسية في البلاد. واستطاع أن ينعج به
على مواطني الداء. ويقرر للناس الدواء الناجع من غير تغليب أو تعسف.

وعندما تكاثرت أتباعه وهاجر إليه الناس من أقصى البلاد مستمعين لوعظهم ومقتدين بسلوك
حسنة علماء زمانه وأظهروا له العداوة والبغضاء ووشوا به لدى الحكام لتعطيل مسار دعوته.
وبالرغم من ذلك لم يكتفرت الشيخ بكيدهم ومضى يحاربهم باللسان والقلم مدحضا أشرارهم
ومصلحا الأتباع بصدق وإخلاص أدخل الناس جنتهم.

لقد قسم الشيخ عثمان بن فودي في كتابه «نور الآليات» سكان بلاد الهندوسا إلى ثلاثة
أقسام رئيسية:

القسم الأول :

من يعمل أعمال الإسلام ولا يظهر منه شيء من أعمال الكفر ولا يسمع منه شيء مما يناقض
الإسلام. وأكد صحة عقيدة هذا النوع من الناس.

القسم الثاني:

«خلط» يعمل أعمال الإسلام ويظهر أعمال الكفر، ويسمع من قوله ما يناقض الإسلام.
فهؤلاء كالفروغ على حد قوله.

القسم الثالث :

هم الذين لم يشموا رائحة الإسلام فهؤلاء كفار بالأصالة ولا تجزى عليهم أحكام الإسلام.
ومن الأمثلة التي ساقها للمخلطين، أن بعضهم بالرغم من ادعائهم للإسلام يعظمون بعض
الأشجار والأحجار بالذبح والصدقة أو بصية العجيين عندها، ومنهم من يزعم أنه مسلم وفي

الوقت نفسه يدعي معرفة الغيب باتخاذ الخط والرحل مئة المتطلع الى عالم الغيب ولا يعلم
معرفة أحوال النجوم وأخبار الجن وما شابه ذلك
لقد اهتم الشيخ بالوعظ والإرشاد الديني اهتماما كبيرا وأوضح للناس كيفية تجنب بعض

البدع التي تخالف روح الاسلام، ولم تقتصر دعوة الشيخ على الاشياء العامة فقط بل ذهب الى
الاشياء الدقيقة كالعلاقات بين الزوجة وزوجها وتوكيل الجهال في التجارة او المقايضة، وهذه
اشارة الى انه كان يؤكد بين القينة والاخرى على ضرورة تعليم كل الناس. ويبدو أن الشيخ
عثمان بن فودي كان على علم ببعض الاغرامم الاجتماعية المنتشرة في اوروبا في ذلك الوقت.
لذلك دعا الى عدم تشبه المسلمين بالنصارى، واعتبر الشيخ عثمان تقلد المهلة المناصب الشرعية
عن طريق التوارث وتقديمهم على العلماء بدعة محرمة اجماعا، لأن ذلك يعكس المعايير
الاسلامية من تركية الأصل والأكلأ.

كما لا شك فيه ان دعوة الشيخ عثمان بن فودي الإصلاحية قد وجدت تجاوبا منقطع النظير
خاصة في أوساط العامة، وقد يكمن السر في الاسلوب المنطقي الذي اتبعه لتبليغ رسالة الاسلام
الى كل الناس دون تمييز بين العامة والخاصة وبين الفقير والغني. دعوته كانت مفتوحة دخلها
الناس أفواجا، واستطاع بعد فترة وجيزة من قيام دعوته تكوين جماعة تسمى «الجماعة»
وكان قوامها تلاميذ الشيخ نفسه الذين تلقوا العلم على يده والذين صقلهم فكريا وهبأهم ذهنيا
وعلميا للقيام بمسؤولياتهم في الدعوة الى الاسلام وتربية النش.

وقسم من هؤلاء الاتباع الذين كانوا ملازمين له انحصر دوره في شرح دروس الشيخ وشرح
كتبه ونشرها في أطراف البلاد وتكوين تعاليم الاسلام في أذهان الناس على انه دين شامل
متكامل يهتم بجميع الجوانب الروحية والمادية والسياسية والاجتماعية والتربوية.

والقسم الثاني كان منتشرا في اجزاء بلاد السودان الأوسط والغربي المختلفة. وكانت علاقتهم
بالشيخ تقوم على اسلوب التلقي المباشر أو بواسطة طلابهم الذين يرسلونهم لتلقي العلوم لدى
هذا الشيخ أو عن طريق مؤلفاته الكثيرة التي يدرسونها وينسخونها ويوزعونها على تلاميذهم
للاستفادة منها.

لم يمض وقت طويل حتى تحولت الحركة من حركة اجتماعية اصلاحية الى حركة جهادية
تستهدف اقامة الخلافة الاسلامية في بلاد السودان.

ولما قويت شوكة جماعة الشيخ عثمان بدأ حكام امارة جويبر التودد اليه بغرض اسكانه،
ولكن في كل مرة كان يلتقي بهم كان يدعوهم الى الاسلام وترك العادات الرذيلة واقامة العدل.
وفي شهر ذي الحجة سنة ١٢٥٣هـ / ١٧٨٨م استدعى سلطان جويبر «باوا» علما «بلاد» وكان
من بينهم الشيخ عثمان بن فودي للاجتماع به في مناسبة عيد الاضحى، ولما اجتمعوا به حاول
السلطان ارضاء الشيخ عثمان باعطائه ٥٠٠ مثقال من الذهب كمكرمة له، لكن الشيخ عثمان
رفض تلك الهدية وطالب السلطان كبذل لها بخمسة اشياء وهي:

(١) ان يسمح له بالحرية في التجول في البلاد للدعوة في سبيل الله.

١٤. ألا يعترض سبيل أي شخص يريد الاستجابة للدعوة.

١٥. أن يوفر كل عالم بلبس العمامة.

١٦. أن يطلق سراح المسجونين السياسيين.

١٧. ألا تعرض حشرات باعطة على الرعية.

فقبل السلطان هذه المطالب مرعشا وكان هذا الموقف نقطة انطلاقا لدعوة الشيخ عثمان بن

فودي واعتبر أول انتصار سياسي على حكام بلاد الهوسا.

وكانت هذه أيضا بداية كبيرة اجتمع بها شعرا. ^{الجهاد كالتشيخ عبدالله ابن فودي الذي يقول} هم الصرعان لم هم شمسول

عبد الله أنصار الرسول

في إحدى قصائده.

هم قطعوا رؤوس الكنفر قطعاً

سهام مرعشات نافذات

أمامه رياح النصر شهراً

بهم نزلنا في أمان

جنا فيه عارنا شربنا

فكرنا لله منحهم علينا

على نعم الدنيا والدين طيرا

ومن يكفر فإن الله عنه

جميع الدين إيمان وسلم

وأحسن له فيها الوصول

ومنذ ذلك التاريخ اتضح جليا أن أهداف الجماعة ليست مقصورة على نصح الحكام وإصلاح السليبات الاحتشاعية فقط. بل أيضا إقامة دولة إسلامية على انقاض دولة الكفر عن طريق الجهاد. واكتشف حكام بلاد الهوسا سو. تقديرهم للأمور.

بعد وفاة بابا سلطان جوبير في سنة ١٧٩٤م تسلم زمام الأمور «نافاتا» الذي لم يخف عداوته للجماعة والذي عزم على نهاية حاسمة للدعوة الإسلامية في بلاد الهوسا. فأصدر هذا السلطان مرسوما يقضي بثلاثة أمور:

١- عدم السماح لأي شخص باعتناق الإسلام إلا من ورثه عن آبيه وأجداده.

٢- ألا يسمح لأحد بأي حال من الأحوال بلبس العمامة ولا تضرب امرأة بخمارها على جبينها.

٣- يمنع العلماء من الدعوة إلى الإسلام ما عدا الشيخ عثمان بن فودي.

وأشدت العداوة بين الشيخ عثمان والسلطان نافاتا إلى حد تفكير هذا السلطان في التآمر على الشيخ وقتله. ولكن شاءت إرادة الله أن تغفل هذه الخطة بموت السلطان المفاجئ بعد فترة

وجيزة من إصدار هذا المرسوم، وخلفه ابنه « بونغا » ١٨٠٨ - ١٨٥٢م الذي واصل العمل، للدعوة الإسلامية وإلى جماعة المسلمين، وعلم على أمثالهم وأبراسهم وقتل عدداً كبيراً من الفقهاء والفرا، وأمر جنوده بحرق المصاحف والكتب والألواح.
ولما رأى الشيخ عثمان بن فودي أن حرمة الإسلام والمسلمين قد انتهكت أصغر وثيقة أهل حكام حوبير، كما أوضح لزوم الهجرة من بلاد الكفار ومضروبة قتل الطغاة والأمر بالعرفان والنهي عن المنكر، واستجاب الناس لهذا الشيخ عثمان وهوا لنصرة الإسلام (١٦).

المرحلة الثانية : هي مرحلة الجهاد وإنشاء الدولة الإسلامية.

لما اشتدت وطأة حكام إمارة حوبير على الجماعة الإسلامية، وانفقت هذه الجماعة على تنصيب الشيخ عثمان بن فودي كأمير للمؤمنين، ويعتبر ذلك التنصيب تعبيرا كبيرا في التركيبة الاجتماعية والنفسية والسياسية للجماعة، وكان ذلك إعلانا لقيام أول دولة إسلامية في بلاد الهوسا عام ١٨٠٤، أي في إقليم « سكتو ». لقد طرح الشيخ عثمان آراء حول النظم السائدة في بلاد الهوسا في كتابه « مسائل مهمة يحتاج إلى معرفتها أهل السودان » في أربع عشرة مسألة تتعلق بوجود البيعة للإمام، ذلك بأنه لا يجوز للمسلمين أن يتركوا عملا من غير إمام، ومن ضمن المسائل التي ناقشها الكتاب حكم الهجرة من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام، ومن الأمور التي ناقشها الشيخ في كتابه مسألة معاملة الحكام الطغاة، وحكم التردد إلى أبناء الدنيا من الظلمة، ويقول الشيخ عثمان فيما يتعلق بالتردد على أبناء الدنيا من الظلمة « إن العالم ينبغي أن يكون الناس على يابه لا أن يكون على أبوابهم ولا حجة له في إرادته بذلك دفع شي. يحشاه أو يرجو أن يكون ذلك شيئا لقضاء حوائج المسلمين من جلب النفع ودفع الضرر عنهم ».

وتمتص لنا مما تقدم أن الشيخ عثمان بن فودي كان يهتئ جماعة للجهاد علما وصف الحكام بالطغاة، وكان طبيعيا أن تكون أول مرحلة للجهاد الابتعاد عن التعامل مع الحكام الظلمة وأمثالهم من أبناء الدنيا، لأن معاشره العلماء لهذا النوع من الحكام وأهل السطوة سقطن من قدر العلماء. وتخط من مكانتهم أمام أعين الناس، وكذلك فإن زيارتهم وتشفعهم للناس مع الحكام سيجعلهم أداة في أيدي الحكام يستخدمونها كيفما شاؤوا لتبرير طغيانهم وتمكين قبضتهم على المستضعفين من الرجال والنساء والولدان.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه قبل إعلان الجهاد عام ١٨٠٤، أرسل الشيخ عثمان رسالة إلى الناس بعنوان « وثيقة من ابن فودي أمير المؤمنين إلى جميع أهل السودان »، داعيا فيها جميع

(١٦) راجع: محمود حسن أحمد : الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا، ص ١٨٨.

ومحمد بيلو : اتفاق المسور في تاريخ بلاد التكرور، ص ٩٦ وما بعدها.

وأبو بكر علي : الثقافة العربية في نيجيريا في القرن التاسع عشر، ص ١٤٠ وما بعدها.

الناس للدخول في طاعته ونيل ما هم فيه من الكفر والبدع والظلم والفساد.
وما ساء في الوثيقة.

«فاغلبوا يا إخواني إن الأمر بالمعروف وأحب أخصائنا، وإن النهي عن المنكر وأحب إخصائنا،
وإن الهجرة من بلاد الكفار وأحب أخصائنا، وإن موالاته المؤمنين وأحب أخصائنا، وإن تأسير
المؤمنين وأحب أخصائنا، وإن طاعته وجميع نوابه وأحب أخصائنا، وإن الجهاد وأحب أخصائنا، وإن
تأسير الأعداء في البلدان وأحب أخصائنا، وإن تأسير القضاة وأحب أخصائنا، وإن تنفيذهم أحكام
الشرع وأحب أخصائنا، وإن حكم البلد حكم سلفائنا أخصائنا، إن كان مسلماً كان البلد بلد إسلام،
وإن كان كافراً كان البلد بلد كفر وحيث الهجرة منه» (١).

ويبدو واضحاً مما جاء في الوثيقة الاتجاه الإسلامي لحركة الشيخ عثمان بن قودي، وأنها
كانت تنظر الفرصة السانحة للاستيلاء بالانظمة الفاسدة في بلاد الهوسا وغيرها من البلدان
المجاورة.

لقد اتضح للشيخ عثمان بن قودي أن إقامة الدولة الإسلامية تقع أساساً على عاتق العلماء
المجاهدين الذين تشربوا بروح الإسلام والذين عاهدوا الله أن يتحدوا على قوى الكفر والظلم
التي تأمرت على الإسلام وعلى أطفاء جذوة الجهاد. وبدأ الشيخ عثمان بعد هجرته من منطقة
«غلي إلى غلي» عام ١٨٠٢م في مراسلة أمراء الهوسا طالباً منهم الدخول تحت طاعة النظام
الشرعي الجديد، ولكن هؤلاء الأمراء رفضوا - إلا واحداً منهم وهو سلطان زاريا جاتو - رفضاً
باتاً دعوة الشيخ، واعتبروا حركته متمردة على الانظمة السائدة في البلاد منذ قرون.
ورفضوا أن يقبلوا المنهج الإسلامي الذي يدعو إلى معاداة الدارين، ليس هذا فحسب، بل لقد هبوا
لنصرة بعضهم بعضاً محاربين لمناصرة الشيخ عثمان أينما حلوا مؤيدين رعيتهم عليهم بغرض
القضاء على الفتنة قبل أن تنتشر في البلاد، حسب دعوهم، وأبت عليهم كبرياتهم وأخذتهم
العزة بالآثم والعدوان، فانتصر الشيخ على عدد كبير منهم وبالتالي اعتنق رعاياهم الإسلام (٢).
وفي الفترة الواقعة ما بين سنة ١٨٠٤ و ١٨٠٩م اتخذ الشيخ عثمان بن قودي «سكتو»
عاصمة لدولته الجديدة، وطلب من الأمراء المسلمين أن يساعده على جهاد الكفار، والا يقتروا
بكلام أعداء الإسلام، حتى لا يعمهم الله بالهلاك بسبب ذلك (٣).

المرحلة الثالثة :

هي مرحلة توطيد دعائم الدولة الإسلامية الجديدة، وتبدأ من عام ١٨١٠ إلى ١٨١٧م.
تميزت المرحلة الثالثة من حركة الشيخ عثمان بن قودي، بعمل إداري مكثف لإرساء قواعد

(١) أحمد محمد كاي : الجهاد الإسلامي في غرب إفريقيا، ص ٨٤.

(٢) الدكتور عبدالله عبدالرازق : الحركات الإصلاحية في غرب إفريقيا ص ١٠.

(٣) توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام، ص ٢٧٣.

الدولة الإسلامية الجديدة، فقد واجه الشيخ مشاكل معقدة في المداين والاحتجاجات والسياسة
والإدارة ومن بين تلك المشكلات كيفية تسير دفة الأمور اليومية وتنسيق الأعمال بين الأجهزة
التنفيذية مختلفة في أمير المؤمنين والوزارة وبين الإمارات المختلفة، خاصة الإمارات التي لم تسبق
لها أي خبرة إدارية في الماضي... والعلاقة بين «سكنو» وبعض المجموعات التي بايعت الشيخ
عثمان على السمع والطاعة مع الاحتفاظ بكيونتها الخاصة كمجموعات الطوارق التي أقرها
الشيخ على الحكم الذاتي تحت ظل الخلافة السنية.
لقد حاول المجاهدون أبعثا معالجة بعض القضايا المتجددة التي تتعلق بالمظاهر الاجتماعية
ونظم الحكم في ضوء اجتهاد جديد.

وقد ساهمت كتابات الشيخ في مجال الإدارة والسياسة في إثراء الفقه السياسي الإسلامي،
ومن القضايا التي أدلى فيها الشيخ بدلوه قضية الانقلاب السياسية المناسبة لحكام الدولة
الإسلامية كأمير المؤمنين والسلطان والوالي. وكان رأي الشيخ عثمان أنه يجوز استئصال أي من
الانقلاب، لأن الانقلاب في نفسها لا تعني شيئا، والمهم هو تطبيق أحكام الإسلام في الدولة. لقد
كان الشيخ عثمان متسامحا إلى حد ما في بعض القضايا المعقدة التي لم يقطع فيها الشرع برأي
واضح، وكان هدفه من ذلك استقرار الأمور حتى سهل للدولة الإسلامية الجديدة مواجهة
التحديات الكبرى، ولذلك لقب بالمجدد من قبل جماعته.

وقد تبلورت آراء الشيخ عثمان الاجتهادية في كثير من المسائل السياسية والقضايا التي
تولدت من المشاكل اليومية التي واجهتها الإدارة في تلك الأزمنة. وأجمل الشيخ آراءه
الاجتهادية في ميدان الفقه في ثلاثة كتب من بين مؤلفاته التي تزيد على المائة، وهي: (أرشاد
الامة، تسير الملّة، وهداية الطلاب وتوقيف المسلمين على حكم مذهب المجتهدين).

يبدأ الشيخ مناقشته لأرائه الفقهية الاجتماعية في «أرشاد الأمة» بتقرير حقيقة واحدة هي
أن دين الله يسر وليس يعسر وأن هدفه الأساسي هو اسداء النصع للامة وليس فتح باب
التساهل في المعاصي والبدع والعبادات الرذيلة، وهدفه من ذلك حسب قوله أن يقتدي الناس
بالرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته والسلف الصالح في اختيار أيسر السبل للوصول إلى
الغاية السامية في الأمور التي لم يقطع فيها بنص شرعي.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه على الرغم من آراء الشيخ الاجتهادية فإنه ظل طوال فترة حياته
مالكيا يحكم ويفتي الناس بالمذهب المالكي.

ومن القضايا الخطيرة التي حاول الشيخ عثمان معالجتها مسألة المهديّة التي كانت تشكل
جزءا من السياسة المحلية والخارجية لخلافة سكنو فقد تزامن جهاد الشيخ عثمان بن فودي مع
بداية القرن الثالث عشر الهجري، وهي الفترة التي توقع فيها الناس، خاصة في غربي أفريقيا،
ظهور المهدي المنتظر، لذلك اعتقد بعض الناس أن الشيخ عثمان هو نفسه المهدي المنتظر، خاصة
بعد أن بانت عليه علامات الصلاح والوقار والحمة الإسلامية. ولكن الشيخ رفض هذا الادعاء
رفضاً باتاً، مؤكداً أن علامات المهدي تنطبق عليه. وكتب عدة رسائل في أمر المهديّة نافيا أن

المهدي لا يظهر في أي جزء من بلاد السودان.
ويظهر الأثر الصوفي في فكر الشيخ عثمان واحتجاً في نقاشه حول المهدية واللفظيات
والولاية عندنا يقول: إن الرسول صلى الله عليه وسلم قد كاشفه بقوله: «قف هنا، فوكلت»
فبشرني بقوله: «أنا دليلك على طريق الدين فلا تضلوا». فكان ذلك التبشير خيراً لي من الدنيا
وما فيها.

ثم يتحدث أيضاً عن مقامه في مراتب الصوفية المتدرجة أنه وصل إلى مقام أرباب الأحوال
الذي هو دون مقام أرباب المقامات الذي يلي مقام الكمل. وينفي الشيخ عثمان وصوله إلى مقام
الأولياء الكمل الذين تمكنوا «في حضرة القدس».

وذكر الشيخ عثمان في كتابه «نجم الاخوان» أنه ليس من الممكن حمل كل الناس على سلوك
معين، لأن الناس تختلف اختلافاً كبيراً فيما يتعلق بقدراتها واستيعابها لمضمون حركة الإصلاح
التي قام بها، وأكد أن كفة إيجابيات حركته ترجح كفة سلبياتها، وجاء ذلك وسط بعض
الانتقادات لمسار دعوته من بعض الناس.

وفي جملة دفاعه عن مكشبات الحركة يذكر الشيخ عثمان التالي:

«فاعلموا يا اخواني أن الله عز وجل قد من علينا في هذا الزمان ببيان ما يعتقد في دين
الله، وبيان ما يعمل في دين الله، وبيان ما يترك في دين الله وبيان ما يباح في دين الله، وإزالة
الشبه عن دين الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتخويف الناس بما يحملهم على ترك
معاصي الله، وتبشير الناس بما يحملهم على عبادة الله، ثم من علينا بالهجرة وتأمير أمير
المؤمنين واتخاذ آلات الجهاد التي هي الخيل والنبل والاقواس والرمح والاسياف والأتروس
والدروع والناطق والمفاخر والألوية... ثم من علينا بالجهاد بها وتأمير الوزراء وتأمير أمراء
الجيوش وتأمير أمراء البلدان وتأمير الكتاب وتأمير الرسل والملوك واتخاذ الخدام في الحضرة،
وتأمير القضاة وتأمير أمراء الحدود وتأمير أمراء الحج... فهذه ثلاث وعشرون خصلة من شعائر
الاسلام كعدد سني رسالته صلى الله عليه وسلم، ونحمد الله تعالى الذي من علينا باظهار هذه
الشعائر في آخر الزمان».

وما لا شك فيه أن حركة الشيخ عثمان تعتبر من إحدى الحركات الاسلامية القوية في العالم
الاسلامي التي ساهمت في خلق دولة اسلامية وفي بناء مجتمع اسلامي على أسس سليمة، لقد
تركزت هذه الحركة بصناتها الفكرية والسياسية على مجتمعات غربي افريقيا، وما زالت آثار هذه
البصمات باقية وعالقة بالاذهان ولا تزال معالمها الشامخة تقف شاهداً على عظمة هذه الدولة
التي استمرت من عام ١٨٠٤م حتى دخول الاستعمار الأوروبي للبلاد في مطلع القرن العشرين
١٩٠٤م، ونتج عن ذلك تقسيم الدولة الاسلامية الى مناطق نفوذ للدول الاستعمارية وخاصة
فرنسا وبريطانيا.

لقد تركت هذه الحركة تراثاً اسلامياً ثرياً في كل الميادين السياسية والفكرية والادبية
واللغوية والشرعية، ولا تزال المكتبات العامة والخاصة في غرب افريقيا تزخر بتفاسد المخطوطات

التي ألقها علماء غربيون إفريقيون

لقد برهنت لنا حركة الشيخ عثمان بن فودي على أن النظرة الأكاديمية وحدها للأمور لا تحدث تغييراً جذرياً في المجتمع، وأن القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يتطلب أسلحة متعددة وأساليب متنوعة لتجاوب مع الوضع السياسي والاجتماعي أحياناً وسلباً. وبرهنت الحركة أيضاً على أن إزالة سلطان الكفر والظلم هي أولى مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

لقد أثرت حركة الشيخ عثمان في بعض الحركات الإسلامية في غرب إفريقيا كحركة الشيخ أحمدو لوبو الماسني (مالي الآن) وحركة الشيخ عمر ابن سعيد القوتي، كما أحدثت حركة فكرية وثقافية وتغييراً اجتماعياً كبيراً في بلاد السودان فقد انتشر التعليم وتضاعف عدد المساجد والمعاهد الدينية بفضل توجيهات الشيخ وجهود الدعاة الذين يجوبون البلاد ويدعون الناس إلى الإسلام.

ولم يزل الشيخ عثمان وجماعته يقاتلون ملوك الهوسا حتى انتصروا عليهم وسقطت الولايات واحدة تلو الأخرى، ودخلت بعد ذلك كلها تحت لواء الدولة الإسلامية الجديدة، وصار الشيخ عثمان أميراً لهذه المملكة الواسعة، فوضع لها نظاماً إدارياً إسلامياً، وجعل اللغة العربية هي اللغة الرسمية للدولة وبعد أن استقرت الأوضاع في الدولة رأى الشيخ أن الأليق أن يترك زمام القيادة بيدي ابنه محمد بيلو وأخيه عبدالله بن فودي ويتفرغ هو للتدريس والوعظ والتأليف. فجعل الأول أميراً على البلاد الشرقية والثاني أميراً على البلاد الغربية وأمرهما بمراعاة العدل فيها، وكان ذلك في سنة ١٢٢٧هـ/١٨١٣م، واستمر الأمر كذلك إلى أن توفي الشيخ سنة ١٢٣٢هـ/١٨١٧م، وعمره ثلاث وستون سنة (١).

لا يزال العالم الإسلامي والمفكرون المسلمون في حاجة ماسة إلى دراسة منهجية هذه الحركة الإسلامية التي قادها عالم قد وهب نفسه لخدمة الإسلام وارتبط اسمه بالجهاد ومجديد الفكر الإسلامي في إفريقيا منذ القرن التاسع عشر الميلادي، لقد كان الشيخ عثمان بن فودي أمودجا للعالم المخلص الذي رفض كل الاغراءات الدنيوية من مال وجاه وسلطان حينما أتمته، والتزم جانب الحق والمستضعفين ووقف ضد الطغمة بكل ما يملك من بيان وعداد وسلاح واستطاع بحكمته السياسية وبأسلوبه المقنع أن يكسب ود الناس الذين بايعوه لاعلاء كلمة الحق ونشر الدعوة الإسلامية في كل بقاع.

(١) محمد بيلو: اتفاق المسور ص ١٩٠.

(٢) سورة فصلت الآية ٣٣.

الفصل الثاني

حركة الشيخ محمد الأمين الكافي

نشأ الشيخ الكافي في منطقة بحيرة تشاد، وقد جاء في تاريخ حياته أنه تلقى تعليمه في الأزهر لمدة خمس سنوات، ثم بدأ له أن يزور القدس وجاور به لمدة عامين، وانتقل إلى المغرب فجاور لمدة ثلاث سنوات بمكة، ولمدة سنتين بالمدينة المنورة ولمدة عامين أيضا بفاس، كما زار طرابلس والقيروان وتلمسان وتمبوكتو (١).

وخلال هذه الفترة التي لا تقل عن خمسة عشر عاما، كان الكافي يدرس جارا إلى جانب فقد المذهب المالكي أنواعا كثيرة من العلوم، ثم بعد هذه الجولة عاد إلى بلاده وكله أمل في القيام بحركة إصلاحية لتنقية العقيدة الإسلامية من الشوائب التي علفت بها في السودان الأوسط والغربي.

وما مهد له المجلس على عرش مملكة البرنو الإسلامية اشتغاره بالعلم والصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكثرة الأنواع والتلاميذ من جميع القبائل الموجودة في حوض بحيرة تشاد وما جاورها.

وعندما تولى الكافي الحكم في «برنو» وجه اهتمامه أولا وقبل كل شيء إلى مواجهة انصار الشيخ عثمان بن فودي الذين بدأوا يغزون بلاده، كما وجه اهتمامه أيضا إلى نشر الدعوة الإسلامية في جنوب نيجيريا والكاميرون، كما حاول إرجاع جميع الأقاليم التي كانت خاضعة لمملكة البرنو في السابق، لكنه لم يفلح في ذلك.

لقد استنكر الشيخ محمد الأمين الكافي المنطق الثوري لمجاعة الشيخ عثمان بن فودي في بلاد الهوسا، متهما إياهم بالخروج على طاعة الأمام واثارة الفتنة وسفك دماء المسلمين بغير حق في سبيل أرضه، طموحاتهم الشخصية والقبلية.

كما شكك الشيخ الكافي في شرعية الجهاد نفسها، وحسب اجتهداه أن المظالم والتهم التي تذرع بها المجاهدون لا تستدعي جهادا في هذه البلاد وأن الفساد الاجتماعي والأخلاقي ليس محصورا بمكان معين، بل أن الفساد قد عم جميع البلدان حتى بلاد المشرق والمغرب ذات التاريخ الطويل في الإسلام. لم يقل المجاهدون الذين أرادوا أن تشمل حركتهم بلاد البرنو بهذا المنطق، لأنه حسب دعوهم أن إحدى مسؤوليات العلماء أن يحاربوا الفساد، وأن عدم قيام علماء المغرب

(١) الشيخ إبراهيم صالح: تاريخ الإسلام وحياة العرب في امبراطورية كانم برنو، ص ١١٨ - ١١٩.

والمشرق بواجبهم التكليفى هو حجة عليهم وليس حجة على المجاهدين. وكذلك فإن المقاصد الاجتماعية والأخلاقية والرواسب الاحيائية والظلم السياسى والاقتصادى تستدعى اقامة الجهاد وتحكيم الشريعة الاسلامية.

ومما جاء فى أول رسالة للشيخ الكافى الى المجاهدين فى «سكتو» مستنكراً فيها جهادهم فى «مملكة برنو» ما يلى: «... لما سافستى المقادير لهذا الاقليم وحصدت النار بينكم وبين اهل الوطن موقدة فسألت عن السب فقيل بغي.. وقيل سنة. وتحيرنا فى الامر.. فقمنا مدافعين عن أنفسنا متبرئين لله من سوء صنعكم حين ضاقت علينا الارض ولم نجد مقاما ولا محالا» ويعنى الشيخ الكافى مستنكراً بعض الاعمال التى نتجت عن القتال بين المجاهدين واهل برنو، قائلاً: «اخبرونا عن قتالكم» واسترقاقكم أحرارنا. ان قلتم فعلنا ذلك لكفركم فانا من الكفر براء.. وهو بعيد عن ساحتنا، فاذا كانت اقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ومعرفة الله وصوم رمضان وعناية المسجد كفرا فما الاسلام؟

فهذه الابنية التى اقمتم بها الجمعة صوامع أم بيع وصلوات، أم بيوت نيران؟ وان كانت من غير شعارات الاسلام فلم صليتم فيها حين ملكتم؟ هل ذلك الا اطلاق متناقض، اما عن المخالفات التى يرتكبها الامراء وعامة الناس من ركوب الى بعض الاماكن المقدسة بغرض التصديق وكشف رؤوس النساء واخذ الرشوة واكل مال اليتيم والمجور فى الحكم فان هذه الاشياء مع تحريم مرتكبيها الا انها لا تستدعى اقامة الجهاد، لان ارتكاب هذه المظالم بدعة شيعية وجب النهي عنها والانكار على فاعلها لكن لا يكفر فاعلها.

حاول الشيخ محمد الامين الكافى عقد مقارنة بين الوضع الاجتماعى والاخلاقى فى مملكة برنو من جهة وفى مصر من جهة أخرى بغرض الوصول الى نتيجة ان بعض الاعتقادات لروح الاسلام لا ترقى الى درجة التكفير.. فيقول: وهذه دمياط مدينة عظيمة من مدائن الاسلام وهى بين مصر والشام وذلك موضع العلم والاسلام، وبأرضها شجرة تفعل العامة مثل فعل الاعاجم، ولم يقم أحد من العلماء لقتالهم ولا قال أحد بكفرهم.

وكان من رأى الكافى انه كان حرباً بالمجاهدين فى «سكتو» ان ثقف دعواهم على مجرد الامر بالمعروف والنهي عن المنكر بغير حمل الناس على القتال، فيقول:

«لو أمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر واعتزلتم الناس حين لم ينتهوا لكان أحسن من هذا الفعل».

يسوق الشيخ الكافى مقالا آخر من المشرق يبطل به حجج المجاهدين فى ضرورة الجهاد، وحسب منطقته انه مع وجود كبار العلماء فى البلاد الاسلامية الأخرى، قال يجوز لأحد أن ينادي بالجهاد ضد المعاصى والبدع.

«فهذه مصر مثل برنو وأعظم منها، كذلك المغرب والشام وجميع مدن الاسلام فيها المجور والرشوة والبدع وأكل مال اليتيم منذ زمن بنى أمية الى يومنا هذا، ولا يخلو زمن ولا بلد من

نصيبه من البيع والمعايش. فلو كفر الجميع بكل مؤلفاتهم فكيف تستدلون بأقوالهم وهم كفراء
وعن الكافي في رسالته ليصل الى نتيجة واحدة هي أن شهوة الملك وليس غيرها هي العبرة
الاساسي للمجاهدين، وليس نشر الاسلام والمطالبة بالاسلام كما كان ينبغي لهم ان يفعلوا
«فيا عجا منكم بعد أن كانت لكم التقدم في الدين والعلم، أحسبتم الملك رغبتم فيه وسئلت
لكم أنفسكم، وتخطيت ما تخيلتم واستدللتكم بظواهر لا تنهض لكم دليلاً، ولا سيما وقد سمعنا
عن سير الشيخ عثمان ابن هودى ورأينا من مؤلفاته ما يخالف فعلكم، فإن كان هذا الأمر
من رأيه فلا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم...» (١)

لقد حاول المجاهدون تنفيذ اتهامات الكافي ونقدتها من منطلق شرعي لتبرير مشروعية
جهادهم. وبما جاء في ردودهم لاتهامات الكافي «إن الجهاد الذي قاموا به عمل مشروع لأنه
فرض عين كما ذكر محمد بيلو في رده على رسالة الكافي. كذلك فإن المجاهدين لم يكفروا عادة
الناس في «برنو» ولا حكام «برنو» لكفرهم بالاسالة، وإنما وصفوهم بالكفر لأنهم وألوا الكافرين
من حكام بلاد الهوسا على المجاهدين المسلمين».

«وبما عجا منك «الكافي» لو كنا نكفر عامة المؤمنين لم نتخذ مساجدهم لنا مساجد كما
زعمت؟ فكلامك هذا متناقض».

واتهم المجاهدون الشيخ محمد الامين الكافي بأنه يتطلق في احكامه من منطلقات شخصية
غير موضوعية وأنه متحيز لجهة دون أخرى استقصا. للحقائق من طرفي النزاع. وعن المجاهدين
في ردودهم «الا ان جميع ما ذكرته فينا مغالطات ومشاعيات اتخذتها ذريعة الى المجرع والفسق
على المسلمين وسئلت لك نفسك وخيلت أن ذلك يستقيم لك حجة في مذهبك الفاسد، وهيئات
ذلك، وإنما سبق في قلبك ما سبق، وكاتب أمثالك فسمعت منهم مقالات غير لائقة إما لقصور
بيانتهم عن الحقيقة أو لسوء فهمك والله تعالى أعلم».

برد المجاهدون أيضا على اتهام الكافي لهم بحب التسلط الذي لا يليق بالعلماء بالآتي:
«كيف تشهد لنا بالعلم والدين، ثم تنسب إلينا الجهل والفسق، ونحن أحسبنا الملك انزعنا من
الدين والعلم حتى رجعنا الى تسويلات النفوس وتخيلاتها...».

ويبدو أن الرسالة الاولى للمجاهدين لم تشمل كل النقاط التي اثارها محمد الامين الكافي
في رسالته الاولى، وقد دافع محمد بيلو عن موقف المجاهدين بتكفير حكام برنو كما يلي:
«واعلم ان سب قتالنا لكم فلائكم واليتم كفار «هوسا» دوننا بغير تقيّة فهو مثلهم كتماناً
وسنة واجماعاً، ولقيامكم أيضاً على اذابة المجاورين لكم من الجماعة حتى ألجأتموهم الى الهجرة
وبدأنتموهم بالمقاتلة تعصبا لملوك «هوسا» ولا جرم ان الرضا بالكفر، كفر، وتعلمون على هذا ان
معرفة الله واقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وعمارة المساجد لا تنفع من قتالكم ولا
تنفعكم في الدنيا والآخرة، لثبوت ارتدادكم ان كان قد سبق لكم الاسلام الصحيح...»

(١) أحمد محمد كافي، المرجع السابق، ص ٨٩ وما بعدها.

لم يقلل المجاهدون أيضاً تبرير الكافي لبعض العادات والتقاليد المتوارثة والمنافعة لروح الشريعة الإسلامية التي كانت سائدة في بلاد اليرمو في ذلك الوقت... «وأما قولك «ميناك» إلى آخر الكلام، فلا تسلم أن العلماء لم يتعرضوا لقتالهم ولم يقولوا بكفرهم، فهذا عند الزحنين بن يوسف الشريف تعرض للشجرة التي سجلت مساقعة ففقطعها وقال إنها مثل «مناة» وتعلم أن مساقعة من الأوثان الجاهلية».

لقد استمرت المراسلات بين الشيخ محمد الأمين الكافي والمجاهدين في «سكتو» لفترة ليست بالقصيرة، وفي سنة ١٨٢٤ حصل تفاهم ونوع من الصلح بين الكافي وأسير المؤمنين محمد بيلو الذي خلف والده، ويعتبر هذا الاتفاق اعترافاً ضمنيّاً من جانب الكافي بمشروعية الجهاد في بلاد الهوسا والاقطار المجاورة، وأقر المجاهدون محمد الأمين الكافي كحاكم مستقل على بلاد اليرمو. وبهذا انطوت صفحة من صفحات النزاع بين حركتين إسلاميتين مختلفتين في التفكير وكيفية معالجة الأمور من زاوية شرعية، فالمجاهدون كانوا يهدفون إلى إقامة دولة إسلامية تقضي على كل الرواسب الجاهلية والعادات الوثنية والمواردات الحرفية التي اختلطت في أذهان الناس. في حين كان الكافي يرمي من محاولاته هذه إلى الإبقاء على الأوضاع الاجتماعية والسياسية في تلك البلاد كما هي، وإذا كان لابد من القيام بالإصلاح فعن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا عن طريق الجهاد الإسلامي الذي لم يجد له مبرراً في تلك الأحيان.

ويبدو أن الشيخ محمد الأمين الكافي الذي عاش لفترة طويلة في المشرق والمغرب قد تأثر بالوضع الاجتماعي والسياسي المحافظ السائد في تلك البلاد في ذلك الوقت. وفي عام ١٨٣٥م توفي الشيخ الكافي، وخلفه في الحكم والدعوة إلى الإسلام أكبر أولاده «عمر بن محمد الكافي» (١).

(١) الشيخ إبراهيم صالح، المرجع السابق، ص ١٣١. والدكتور إبراهيم رياضي: الممالك الإسلامية في المغرب إفريقيا وأثرها في تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى، ص ٢٩٦.

الفصل الثالث

الشيخ أحمدو لويو الماسني (ت ١٩٦٠هـ / ١٨٤٤م)

تلقى الشيخ أحمدو تعليمه في مدينة «جنى» التي كانت من المراكز الإسلامية الكبرى في
غرب أفريقيا، حيث درس التفسير والحديث والفقه واللغة والتاريخ الإسلامي، ثم عاد إلى بلاده
«ماسينا» وأخذ يسعى لنشر التربية الإسلامية بين الشباب المسلم، وتنقية العقيدة الإسلامية من
الشوائب التي علقت بها في مختلف المستويات الاجتماعية، هذا إضافة إلى ما قام به من جهاد
لإخراج الأحيائيين من الظلمات إلى النور.

ونظرا لمعارضة حكام ماسينا لحركته الإصلاحية ودعوته الإسلامية انتقل الشيخ مع تلاميذه
وانصاره إلى منطقة «روندي سيرو» بالقرب من مدينة جنى، ومن هناك أعلن الجهاد في سبيل
الله ضد الحكام الذين اتهمهم بممارسة العادات والتقاليد الأحيائية كما هاجم العلماء الذين
اعتبرهم أداة في أيدي أسادهم من حكام «البمبارا» نظرا لعدم قيامهم بالأمر بالمعروف والنهي
عن المنكر وتطبيق الشريعة الإسلامية في البلاد.

وبعد ذلك أعلن الشيخ أحمدو نفسه أميرا للمؤمنين واستطاع في فترة وجيزة أن يسيطر على
«جنى» و«ماسينا» ويمكنو وكأوتا» وأن يؤسس في سنة ١٨١٥م مدينة «حمد الله» لتكون حاضرة
لدولته الإسلامية الجديدة التي كانت تضم (منطقة مالي وبوركينا فاسو).

جمع الشيخ أحمدو العلماء والأجاويد وكبار التجار في المناطق التي استولى عليها وأخبرهم
بأنه لا يرغب في تولي المسؤولية وحده، وطلب منهم توحيد الصفوف وتضافر الجهود لوضع إدارة
عادلة وحازمة تحل محل طغيان السلاطين السابقين، ولتضع نظاما جديدا يضمن حياة أفضل
للجميع، فشكل لهذا الغرض لجنة تتألف من مائة عضو لدراسة الوضع في البلاد وتقديم
المقترحات.

وبعد بضعة شهور من العمل الجاد المتواصل قدمت إليه اللجنة مقترحاتها ودرسها الشيخ
أحمدو ووافق على ما جاء بها، وشكل مجلسا للشورى يتألف أعضاؤه من أربعين عالما، يرأسه
أحد كبار العلماء. ورغم أن الشيخ أحمدو قد حمل لقب أمير المؤمنين فإنه كان عضوا في
المجلس، وكان بغرض الكثير من سلطانه إلى بعض الأعضاء.

وبناء على اقتراحات أعضاء مجلس الشورى قسمت البلاد إلى خمس إمارات يرأس كل إمارة
أمير يعاونه أحد العلماء الأكفاء، وأن تكون له سلطة قضائية لها صفة الاستقلال، ولو اقتضى

الامر بتقديم الامير للمحاكمة امام مجلس الشورى في العاصمة
وأشأ الشيخ أحمدو نظاما عسكريا دقيقا للدفاع عن البلاد، وقسم العاصمة (أحمد الله) الى

سبعة أحياء بشرف قاضي خاص على كل حي من أحيائها، وعين قاضي القضاء على رأس هؤلاء الحكام. وطبق سياسة استقرار البدو الرحل في قرى ثابتة ومستقرة لتسهيل عملية إصلاحها والدفاع عنها، ودعم هذا الاستقرار داخل الدولة باستصلاح الأراضي الزراعية، وإقامة نظام اقتصادي إسلامي، فأنشأ بيت المال، وصارت أهم موارده الزكاة والجزية والحراج والغنائم والكوس والغرامات التي يدفعها من يخالف الشريعة الإسلامية، هذا إضافة الى غزوات جماعية تدفعها القرى أو المدن التي يحدث بها تمرد أو عصيان، وبهذه الاموال سير شؤون دولته وفقا لمصالح المجتمع.

كما اهتم الشيخ أحمدو بإنشاء المدارس التي أصبحت أكثر من ٦٠٠ مدرسة في العاصمة وحدها، وأمر ببناء المساجد في كل قرية من القرى، وكان الشيخ أحمدو نفسه يظلي صلاة الجمعة بالناس ويلقي دروسا في التفسير والحديث النبوي الشريف، ويغد اليه الطلاب من كل فج للاستماع الى هذه الدروس. وقد تبادل الشيخ أحمدو السفرا مع خليفة الشيخ عثمان بن فودي الامير محمد بيلو (١٨١٧ - ١٨٣٥م) حيث توطدت العلاقات بين دولتيهما، ونتيجة للإصلاحات التي قام بها الشيخ أحمدو انتشر الاسلام وانتعشت الدولة الماسينية اقتصاديا وثقافيا وتوافد التجار والطلاب عليها من كل صوب.

وبعد وفاة الشيخ أحمدو ثار السكان على ابنه أحمدو الثاني الذي خلفه لكنه استطاع ان يعيد الامن والاستقرار الى البلاد عن طريق الامر بالمعروف، والنهي عن المنكر ومعاقبة الخارجين عن الشريعة.

ومات الامير أحمدو الثاني عام ١٨٥٢م، وخلفه ابنه أحمدو الثالث الذي تغلبت عليه قوات الحاج عمر بن سعيد القوتي واستولت على مدينة حمد الله عام ١٨٦٢، وانتهت بذلك دولة ماسينا التي بناها الشيخ أحمدو لوبو، وبدأت المنطقة تدخل في طور جديد تحت حكم حركة إصلاحية أخرى قادها أحد أبناء التكرور (١).

(١) الدكتور حسن أحمد محمود : المرجع السابق، ص ٢٦٩.

والدكتور حسين مؤنس : الاسلام الفاتح، ص ١٢٢.

الفصل الرابع

الحاج عمر بن سعيد الفتوي (ت ١٢٨١هـ / ١٨٦٤م)

امتد أثر الحركة الإصلاحية التي قام بها الشيخ عثمان بن فودي إلى منطقة ماسينا وبوركينا فاسو. حيث أسس الشيخ أحمدو لوبو دولته الإسلامية، بل اتسع حتى شمل منطقة السنغال وغامبيا وغينيا وساحل العاج وغانا. تلك البلاد التي عرف سكانها التبادل التجاري مع الأمازيغ منذ قرون سحيقة ودخلت في الإسلام منذ القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي، وشملت الدعوة الإسلامية التي قام بها المرابطون في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، ولذلك لم يكن غريبا أن يظهر في تلك المناطق عالم مجاهد يدعو الناس إلى الالتزام بمبادئ الإسلام، ذلك العالم هو الحاج عمر الفتوي الذي ولد سنة ١٢١٢هـ / ١٧٩٧م في قرية «حوار» بالقرب من «بودور» على الحدود السنغالية الموريتانية إلى الشرق من مدينة «سانت لويس»، وكان والده من كبار العلماء الذين قاموا بنشر الدعوة في حوض السنغال. ولذلك فقد نشأ الحاج عمر نشأة دينية وتلقى تعليمه الابتدائي في خلوة والده، حيث حفظ القرآن الكريم، ثم درس اللغة العربية والتوحيد والتفسير والحديث والتاريخ الإسلامي، وغير ذلك من العلوم الإسلامية.

وفي سنة ١٨٢٦م قام برحلة لأداء فريضة الحج عن طريق بلاد المغرب وهناك في كل من فاس وتلمسان والقيروان وبراقة والقاهرة ومكة المكرمة والمدينة المشورة وفي غيرها من المدن والامصار التي زارها درس الفقه والأدب على يد مشايخها. ولقد وجد الشيخ عمر قبولا واحتراما كبيرا من علماء سوريا والقدس على عكس القاهرة التي واجه فيها مشاكل عديدة في مسائل فقهية واعتقادية من علماء الأزهر. وخلال عودته زار دولة البرنو في عهد الشيخ محمد الأمين الكافى وفي اثنا اقامته في برنو التي دامت ثلاث سنوات وقع الخصام بينه وبين الكافى، فاضطر إلى مغادرة برنو إلى سكنو التي اقام فيها لمدة ثماني سنوات، وقد نتجت عن العلاقة الودية بينه وبين أمير المؤمنين محمد بيلو علاقة سرية تزوج فيها الحاج عمر الفتوي من ابنة الأمير. ولما توفي الأمير محمد بيلو سنة ١٨٣٧م، رحل الحاج عمر مع زوجه الأميرة عائشة إلى دولة ماسينا وظل هناك بعض الوقت في ضيافة أميرها الشيخ أحمدو لوبو، ولكنه عندما أرغى من ماسينا إلى إمارة سيجو، طردته سلطات الإمارة فرحل إلى منطقة «كانجايابا» ثم انتقل إلى منطقة «كان كان» حيث استمر سبع سنوات يعظ الناس ويعلمهم مبادئ الإسلام والطريقة التيجانية.

كان الحاج عمر يكتب أعرافا وأنباءا لدعوته في كل منطقة يقسم فيها. ففي ملكة برام حاول اكتساب بعض الانتصار مما أدخله في نزاع مع الشيخ محمد الأمين الكامي الذي وصل به الأمر إلى حد التفكير في اغتيال الحاج عمر. وفي ملكة سكتو، رغم ما كان يحظى به من حماية وتأيد الأمير محمد بيلو، فإنه دخل في نزاع مع كثير من الفقهاء، حتى اضطر إلى مغادرة سكتو بعد وفاة الأمير محمد بيلو عام ١٨٣٧م. وعندما وصل إلى دولة ماسينا حاول أيضا اكتساب بعض الانتصار، ولما فشل في ذلك عاد إلى وطنه «فونارو» وهناك نظرت إليه السلطات الحاكمة نظرة يشوبها الشك، ولم تقبل الحكومات هناك تلك المبادئ التي يدعو إليها. ولما لم يجد استجابة من هذه الدولات فكر جديدا في بناء مجتمع جديد، فأعلن الجهاد في سبيل الله سنة ١٨٤٩م. وبدأ بغزو إمارة البيمبارا في «كارنا». واستطاع أن يلحق الهزيمة بحبيشها سنة ١٨٥٤م. واستولى على أهم المدن بها، وكان يأمل أن تساعد حكومة «ماسينا» في شن هجوم مشترك على القبائل الوثنية في إمارة «سجيو» ولما رفض أمير ماسينا دعوته التحق نحو الغرب لمهاجمة بعض الإمارات السغالية، وهناك التقى بالقوات الفرنسية عام ١٨٥٧م، والتحم بها، ثم اضطر إلى الرجوع للشرق، فكان انسحابه إلى الشرق مؤثرا لضم الدولة الإسلامية الماسينية. واثنا اشتباكات قوات الحاج عمر مع دولة ماسينا قتل الحاج عمر عام ١٨٦٤م وهو في قمة قوته ولكن قبل أن يثبت أركان دولته الإسلامية الفنية.

وكان الحاج عمر قد عين ابنه أحمدو خليفة له قبل أن يتوجه إلى منطقة ماسينا. وهكذا صار أحمدو خليفة على هذه الدولة الإسلامية الفنية بعد وفاة والده، ومنذ البداية صار موقفه صعبا. ذلك أنه في الوقت الذي بدأ يدعم فيه سلطانه في سيجو أخذ الفرنسيون يشقون طريقهم نحو دولته (١).

وكان أحمدو يتطلع إلى إقامة علاقات تجارية وثقافية وسياسية مع الدول المجاورة، ومع الفرنسيين في حوض نهر السنغال ومع الانجليز في غامبيا وسيراليون، وقد بذل جهودا شاقة من أجل تطبيق الشريعة الإسلامية في دولته ومن أجل استتباب الأمن والاستقرار داخل البلاد، حيث كانت الإمارات التابعة للدولة تتحين الفرص لتعلن التمرد من حين لآخر لاستعادة استقلالها. وعندما بدأ الاحتلال الفرنسي لبعض أجزاء الدولة الإسلامية قدم «جاليني» القائد الفرنسي في عام ١٨٨٠م إلى أحمدو من أجل الحصول على معاهدة تسمح للفرنسيين ببناء خط حديدي يربط نهر السنغال بنهر النيجر ويعطي التجار الفرنسيين امتيازات في دولته (٢).

وقد ترك أحمدو هذا القائد الفرنسي منتظرا حوالي عشرة أشهر في مدينة «نيانجو» التي تبعد (٥٠) كم عن عاصمته واضطر أحمدو في النهاية إلى اتخاذ القرار نتيجة الاحتلال الفرنسي لمنطقة «كيثا» الواقعة فعلا داخل مجال نفوذه، ورفض أحمدو قبول الحماية الفرنسية وسمح فقط

(١) محمد حسن أحمد: الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا، ص ٩٩٩.

(٢) نعيم قذاف: حضارة الإسلام وحضارة أوروبا في إفريقيا، ص ١١٧.

للنصار الفرنسيين بعض الامتيازات في دولته. في مقابل هذه الامتيازات التي منحها أحمدو للنصار الفرنسيين تعهدوا بعدم غزو المناطق التابعة له. ولكن الحكم الفرنسي في السنغال لم يعتمد هذه المعاهدة على الرغم من البعثة التي أرسلها الأمير أحمدو إلى مدينة «سانت لويس» في أكتوبر سنة ١٨٨٤م.

وفي نفس العام احتل الفرنسيون تونس. وانشغلت فرنسا في الهند الصينية وفي الكونغو. ولم تكن على استعداد لفتح مجالات جديدة للتوسع في السودان الغربي. لكن الخط الجديد كان قد وصل إلى الحدود الشمالية لدولة «التكرور» الإسلامية. كما احتل الفرنسيون بالفعل بعض الأجزاء منها دون مفاوضات. وترب على مؤتمر برلين (١٨٨٤/١٨٨٥م) وما توصل إليه من قرارات إضافة إلى طموح بعض رجال الأعمال الفرنسيين أصبح الاحتلال الفرنسي لدولة التكرور أمراً لا بد منه. إذ أنه بعد انتهاء المؤتمر وما أوصى به. تقدم الفرنسيون نحو «سجور» فاحتلر الأمير أحمدو ابن عمر إلى الانتقال نحو «تيورو» (١).

وفي عام ١٨٨٦م تولى القائد الفرنسي «جاليني» (٢) القيادة في النيجر الأعلى. وكانت الدولة الإسلامية التكرورية في ذلك الوقت مقسمة إلى أربعة أقسام: يحكم الأمير أحمدو منها منطقة كارتا من مدينة تيورو. ويحكم ابنه مدني منطقة سيجور. بينما يحكم ابن عمه الشيخاني منطقة ماسينا. ويحكم أخوه حبيبو منطقة دنجوري.

وفي عام ١٨٨٦م. نجح القائد الفرنسي في الحصول على معاهدة حماية الأمير حبيبو. وفي العام التالي. حصل الفرنسيون على معاهدة حماية من الأمير أحمدو بن الحاج عمر نفسه. وتسقط الدولة الإسلامية التكرورية عندما يرضى الفرنسيون على أحمدو الخناق. فيضطر إلى التوجه شرقاً ولكن المبنة وافته سنة ١٨٩٨م قبل أن يصل إلى دولة سكتو. وخلفه الأمير محمد ياسيرو الذي أعطاه الخليفة في سكتو قرية أطلق عليها «دار السلام» ليستقر بها. واعتزل الأمير محمد ياسيرو بفضل الخليفة وعاونته في حروبه ضد الإنجليز (٣).

وهكذا انتهت الدولة الإسلامية التي أسسها الحاج عمر بن سعيد القوتي بمجرد القضاء على قواتها العسكرية ولجو أميرها إلى سكتو. واحتلال مدينة ماسينا في عام ١٨٩٣م. وإذا ألقينا نظرة شاملة على حركة الحاج عمر. نجد أنها تجتهد في تقوية الوحدة بين المسلمين في غرب إفريقيا. وأنها أقامت دولة إسلامية أكثر مركزية عن دولة سكتو. أو دولة الشيخ أحمدو لوبو في ماسينا.

(١) تضمنت بعض نصوص مؤتمر برلين بنوداً قضت على ضرورة إعلان أي دولة تحتل أي جزء من إفريقيا بقية الدول. على أن يتبع هذا الإعلان باحتلال فعلي لهذه المناطق.

(٢) جاليني ضابط بحري من أصل إيطالي. ورغم شجاعته فإنه لم تكن لديه دراية بالشؤون السياسية في إفريقيا. كما لم تكن لديه معلومات كافية عن حجم الدولة الإسلامية التكرورية. مما جعله يعتبرها عبء في طريق التقدم الفرنسي نحو نهر النيجر.

(٣) شوفي عطا الله الجمل - تاريخ كشف إفريقيا واستعمارها ص ٥٠٩.

وقد تكونت هذه الدولة في منطقة جرجنت الاسلام في وقت مبكر. وكان الحاج عمر بنادي
بالطريقة الروحية من طريق ممارسة اوزاد الطريقة التجانية وهي احدث من الطريقة القادرية التي
انتهجها كل من الشيخين عثمان بن فودي واحمدو لوبو (١٦)

وبتصغير جهاد الحاج عمر بناديه وقع خارج وطنه الاسفل في فونانورو وقد ساعده على تحقيق
النجاح لحركته الإصلاحية تلك الأحوال المنطوية التي سادت المنطقة بسبب التغافل الفرنسي
هناك. وليس غريباً أن يتزعم الشعب البكروري هذه الحركة. لأن مطلقهم كانت دائما مركزا
لعديد من المصلحين ورجال الدعوة الذين ظهروا بعد حركة المايطين.

ولم يكن هدف الحاج عمر عندما توجه الى منطقة فونانورو غزو هذه المنطقة بل كان يسعى
للحصول على تأييد العلماء. هناك من أجل نشر الاسلام وتصحيح العقيدة من الشوائب التي
علقت بها في المجتمع الافريقي. وقد أبدى عدد كبير من العلماء والأجويد والسلطان المسلمين.
وانسدت حركة الحاج عمر لمواجهة النصارى. حيث جاهدت قواته بشجاعة في كل المعارك التي
خاضتها ضد القوات الفرنسية المفرية على احدث الأسلحة. ورغم قلة تسليح رجاله فإنهم كفوا
الفرنسيين الحسائر في الأرواح والمعدات. وهذا ما أجبر الفرنسيين على التفاوض بل والعمل على
التعاون معه. وبعد وفاة الحاج عمر تولى ابنه الأمير احمد واستمرت المفاوضات في عهده حتى
سقطت الدولة (٢٧).

ومما يؤخذ على الحاج عمر انه كان غنيفا فاسيا مع خصومه. ولم يكن النظام الذي وضعه
لدولته متينا أو محكما. فكان رعاياه بطيعونه لهيبته وتقاه دون أن يفكر هو في تأييد هيئة
الحكم التي اقامها بنظام محكم. فلما خلفه ابنه أحمدو استمر بحكم في العاصمة وما حولها في
حين خرج البسمبارا عن حكمه وأسرع اخواه (حيبو ومختار) باعلان انفصالهما عنه وانضموا الى
الفرنسيين الذين كانوا إذ ذاك يتوغلون في البلاد (٢٨).

(١٦) تنسب الطريقة التجانية الى الشيخ احمد بن محمد المختار وهو فقيه جزائري ولد بقرية عين ماضي في عام
١٧٣٧م درس العلوم الإسلامية في تلمسان وفاس والقاهرة. وفي عام ١٧٦٨ ذهب الى مكة لاداء فريضة الحج
وبعد عودته الى مصر غلب عليه التصوف فانضم الى الطريقة الخلقوتية التي تنسب الى كرم الدين الخلقوتي
العسوي المصري المتوفى سنة ١٥٧٨م. ثم اتخذ التجاني بعد عودته الى المغرب مدينة فاس مقراً له.

(٢٧) الدكتور / عبدالله عبدالرازق ابراهيم : الحركات الإصلاحية في غرب إفريقيا، ص ٢٧.

(٢٨) الدكتور حسين مؤنس : الاسلام الفاتح، ص ١٣٤ - ١٣٥.

الفصل الخامس

حركة الشيخ ماباجا خوبا (ت ١٢٨١هـ - ١٨٦٧م)

قامت حركة الشيخ ماباجا خوبا كرد فعل لتصاعد تعسف «تيدو» ضد مواطنيهم وكلمة «تيدو» هذه لدى جماعة ولولوف تقابل «سوليتكي» عند جماعة «مانديكي» وتعني: الكرم والحيث والوحشية والخشونة والدناءة، وهي طائفة كانت منتشرة في مختلف أنحاء السنغال وتشكل «مليشيات» السلطات الحاكمة آنذاك، وكانت تعيش على السلب والنهب ولتأخر كل أنواع المكورات والموقوفات، كانت تسطر على ممتلكات وأرواح الشعب وتتحكم في حياته وتتصرف فيها تصرفات خرقاء، وتثقل كواهل الناس بالضرائب التي يحلو لها أن تحييتها ولقد بلغ من غطرسة «داودمبا» أحد ملوك تيدو أنه كان يمنع زعمائهم من الزواج وارتداء السراويل واستعمال الملح، لأن هذه الأمور خاصة بالملوك والأمراء والأعيان فقط.

وكان هذا الملك يجوب البلاد يقيم يومين في قرية وثلاثة أيام في أخرى حيث يكلف أهل القرى بتقليته هو وحاشيته ولأنه الأسباب يهربون القرى ويسترقون بعض أهلها.

من خلال استبداد وقساوة ملوك تيدو، برزت حركة الشيخ مابا الإصلاحية أمام الشعب السنغالي لانتقاده مما هو فيه، فكانت بيوت الشيخ ملجأ للمستضعفين ومأوى لعامة الشعب وكلما تفاقمت ضغوط تيدو تكاثف اقبال الناس على الالتفاف حول الشيخ مابا، وارتفع احساس المسلمين بضرورة الذود عن الحق وحماية الناس من الطغيان، حتى أصبح الاصطدام بين الشيخ مابا وأتباعه وبين «تيدو» أمرا لا مناص منه (١).

ولم تكن دواعي حركة الشيخ مابا اكراه الناس على اعتناق الاسلام، بل كان الدافع الموضوعي حماية النفس وحماية العقيدة الاسلامية وتنقيتها من الشوائب التي علقت بها في تلك المناطق، وكان كلما ازدادت قوة أتباع الشيخ مابا، نما خوف ملوك «تيدو» وصعدوا مناوشاتهم ضد المسلمين.

وامام تعنت وتماادي هذه الجماعة الظالمة اضطر الشيخ مابا، لمنازلتها وعلان الجهاد في سبيل الله ضدها، فانتصر عليها واستتب الامر للمسلمين، وانصب اهتمام الشيخ على نشر الاسلام وتشجيع المساجد والزوايا وتعمير البلاد والسهر على مصالح العباد وحمايتهم من تعسف الظلمة والظالمين وتطبيق الشريعة.

(١) عبدالقادر محمد سيل: المسلمون في السنغال، ص ٦٥ وما بعدها.

واستطاع الشيخ مابا أن يقطع شوطا بعيدا في توحيد العالمين «رب» و«سالم» و«ياديو»
سنة ١٨٦٧م في معركة مشهورة باسم «صوميه». حيث استشهد الشيخ مابا جاهليا، لكن
حركته لم تخذل بوفاته. إذ حصل لوانغا أخوه ولجعله من بعده.

فمثلا: «ستصبح في مستقبل قريب بأذن الله من المجاهدين وستكون وبالا على كفرة المشرق
والغرب أعلن الجهاد وستكون «مين» آخر هدف لك. لأن «سيريسين» وإن كانوا اثنين فإنهم
شرقا. ونشطون. لذلك فهم يستحقون الاحترام». وشاء الله تعالى أن قام الشيخ مابا بالجهاد
وحقق الكثير مما جاء في هذا التصريح المنسوب إلى الحاج عمر. ولقد تركت حركة الشيخ مابا
صدى كبيرا في غرب إفريقيا كله وساهمت في إبراز قيادات إسلامية وخاصة في السنغال الذي
يبلغ عدد المسلمين فيه اليوم أكثر من ٩٠٪.

الفصل السادس

حركة الشيخ ساموري توري (١٨٣٥ - ١٩٠٠م)

ولد الشيخ ساموري في وادي الباولي بمنطقة «بيساندوجو» ودرس العلوم الإسلامية في «الماني». وكان لرحلاته العديدة التي بدأها من «الديولا» أكبر الأثر في تأثره بحركات الإصلاح التي قامت في غربي إفريقيا، وعندما قام بالدعوة إلى الإسلام وأراد إنشاء دولة إسلامية في المنطقة التي تعرف الآن بجمهورية غينيا وسيراليون وليبيريا وساحل العاج وفولتا العليا (١). كان الفرنسيون قد رسوا مع الانجليز خططهم الاستعمارية لسيطرتهم على تلك البلاد. فأعلن الجهاد في سبيل الله سنة ١٨٧٤م واستطاع أن يشتري لأنصاره الأسلحة النارية من مخازن الانجليز التي أنشأوها على السواحل، وأن ينتصر على الفرنسيين في أكثر من معركة، حيث كان على درجة عالية من الكفاءة العلمية والإدارية، فقد أعلن تطبيق الشريعة الإسلامية في بلاده وبني المساجد والمدارس في مختلف المدن والقرى المفتوحة، وقسم البلاد إلى ولايات واختار «بيساندوجو» مقراً لحكمه (٢).

وفي الفترة الواقعة ما بين ١٨٨٢ و ١٨٨٧، طلب الفرنسيون عقد معاهدة معه لتحديد الحدود السياسية بينه وبينهم، ولكن في عام ١٨٩١ تمكن الفرنسيون بما لديهم من الأسلحة الحديثة من احتلال بيساندوجو، وأرغام الشيخ ساموري على الانسحاب إلى مرتفعات غينيا، وأخرجوا أنصاره من ساحل العاج، فأتجه نحو فولتا العليا وهناك وجد نفسه محصوراً بين القوات الفرنسية والانجليزية، فرجع إلى شمالي ليبيريا وتتبعه المستعمرون حتى وقع في أسرهم في سبتمبر سنة ١٨٩٨. فنفى إلى الجابون حيث توفي سنة ١٩٠٠م. ومنذ ذلك التاريخ انتهى أمر الدولة الإسلامية في غربي إفريقيا، وبدأ الاستعمار الأوروبي يسيطر على سلطانه ويثبت به الحديد والنار.

ويذهب الفرنسيون في كتاباتهم إلى القول إن الشيخ ساموري توري، كان رئيس عصاة لا رئيس دولة، وأنه كان يحكم بالارهاب، فأى قرية لا تدفع له الاتاوة سلط عليها رجاله فهبوا وأحرقوها. وهذا كله غير صحيح. كان الذين يهيمون القرى ويحرقونها هم المستعمرون الأوروبيون. والشواهد على سوء أعمالهم نجدها في كافة البلدان الإسلامية التي دخلوها.

(١) يوركينا فاسو حالياً.

(٢) الدكتور السيد يوسف نصر: تاريخ غرب إفريقيا، ص ٢٩٨.

وقد كشف الله عز وجل عن كيد التصاري ضد المسلمين في كل زمان ومكان بقوله: «وذكر من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق.» (١٦).

وقوله تعالى: «... ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا.» (١٧).
والواقع أن الاستعمار الأوروبي لم يكن بالقضاء على الدول الإسلامية التي أقامها زعماء الحركات الإصلاحية في أفريقيا، بل اجتهد في تشويه سمعتها وسمعة رجالها وأعمالهم العظيمة.

«ودرس العلوم الإسلامية الأكثر في تأثيره بحركات التي وأراد إنشاء دولة إسلامية ساحل الحاج ومرواها العدا نفوذهم على تلك البلاد. يراه الأسلحة النارية من غير في أكثر من معركة ضد بين الشريعة الإسلامية في لم البلاد إلى ولاياتها»

«يكون عقد معاهدة مع فرنسا منسجون بها لديهم من الم لا تسحاب إلى مرتفعات في وجد نفسه محصوراً بين فرنسا عسرون حتى وقع في أسرهم قيا، وبدأ الاستعمار الأوروبي»

«وي توري، كان رئيس معاد تناوة سلف عليها رجاله قوتها هم المستعمرين الأوروبي التي دخلوها»

(١٦) سورة البقرة: الآية ١٧٩.

(١٧) سورة البقرة: الآية ٢١٧.

الفصل السابع

أوجه الشبه والاختلاف بين الحركات الإصلاحية في شرقي إفريقيا

إذا كانت هذه الحركات الإصلاحية التي درستها في الفصول السابقة قد اتفقت في المبدأ وهو إصلاح العقيدة الإسلامية من الشوائب التي علق بها والرجوع بالإسلام إلى الكتاب والسنة، فإن هناك بعض الأمور والتطبيقات التي اختلفت فيها، والتي يمكن أن تلخصها في النقاط التالية:

أولاً :

أمن زعماء الحركات الإصلاحية بفكرة المهدي المنتظر وتناولها بعضهم في مؤلفاته التي عمقت هذه الفكرة في نفوس الناس، حيث ألف الشيخ عثمان رسالة بعنوان : تحذير الإخوان من ادعاء المهدي الموعود بها آخر الزمان، وكان لهذه الكتابات أثر عميق في نفوس الناس حتى اعتقد أتباعه بأنه المهدي المنتظر. لكن الشيخ عثمان نفى عن نفسه هذه الفكرة في كتاب تحذير الإخوان، حينما قال: اعلّموا يا إخواني أنني لست المهدي المنتظر ولا ادعى المهديّة، واستنظر يقول: إن المهدي لا بد وأن يكون من سلالة آل البيت وأن مولده سيكون في المدينة المنورة. ولقد أثرت كتابات الشيخ عثمان عن المهديّة في أفكار الناس في دولة سكتو، وبرتو، حتى عندما ظهر محمد أحمد المهدي في السودان أبده الشعب الفولاني والقبائل العربية في جوبس البحر وبحيرة التشاد وفي بحر السلاطات وفي الإمارات الشرقية لدولة سكتو - بالإضافة إلى تعاطف أحد أحفاد الشيخ عثمان، ويدعى حباتو بن سعيد مع محمد أحمد المهدي، وادعائه المهديّة في دولة سكتو، وانتقاله إلى إمارة «أدماوة» ليكون على اتصال بمحمد أحمد المهدي في السودان.

كما امتدت آثار هذه الأفكار عن المهديّة إلى الحركة الإصلاحية في دولة ماسينا، حيث ادعى الشيخ أحمدو لوبو المهديّة وعمل على مجاهدة الأحيائيين بكل ما يملك من قوة، ووصل به الأمر إلى حد الانتساب إلى آل البيت النبوي الشريف. وأشاع تنبؤات تبشر بظهور المهدي وتنتهي له الأذهان في المجتمع الإفريقي.

كما أن الحاج عمر الفتوي قد تأثر بأفكار المهديّة التي شاعت في الحركات الإصلاحية الأخرى. وعلى الرغم من أنه لم يدع المهديّة فإن أتباعه كانوا يشيرون إليه بأنه مجدد الإسلام.

أما الشيخ الأمين الكافى فلم يتأثر بأفكار المهدية أو الطرق الصوفية التي شاعت بين الناس في عهده، الأمر الذي أدخله في نزاع مع الأمير محمد بيكو والحاج عمر الفتوى.

ثانياً :

تشابهت هذه الحركات الإصلاحية في ممارستها للطرق الصوفية باستثناء حركة الشيخ محمد الأمين الكافى، وكانت هذه الطرق رغم اختلاف وسائل عملها تسعى نحو غاية واحدة هي الارتقاء بالنفس البشرية إلى درجة الصفاء والطهارة وقد كان الشيخ عثمان بن قويدى والشيخ أحمدو لوبو من أقطاب الطريقة القادرية، واختلف عنهم الحاج عمر الذي ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالطريقة التجانية.

ثالثاً :

ارتبطت تعاليم المصلحين في الحركات الإصلاحية بعامل الهجرة التي اعتبروها أمراً ضرورياً من بلاد الكفر قبل البدء في جهادهم، وقد واجه المصلحون في دعوتهم وجهادهم الأحيائية والبدع والتقاليد الوثنية التي علقت بتعاليم الإسلام منذ قرون طويلة.

رابعاً :

اتفقت الحركات الإصلاحية، على ضرورة العودة بالإسلام إلى الكتاب والسنة، وهو ما نادى به الحركة السلفية في الجزيرة العربية بزعمارة المصلح الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وإذا كانت الحركات الإصلاحية في غرب إفريقيا قد اتفقت مع الحركة السلفية في بعض الأمور، فإنها قد اختلفت معها في أمور أخرى، نذكر منها: أن الحركة السلفية تأخذ بمذهب الإمام أحمد بن حنبل في المسائل الفقهية وتنكر الكرامات والتوسل، أما حركة كل من الشيخ عثمان والشيخ أحمدو، والشيخ محمد الكافى فقد أخذت بالمذاهب الأربعة وأعتبرتها أصلاً من أصول الدين، ولم تعارض الكرامات والتوسل، أما الحاج عمر الفتوى فقد اختلف عن زعماء الحركات الثلاث، حيث اعترض على التقاليد والمحاكاة وانتهج مبدأ الاجتهاد الشخصي، وعارض الكرامات، لكنه لم يعارض التوسل بالمصلحين.

خامساً :

تشابهت الحركات الإصلاحية في اعتمادها على عامة الشعب وانتعادت عن الحكام، ويرجع السبب في ذلك إلى أن المصلحين كانوا يسعون إلى إقامة الخلافة الإسلامية، وهو ما تحاربه السلطات الحاكمة التي كانت تفرق الدين بالبدع والتقاليد الأحيائية وتقف ضد كل محاولة جادة لتطبيق الإسلام.

الفصل الثامن

حركة محمد أحمد المهدي (ت ١٣٠٢هـ / ١٨٨٥م)

ولد محمد أحمد المهدي في جزيرة لبيب بمنطقة دنقلة سنة ١٢٦٠هـ / ١٨٤٤م. في بيت ينسب إلى أسرة تعرف بالاشراف وكانت لهذه الأسرة شهرة علمية محلية. وقد هاجرت هذه الأسرة بعد مولد محمد أحمد بقليل من موطنها الأصلي، إلى كرري شمال مدينة أم درمان، وقد مات والد المهدي بعد عام من انتقاله وكذلك توفيت والدته بعد عام من وفاة والده. في تلك الأثناء كان محمد أحمد قد بلغ سن التعليم، فذهب إلى خلوة الشيخ الهاشمي بالقرب من كرري وبقي فيها سبع سنوات حفظ القرآن الكريم فيها وتجويده ثم درس التفسير والحديث والفقه واللغة على يد الشيخ محمود الشقيطي، والشيخ الأمين الصويلح. ثم تتلمذ على الشيخ محمد الضكير عبد الله خوجلي الذي عرف فيما بعد بالشيخ محمد الخير (١).

وقد أظهر محمد أحمد في هذه الفترة إخلاصاً شديداً للإسلام وتعاليمه واشتهر بين زملائه بالزهد والتقوى والجهد والمثابرة والقول السديد... كان شيخه محمد الخير يتقاضى مرتباً من الحكومة المصرية تجزئه عليه كل شهر وغده ببعض العون شأنها مع أمثاله من المشايخ والفقهاء.. ويحود عليه المخبرون ببعض المال تشجيعاً للعلم، ولكن راتب الحكومة المصرية في نظر محمد أحمد المهدي حرام، لأنه مال جمع من الفقراء والمساكين بطريقة لا يرضاها الله ويوسائل لا تنفق والعدل. إذ يجب عليه ألا يمد يده إلى طعام جاء من حرام، وينتهي به الأمر إلى الخروج إلى الغابة لقطع الأخشاب وجمع الحطب وبيع ما يقدر على حمله منها في السوق، ويأكل ببعض ثمنه ويتصدق بالباقي كله على الفقراء والمساكين. فإذا تعذر عليه الاحتطاب من الغابة لسبب من الأسباب خرج إلى النيل لصيد الأسماك وأنه لا يتورع أن يضع في صنارته طعاماً حتى لا يخدع السمك الذي يحوم حولها في الماء، أن السمك مخلوق من مخلوقات الله فلا ينبغي لأحد أن كان مسلماً حقاً أن يخدع هذه المخلوقات، وإذا كان الله قادر له رزقه فليكن بطريق غير التحايل والخداع.

ويعلم شيخه محمد الخير بقصة عزوفه عن طعامه وقطعه الأخشاب في الغابة وخروجه لصيد الأسماك وتورعه عن خداعه، فيستدعيه ويضمه إليه حياً واكباراً، يعرض عليه قائلاً: «يا بني انني ورثت عن آبائي هذه الساقية وتلك الأرض وانني لأقتات وأهلي منها، وانك لتوليقي فضلاً

(١) الدكتور عبدالودود شلبي: الأصول الفكرية لحركة المهدي، ص ١٨.

وخلق بالملاحظة، انه ليس ضرورياً ان يعلن الرجل المختار لهذه المهمة عن نفسه. الأنبياء والرسل هم الذين يعلنون عن دعوتهم لأن من طبيعة النبوة، الاعلان والتبشير والانتشار حتى لا تكون للناس على الله حجة. وطبيعة المهدي تختلف عن طبيعة النبوة. فالمهدي حركة أخصا وتجديد. وقد لا يعرف المرشح لهذه المهدي انه المهدي نفسه.

يقول العلامة أبو الاعلى المودودي:

«ان العالم يشاهد رجلا تقتل فيه صفات الكمال الخلقى. وزعيما تجسدت فيه آمال البعث والاصلاح الدينى. وقائدا غير بضغبات نادرة قلما تجتمع في شخص عادي. وعلى ضوء ما يقوم به هذا الامام الجليل من عمل ويفكر ما يحققه للاسلام من عزة، وبالمقارنة بين عصره وبين ما كان قبله من فساد وطغيان وظلم، وما تحقق على يديه وفي عصره من اصلاح وصلاح وعقل، يعرف الناس انه الرجل المنتظر والمهدي الذي يعم عدله جميع البشر» (١).

ومن الواضح ان هذا الرأي لا يتعارض مع المفهوم السننى لشخصية المهدي. فالمهدي عند أهل السنة ليس شخصا معينا، ولا معروفا، وقد كان محمد أحمد المهدي السوداني سنيا مالكيًا، وحتى لو تجاوزنا حدود الدائرة المقيدة بالتصور السننى لشخصية المهدي، الى الدائرة الأخرى المقيدة بالتصور الشيعي، فلن يفيد ذلك شيئا بالنسبة لمهدي محمد أحمد، كان المهدي المنتظر عند الشيعة معروفاً اسما، ومعروفاً شخصا وينتظرون فرجه قريبا، وهو بالتأكيد شخص آخر غير محمد أحمد السوداني (٢).

محمد أحمد اذا لم يكن هو المهدي المنتظر الذي تحدثت عنه الكتب والروايات، واذا لم يكن هو المهدي المنتظر فما الذي جعله مصراً على موقفه هذا حتى الرمح الأخير؟

في نظرنا ان هذا الموقف يرجع الى ثلاثة عوامل رئيسية لعبت دورها في مهدي محمد أحمد، هذه العوامل منها ما هو شخصي خاص، ومنها ما هو فكري عام. أما الجانب الفكري العام فيتمثل في فساد الأوضاع الداخلية التي كان يعاني منها السودان على النحو الذي ذكرناه آنفاً. وقد شاهد محمد أحمد فيما شاهد حريات مقتصبة واملاكا منهوية وارواحا مهذرة وبلادا مغربة من قبل حكام كان اسلوبهم في الحكم موسوماً بالتحدي حتى تصور الناس ان الحكومة تريد بهم شرا ويدبتهم. وكان من عادة محمد أحمد ان يخرج سائحا مع بعض اصحابه لدعوة الناس، وقد جال في جميع البلاد ورأى بعينه، وجد الناس عامتهم وخاصتهم - على الحكومة، وشدة رغبتهم في التخلص منها حتى كان الكثيرون ينتظرون ظهور المهدي الموعود لانقاذهم من الحال التي كانوا

(١) أبو الاعلى المودودي، موجز تجديد الدين وأحيائه، ص ٦١ - ٦٢.

(٢) المهدي المنتظر عند الشيعة الامامية (الاثنا عشرية) هو محمد بن الحسن العسكري المختفي في سرداب الى ان يبعث وقت ظهوره.

الشيخ وتلميذه. فقد وقع بينهما خلاف عميق في سنة ١٢١٥هـ/١٨٧٨م. ثم تطور الخلاف الى عدا، شدد وطرد محمد أحمد من الطريقة السمانية التي يتزعمها الشيخ محمد شريف.

وقد اختلفت الآراء والاقوال في تفسير اسباب هذا الخلاف وتعليله

فالشاعر البصلي يذكر قولاً منسوباً الى الشيخ محمد شريف: «يان سبي العدا، بينه وبين محمد أحمد مرجعه الى انه قد نهاه عن دعوته بالمهدية. وتوفيق أحمد البكري يذكر سبباً آخر للخلاف. يعود في حيلته الى انكار محمد أحمد على شيخه حفلة اقامها في بيته بمناسبة ختان أولاده. رقصت فيها النساء وتقرت فيها الدخول وكل ما يصاحب ذلك من اللهو والمجون والشرب. لقد ندد محمد أحمد بكل ما رأى وطلب من مريديه واحبابه ألا يشتركوا فيه. وقال ان الشريعة تمنع ذلك وليس في وسع أحد اجازة المنكر ولو كان اماماً وشيخاً طريفة».

وقد ذكر انصار محمد أحمد رواية أخرى لتعليل المفضة والقطيعة بينه وبين استاذة. فهم يقولون: «انه الحقد والحسد.. وانصرف الناس عن الشيخ محمد شريف. وقد رأى محمد شريف نفسه اقبال الناس على محمد أحمد اقبالاً لا يجد مثله فسا» ذلك جداً. واخذ يعمل على الخفض من سطوة محمد أحمد. وعين أحد المشايخ ندا له في المنطقة التي يسكنها. فطلب من الناس اتباع هذا الشيخ. فأنكر محمد أحمد على شيخه محمد شريف هذا التصرف (١١).

لقد كان اعتراض المهدي على شيخه بسبب ما رآه من منكر في بيته أمراً يتفق تماماً مع نشأته وتربيته. ثم ان هذا التصرف من المهدي تجاه شيخه يؤيده ما وقع قبل ذلك مع استاذ الشيخ محمد الخير حيث اعترض عليه بسبب تقاضيه مرتباً من الحكومة كان يعطى لثله من العلماء. وشيوخ الطرق الصوفية.

ولقد شعر الشيخ محمد شريف بعد هذه الحادثة بأنه دون تلميذه تقى وورعاً، وأخص في الوقت نفسه بأبول نجمه ويزوغ نجم تلميذه في افق الصوفية واجتذابه الناس اليه. فذب في قلبه بسبب ذلك ديب الحمى وشعر بالخطر الذي يتهدد مركزه. انها مأساة البشر في كل عصر وهي مأساة تضطرم فيها النوازع وتتضارب فيها الدوافع وتختلف حولها الاسباب والدواعي. وهي مأساة تبلغ قممتها حين تكون بين شيوخ في طريقة أو فقهاء. أو علماء. في مذهب انها النفس الامارة بالسوء. الا ما رحم ربي واستقام على جادة الحق.

وسواء أكان هذا السبب أم ذاك فإن الشيخ القرشي أحد مشايخ الطريقة السمانية المناوئين للشيخ محمد شريف قد اجتذب اليه محمد أحمد واکرم وفادته وإشاع ان محمد أحمد قد انفصل عن شيخه الذي خالف الشريعة الاسلامية.. وتعلق محمد أحمد بشيخة الجديدي الذي جدد له العهد. وتعلق به شيخه تعلقاً عظيماً. وقد عزز الشيخ القرشي ذلك بأن زوجه ابنته «النعمة» (٢).

(١١) الدكتور محمد ابراهيم ابو سليم: الحركة الفكرية في المهدية، ص ١٥.

(٢) الدكتور محمد ابو سليم: المرجع السابق، ص ١٦.

وفي تصورنا ان هذا الخلاف بين محمد أحمد وشيخه محمد شريف، كانت له آثار بعيدة في حياة محمد أحمد وقيامه بحركته فيما بعد. فقد خرج منه منتصرا، واستدعاء الشيخ القرشي مرحبا، ومحمد أحمد بشر، لقد بدأ يشعر بأهميته في نظر نفسه، كما بدأ يشعر بحب الناس والتفافهم حوله. كان لكل هذه العوامل اثرها في تصرفه وتصوره وفي حرية فكره وعمله وفي الترحيب والانتهاج بكل ما يشيعه الناس عن كراماته وولايته.

ظهور المهدي المنتظر في السودان:

بروى ان الشيخ القرشي الذي كان قد بلغ التسعين من عمره هو صاحب فكرة المهدي وأنه هيا ذهن محمد أحمد لها، فقد ذكر قبل وفاته بقليل: «ان زمن ظهور المهدي المنتظر قد حان وان الذي يشيد على ضريحى قبة ويحرق أولادي هو المهدي المنتظر».

وتوفي الشيخ القرشي في أواخر سنة ١٢٩٧هـ / ١٨٨٠م فلما سمع محمد أحمد بوفاته وقد الى (الحلاوين) بتلاميده، وشرعوا ببنون قبة فوق قبره، وحقن احوال الشيخ القرشي، واخذ العهود من المريدين. وفي اثناء ذلك اثناء رجل من بلاد الغرب، وقال له: «يا سيدي أنا عبد الله بن محمد ود تورشين، من قبيلة التعايشة وقد سمعت بصلاحك في بلاد الغرب، فجئت لأخذ الطريقة عنك وكان لي أب صالح من أهل الكشف، وقد قال قبل وفاته: انك ستقابل المهدي وتكون وزيره، وقد اخبرني بعلامات المهدي وصفاته، فلما وقع نظري عليك وأيت فيك العلامات التي اخبرني بها والذي بعينها، فابتهج قلبي برؤية مهدي الله وخليفة رسوله».

وما اسرع النفس البشرية الى التثبث بأمثال هذه الآمال في أوقات الازمات.

كان محمد أحمد مشغولا - منذ خلاقه مع شيخه محمد شريف - بالدعوة الاسلامية ولقت نظر الحكام والعلماء الى المقاسد الاجتماعية وابتعاد الناس عن العقيدة الاسلامية الصحيحة وتوافقهم على البدع واجتماعهم عليها. وفي منتصف سنة ١٢٩٧هـ / ١٨٨٠م بدأ محمد أحمد يعمل لبناء مجتمع اسلامي جديد، على غرار المجتمع الذي اقامه الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته، على ان يبذل جهده في أول الامر على بناء نواة له في منطقة نائية عن العاصمة. وفي هذا الوقت قام محمد أحمد بزيارة موقفة الى «كردغان» حيث زار العلماء ورؤساء القبائل والقرى واعيان البلاد ووثق صلاته بهم، وقد تركت هذه الزيارة آثارا واضحة في الاوساط الشعبية، وفي طريق عودته من الابيض مر محمد أحمد ببعض زعماء القبائل ووجد عندهم ترحيبا عظيما بدعوته، وقد استطاع ان يهيئ الاذهان لتقبل المهدي عند اعلائها، وكان الناس على استعداد لتصديق هذا الامر واتباعه لكثرة ما اصابهم من ظلم وما لحقهم من أذى، ولأنهم كانوا قد بلغوا نهاية القرن. وقد شاع ان القرن الهجري لا ينتهي قبل ان يأتيهم المنقذ الموعود. وفي غرة شعبان سنة ألف ومائتين وثمان وتسعين من الهجرة الموافق ٢٩ جوان سنة ١٨٨١م اعلن محمد أحمد بن عبد الله الى الفقهاء ومشايخ الطرق الصوفية والاعيان ورؤساء القبائل

والعشائر انه «المهدي المنتظر» الذي سيملا الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا وظلما. وقد كتب المهدي الى كثير من معارفه والى من يثق فيه مبشرا باهم مهديته قائلا: «وحيث ان الامر لله والمهدية ارادها الله لعبده الفقير الدليل محمد أحمد المهدي بن عبدالله، فيجب بذلك التصديق لإرادة الله». وقد اخبرني سيد الوجود محمد صلى الله عليه وسلم: بأن من شك في مهديته فقد كفر بالله ورسوله. كررها ثلاث مرات بقطعة في حال الصحة، وأنا خال من الموانع الشرعية لا يتهم ولا يجذب ولا سكر ولا جنون. بل متصف بصفات العقل، اقفز أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالامر فيما أمر والتبني فيما نهى عنه... وليكن معلوما عندكم أنني من تسل رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبي حسني من جهة أبيه وأمه، وأمي كذلك من جهة أمها. أما أبوها فعباسي والعلم لله بل ان لي نسباً الى الحسين رضي الله عنه» (١٦).

وقد لقيت دعوة المهدي نجاحا كبيرا. كان دون ربب لحالة البلد الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية يد كبيرى فيه. فقلوب الناس منفتحة ونفوسهم عطشى وقد عمهم الفقر والظلم والبلاء، والفساد، حتى لم يعد في النفوس الصابرة منزع لمضطرب.

فأقبل عليه الرعاء وشيوخ القبائل ميايعين قائلين: نبايعك على المهدية، وان لم تكن مهديا نبايعك على قتال الحكومة وخلع طاعتها. لقد صدق الناس خاستهم وعانتهم دعوى المهدي وهم لا يشكون ان من مات في سبيله فتصيه الجنة حتى صاروا يسمنون الموت ويتادون عند رؤية القتال، الجنة الجنة...

انه المهدي المنتظر الذي سيملا الدنيا عدلا بعد أن ملئت جورا وظلما... وماذا ينقص محمد احد من هذه الصفات التي وردت في الاحاديث المنسوبة الى النبي عن أوصاف المهدي؟! انه عالم، وصالح، وشريف النسب، كما انه أفرق الثنايا، على خذ خال. واسمه محمد، واسم ابيه عبدالله، وبينه وبين الرسول شبه في اليتيم، وفي كفالة أخيه الاكبر له بعد وفاة والده وقد سمى احدى زوجاته عائشة وكانها بأمر المؤمنين. فمن ذا الذي لا يتقدم بعد ذلك ويباع؟ ومن ذا الذي تسول له نفسه التكويس عن الدخول في طاعة امام الزمان ومهديه المنتظر؟ ومن لم يبايع طوعا بايع كرها... ومن لم يبايع بهذا او ذاك بايع طمعا، وقد أورد سلاطين باشا صيغة هذه المبايعه في كتابه «السيف والنار في السودان» بنصها الآتي:

«بسم الله الرحمن الرحيم، بايعنا الله ورسوله، وبايعناك على توحيد الله ولا نشرك بالله شيئا، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نأثمى البهتان ولا نعصيك في المعروف، بايعناك على زهد الدنيا وتركها، والرضا بما عند الله رغبة بما عند الله والدار الآخرة، وعلى الانف من الجهاد» (٣).

وباعلان محمد أحمد المهدي مهديته الى الناس قام بزيارة ثانية الى اقليم كردفان، وفي هذه المرة جدد صلاته مع الرعاء والعلماء ووضع الاحلاف والروابط الوثيقة بيته وبين الطوائف الناقصة

(١١) ابراهيم فوزي: المرجع السابق، ص ٨٥.

(١٢) سلاطين باشا: المرجع السابق، ص ١١٩.

على الوضع في البلاد ، وبعد عودته من رحلة كردفان بدأ محمد أحمد المهدي بإشراك المخطوفات العسيلة لإعلان الجهاد في سبيل الله. فقد شرع المهدي يكتب النشرات لأتباعه والكافة الطوائف وأصا أباهم للجمع في « جزيرة أبا » وجعل شهر رمضان ١٢٩٨هـ / ١٨٨١م. موعداً لهم. وكان هدفه هو الهجرة من جزيرة أبا إلى « قدير » بعد شهر رمضان مباشرة ، ويلاحظ أن المهدي قد اختار هذه الفترة بالذات لبدء هجرته لأنها موسم الأمطار الذي لا تسهل فيه مطاردة الحكومة في حين يجد هو وأنصاره الماء أينما حلوا.

ولكن وقت الحكومة على ما يهدف اليه المهدي وتأكد لديها ما كانت تستعده ، فوجه رؤوف باشا الحاكم العام للسودان حملة للقضاء على المهدي في جزيرة أبا بقيادة أبي السعود العقاد. وقد بلغ أبو السعود « أبا » في ١٦ رمضان ١٢٩٨هـ / ٢ أوت ١٨٨١م. ووقعت الواقعة الأولى بين قوات الحكومة وبين أنصار المهدي وكان النصر فيها لحليف المهدي وأنصاره ، وقد كان لحملة أبي السعود وترقب حملات أخرى مفعول قوي في نجاح الهجرة.

وفي اليوم التالي لواقعة « أبا » عبر المهدي وأنصاره النيل إلى الغرب وقد اتخذت الحكومة إجراءات سريعة للحيلولة دون وصولهم إلى حبال النوبة والقبض على المهدي. فأعدت مطاردة بقيادة محمد سعيد والي ولاية كردفان. ولكن المطاردة فشلت بفضل موالاته الأهالي للمهدي ومعانزة عسا. القبائل له. وفي ٧ من ذي الحجة ١٢٩٨هـ / الموافق أول نوفمبر ١٨٨١م. وصل المهدي جبل « قدير » ورحب به سلطانها ناصر.

وهكذا دفعت الحملة الحكومية بعجلة المهديّة إلى الامام. وكان للهجرة موقعها من الناحية العقائدية. ذلك لأن بعض الأقوال الواردة عن المهدي المنتظر تدعي إلى أنه يظهر في جبل ماسا بالمغرب. وقد زعم المهدي أن بجبال « قدير » جبلا يسمى ماسا وأنه هاجر إليه بأمر من الرسول صلى الله عليه وسلم ومن هنا حاول أن يربط هجرته بعلامة من علامات المهديّة.

وفي قدير وضع المهدي المخطوط الأولى لتنظيماته ، فعين له رجالا في المناطق التي دخلت في طاعته وسماهم الخلفاء. وأرسل آخرين إلى أطراف البلاد ليعظوا الناس ويقودوا الحركات الإصلاحية. أما الجيش فقد تقسم إلى ثلاث وحدات كبيرة ، كانت الأولى هي الراية الزرقاء بقيادة الخليفة عبدالله. والراية الخضراء. وهي راية الخليفة علي الحلو. والراية الحمراء. راية الخليفة محمد شريف. وكانت هناك الراية البيضاء. وهي راية القيادة العامة التي حملها أخوه محمد عبدالله. وقد جعل لكل خليفة وكيلا في الراية. وقد أنشأ في قدير بيت المال وجعل عليه أحمد سليمان المحسني وعين أحمد جبارة قاضيا للإسلام. وأحمد ولد الامام الحلاوي أمينا للسلاح. كما أنشأ إدارات أخرى لتسيير الأمور المختلفة. وقد وجهت الحكومة عدة حملات للقضاء على المهدي وأنصاره. ولكن المهدي كان ينتصر عليها ويستولي على الذخيرة والعشاء. وقد سرت أنباء الانتصار على طول البلاد وعرضها ، فازدحمت الدروب وامتألت الطرق بالآلاف التي تقصد المهدي.

المهدي يزحف. . . وسلطان الحكومة يتلاشى ويضعف. والمخطوط العاصمة قارب فوسين أو أدنى

من السقوط في يد الانتصار.. ولقد انطرت القاهرة الى تفسير حكامها في السودان.. ذهب
وذهب باشا ليحل مكانه عبدالقادر حلي باشا، وذهب عبدالقادر باشا لمحلي، من بعده الجنرال
غردون باشا.

وحدا لابد من ولقة تنسج فيها اسباب هذا التفسير والمحلي، بالجنرال غردون الانجليزي لقيادة
الجيش وتسيير الامور..

كانت الثورة العربية ١٨٨٢م في مصر قد أجهشت، وحكم على عرابي ورفاقه بالنفي وسبق
العلماء والرعايا الى المحاكمة لتأييدهم « عرابي ١٨٤١ - ١٩١١م » لقد أصبحت مصر في عام
١٨٨٢ من ممتلكات التاج البريطاني، والانجليز يهتمون استقرار الامور في المستعمرات، وما دام
في السودان حركة اسلامية فستبقى مصر في خطر من هذه الحركة، وقد اجتمع المسؤولون
البريطانيون في القاهرة على أن آخر انتصار للمهدي هو بالفعل تهديد لمصر، وأن التهديد سيزداد
في حالة وقوع الخرطوم في يده. واستمر رأي حكومة لندن على تكليف الجنرال غردون بالمهمة.
فقد عمل غردون في السودان قبل ذلك في عهد الحديوي اسماعيل باشا الذي تولى حكم مصر
امن ١٨٦٣ الى ١٨٧٩م.

وفي أول لقاء له مع القناصل والرعايا والعلماء والاعيان في الخرطوم يعلن مهمته الى الناس
ويقول: « ان السودان قد فصل عن مصر فصلا تاما، وقد جئتكم حاكما مفوضا عاما، فجعلت
من محمد أحمد المهدي سلطانا على ولاية كردفان، وألغيت الاوامر الصادرة بمنع تجارة الرقيق، ثم
بيعت الى المهدي بهدية هي جبة من جوخ، وقفطان حرير ومركوب احمر، وشال من كشمير.. »

ماذا يمكن ان يقال في وصف هذا الرجل؟.. انه ذهب الى السودان حاكما عاما باسم مصر،
يبدأ عمله باعلان فصل السودان عن البلد الذي يعمل موظفا لحسابه ويتقاضى اجره من قوت
شعبه ويحارب بسلاحه وجنده... انه اللؤم الاستعماري عرفناه، وبلىنا بشره، غير أن المهدي لم
ينخدع بما قاله غردون، لقد رفض كلية مضمون هذه الرسالة ووقع رده على رأس غردون
كالصاعقة.

وقد كتب محمد أحمد المهدي الى الحديوي توفيق بن اسماعيل (١٨٥٢ - ١٨٩٢م) ما كان
يحسن منك ان تتخذ الكافرين أوليا، من دون الله وتستعين بهم على سفك دماء أمة محمد صلى
الله عليه وسلم، ألم تسمع يقول الله عز وجل « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى
أوليا، بعضهم أوليا، بعض ومن يتولهم منهم فانه منهم ان الله لا يهدي القوم الظالمين » (١).
كما كتب الشيخ مصطفى أمير « شمبات الغرب » المجاورة للخرطوم، واحد أمراء المهدي الى
الخوا، محمد نصحي باشا أحد قادة الجيش المصري في أثناء وجوده في « شندي » قائلا: « انه لا
يليق بكم ان تجعلوا امامكم غردون الكافر وتذكروا عدوان الانجليز عليكم وما جرى لعرابي

(١) سورة المائدة، الآية ٥١

معهم. ان الانجليز اخذوا الملك من المهدوي وسبوه جسا بلا زوج واستلموا مصر، ونحن وأنتم
إخوان في الدين ولا يجوز لكم ان تتعصبوا في الفكر على المسلمين فالتاس كلهم اخوان في
الدين ولا عدو لي الا الكافر». وبعد محي - غردون الى الخرطوم انتشرت المهدية في شمال
السودان. وقد اقلع دعاة المهدي بالفعل في احتلال مدن كثيرة واكمل المهدي استعداداته وخرج
من الابيض زاحفا الى الخرطوم، وفي ٢٧ جانفي ١٨٨٥م نجح الانصار في هجومهم على المدينة
واحتلوها وسقوط الخرطوم ومقتل غردون، انصرف المهدي ومساعدوه الى العمل والتنظيم
الاداري. وقد اقبل المهدي بحزر المنشورات وعبد النظر في بعض محبراته السابقة محاولا
استجماع نظرياته وآرائه وتحديد اهدافه البعيدة وتقريبها الى اتباعه. وقد انتقل الى ام درمان
بالجانب الغربي المواجهة للخرطوم وسماها البقعة المباركة جريا على عادته في كل مكان يستقر به.
وكانت هناك تحركات سريعة في الصعيد الاقليمي، فقد ارسل المهدي حمدان أبو عنجة على
رأس قوة كبيرة الى جبال النوبة، وارسل محمد عبدالكريم وقواته الى سنار، وارسل وفدا مكونا
من ثلاثة رجال لياشروا احتلال «كسلا» حسب رجاء اهلها، وفي الشمال تدب محمد الحخير
للرحف على دنقلة وفتحها.

وفي صعيد العلاقات الخارجية راسل المهدي حديوي مصر وأهل وعلما مصر، واميراطور
الحبشة وسلطان مراکش وقاس ومالي وشنقيط، وكان قد خاطب السنوسي في ليبيا، وحياتوين
سعيد في سكتو من قبل، وقد جاء وفد من الحجاز في اواخر ايامه فعين لهم عثمان نورالدين
والي الحرمين عاملا على الحجاز.

وفي أواخر شعبان سنة ١٣٠٢هـ/جوان ١٨٨٥م. وجه المهدي خطابا الى انصاره يختمهم فيه
على الاقبال على الله وترك المعاصي والاعراض الدنيوية والا يتصل به أحد لسان من شؤون
الدنيا، ومن ثم دخل الخلوة وأقبل على العبادة، وقد كان ذلك بمثابة دواعي نهائي للدنيا ومشاكلها
اذ قد اصابه المرض بعد ايام، ثم افضى به الى الموت في الثامن من رمضان سنة ١٣٠٢هـ/٢٢
من جوان ١٨٨٥م. وفي نفس اليوم آل الأمر الى الخليفة عبدالله التعايشي الذي اتخذ لقب خليفة
المهدي. ولم يكن هناك اعداد سابق متفق عليه لمن سيخلفه، ولكن ظروف الوفاة غير المتوقعة
والنفوذ الواسع الذي كان يتمتع به الخليفة عبدالله وضعف الاشراف وعدم استعدادهم قد سهلت
له الامر.

وكان الخليفة عبدالله يختلف عن محمد أحمد المهدي، لم يكن عالما ولم يكن ليرتقي الى
شيء مما وصل اليه الا لكونه مريدا وصديقا مخلصا للمهدي وبالتالي فانه كان يقتصر الى عنصر
القداسة التي كانت تربط بين المهدي والجماعات البشرية المتناصرة، وقد بدأ يفرض على القبائل
هجرات جماعية الى العاصمة، كما أنه صار يعتمد اعتمادا كبيرا على اقرائه، وعشيرته، وفي

الصعيد النظري قدم الخليفة حججا كثيرة يدلل بها على استمرار العون الالهي وكونه حائزا على البركات، وركز القول على الورثة المصطفوية (١١).

وقد احتج هو وكبار الانصار بأن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم - قد تابعوا الفتوحات ونشروا الاسلام بعد وفاة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وهو امر يطابق ما هم يصعد القيام به، كما ان الخليفة عبدالله ظل ينشر على الناصر احوال المهدي عن مكانته ونفوذ له واكباره فقامه واجلاله.

وفي نفس الوقت فان وفاة المهدي قد اقتربت بانتها « دائرة الفتوحات المتوقعة في انحاء السودان، وجعلت الانصار يسألون انفسهم عن المهدي التي ثاروا من أجلها وسحشون عن النتائج، وقد اختلف الناس في هذا الموضوع اختلافا في المشارب ومطالب الحياة، وقد تصور كل فرد ان المهدي لابد أن تعالج مشكلته وأن تغطي على مظلمته الخاصة وتأتيه بكل مطالبه كان هناك من ينتظرون العدل المطلق، وكان هناك من ينتظرون رغد العيش، وصاحب الارض الذي تحجز أرضه بسبب جور الترك، ظن ان العدل ان تعاد اليه أرضه، والتاجر الذي تظلم من فساد الضرائب تصور أن رفع الضرائب هو العدل، وباختصار فان الدوافع الذاتية والمطالب المتعددة قد بدأ البحث عنها، انها وقفة يسأل فيها الانسان عن نفسه وسط الزحام..

وفي عهد الخليفة عبدالله اشتد التنافس الدولي حول افريقيا، وقد واجه الخليفة الانجليز والمصريين من الشمال والشرق وواجه الايطاليين من اتجاه اريتريا، وجاء الانجليز من أوغندا، والبلجيكيون والفرنسيون من الجنوب الغربي. اما صراع الخليفة مع الاحباش فقد كان امتدادا للصراعات المحلية، ولم يكن طرفا في التنافس الاوروبي. وفي الحدود الغربية ورت الخليفة مشكلات الحدود، والعلاقات بين دارفور ومملكة وادي.

وفي سنة ١٨٨٩م ظهر شخص يدعى خلافة عثمان بن عفان، وهو المعروف بأبي حمزة وخلق للخليفة متاعب كثيرة وأوشك ان يفوز بولاية دارفور لولا وفاته المفاجئة وهزيمة أتباعه من بعده. وقد كان هذا المنصب قد عرضه محمد أحمد المهدي على «محمد المهدي السنوسي» زعيم الحركة السنوسية في ليبيا، فرفضه السنوسي ولكن دون أن يبعث اليه ردا مكتوبا، ومن هنا ادعى أبو حمزة انه مكلف من قبله لمحاربة المهدي، وعلى العموم فان اعتقاد الناس بظهور النبي عيسى عليه السلام بعد المهدي قد مهد للكثيرين بادعاء هذا المنصب وخلق متاعب جمة للخليفة عبدالله.

ولقد استتب الامر للخليفة داخليا ولكن كانت المخاطر من الخارج تزداد سوءا. ففي سنة ١٨٨٩م تمكن الجيش المصري بقيادته الانجليزية من وقف غزو الانصار بقيادة عبدالرحمن

(١١) الورثة المصطفوية تعني: الورثة المهدي والاسوة النبوية والحماية الالهية - والمقصود بها - هو النطاق بين المهدي والرسول في الخلق والسيرة والتصرف والتدريج زمن الثاني من الاول وموافقة الاحكام، والنقطة الهامة هي موت النبي وقيام الصحابة بعده بالفتوحات ونشر الاسلام، وبالتالي فان المهدي مستمرة ولم تقف بوفاء المهدي وسيقوم اصحابه بقيادة الخليفة عبدالله بالفتوحات في الدول المجاورة.

النجمي لمصر، ولاسياب كانت تتطور على الدوام في الداخل والخارج، استمر التدهور، وأخيرا سقطت العاصمة أم درمان في ٢ من سبتمبر سنة ١٨٩٨م. وقد تمكن الخليفة عبدالله وبعض وزياته وقواده من مغادرة المدينة في نفس اليوم قبل دخول الجيش المصري الإنجليزي، وظلوا يقاومون الحكم الجديد حتى لقي الخليفة عبدالله مصرعه في واقعة «أم سينكرات» في ٢٤ من نوفمبر سنة ١٨٩٩م. وبذلك انتهت دولة المهدي ذات البريق اللامع في تاريخ السودان (١).

هل كان محمد أحمد هو المهدي المنتظر حقا؟

إن المهدي المنتظر كما تصفه الأحاديث بملاً الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً وظلماً، ويولد من نسل الحسن أو الحسين رضي الله عنهما، ويخرج وعلى رأسه ملك ينادي: «إن هذا هو المهدي قاتبعوه». ويكون لمهديته آياتان لم تكونا منه خلق الله السماوات والأرض، بحسف القمر في أول ليلة من رمضان، وتكسف الشمس في النصف منه، مولده في المدينة المنورة ومهاجرته بيت المقدس، ويظهر في مكة المكرمة عند صلاة العشاء، ومعه راية رسول الله صلى الله عليه وسلم وبردته وسبقه، وينابيع بين الركن والمقام، وتفتح على يديه مدينة الفسطينية وغيرها من المدن الكبرى، وجهه كأنه كوكب دري، وشبه في خلقه واسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتنعم به الأمة نعمة لم تنعم مثلها، ويحس المال بيديه حباً، ولو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطوى الله ذلك اليوم حتى يظهر وبلي (٢).

هل تتحقق شيء من ذلك؟ «نستمع أولاً إلى ما يقوله محمد أحمد المهدي: «لقد ذكرني حضرة من حضراته: أن الرسول محمداً صلى الله عليه وسلم طلب من عزرائيل قائلاً: من هذه الليلة اصحب المهدي لا تفارقه، وهذه الليلة المذكورة التي حصلت فيها هذه الحضرة - غرة شعبان سنة ١٢٩٨هـ. ليلة الأربعاء - ثم تلا لنا - أي النبي صلى الله عليه وسلم - جميع الأحوال دخول مكة ومنازعة أهلها ومبايعة الضعفاء والغرباء أولاً، ثم مبايعة الشريف سلطان مكة وجميع أشرفائها معه (٣).

ونقول المهدي في رسالته إلى الخديوي توفيق: «ويشترني سيد الوجود صلى الله عليه وسلم، بالنصر على من يعاديني، وبأن من يقصدني بعداوة يخذله الله في الدارين وقلذني سيف النصر».

(١) الدكتور محمد إبراهيم سليم، المرجع السابق، ٣٧ - ٣٨.

والدكتور عبدالودود شلي، المرجع السابق، ص ١٦١ وما بعدها.

(٢) راجع في هذا الموضوع:

- صف ابن ماجه، الجزء الثاني، الحديث رقم ٤٠٢٢، ٤٠٨٣.

- سنن الترمذي، الجزء الرابع، الحديث رقم ٢٢٣٢.

- سنن أبي داود، الجزء الرابع، الحديث رقم ٢٢٨٤، ٤٢٨٤.

- مسند الإمام أحمد، الجزء الثاني، الحديث رقم ٦٤٥، ٧٧٣.

(٣) الدكتور أبو سليمان: منشور الامام المهدي، ج ٢، ص ٢٧٨ - ٢٧٩.

وأخبرني أبي أملك جميع الأرض. وها أنا قادم إليك بجنود الله عن قريب، ولا يد من وقوعك في قبضتنا ولو كنت في بروج مشيدة».

وقد ذكر في رسالته إلى السنوسي: «ولا يزال التأييد يزود من الله ورسوله وأئمة - عنا علي بال حتى جاءت الأخبار فيك من النبي صلى الله عليه وسلم أنك من الوزراء في، ثم سارنا لتنتظر حتى أعلننا الخضر عليه السلام بأحوالكم، وها أنت عليه، ثم حصلت حضرة عيشة من فيها النبي صلى الله عليه وسلم خلفاً أصحابه من أصحابي فأجلس أحد أصحابي على كرسي أبي بكر وأدعهم على كرسي عمر وأوقف كرسي عثمان فقال: هذا الكرسي لأبي السنوسي إلى أن يأتيكم بقرب أو طول، وأجلس أحد أصحابي على كرسي علي رضوان الله عليهم أجمعين» (١).

حسنا هذا من النصوص، فسيد الأدلة - كما يقال - هو الاقرار والاعتراف، وقد اعترف محمد أحمد المهدي بأنه سيملك العالم، وأن سلطان مكة وإشرافها سيأبعون، وأنه سيخطف إلى مصر لازالة الخديوي توفيق عن عرشه، وأن النبي أخيراً يان السنوسي سيكون من وزراء وخلفائه. وخطورة الأمر في هذه القضية أن محمد أحمد المهدي ينسب أعماله وأقواله إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فهو لا يفعل شيئاً إلا بأمره ولا يصدر حكماً إلا بإذنه، وقد كان أساس مذهبته قائماً على هذه الصلة، ولم تكن تتواءم إلا أخباراً بما يقول أنه سمعه من الرسول أو بلغه، فإذا ثبت بالدليل والواقع أن هذه التنبؤات لم تصدق، وأن هذه التوقعات لم تتحقق أصبح الشك في أساس «مذهبته» قائماً والاساس الذي قامت عليه هذه المهدية متهاراً.

إن المهدي كما تقول الأحاديث والروايات مولده في المدينة، وقد ولد محمد أحمد في جزيرة «ليب» بأقليم دنقلة..

والمهدي يظهر بعد خسوف القمر في أول ليلة من شهر رمضان، وبعد كسوف الشمس في منتصفه، وقد أعلن محمد أحمد دعوته في غرة شعبان ١٢٩٨ هـ وجاء رمضان بعد ذلك من غير خسوف قمر ولا كسوف شمس..

والمهدي مهاجرة بيت المقدس، ويظهر في مكة عند صلاة العشاء ومعه راية رسول الله صلى الله عليه وسلم وبردته وسيفه، ويباع بين الركن والمقام، يبايعه الغرباء، ثم أمير مكة وإشرافها - كما يقول محمد أحمد نفسه - وقد مات رحمه الله قبل أن يرى مكة أو يهاجر إلى بيت المقدس.. والمهدي يحثي المال بيديه حثياً وتنعم الأمة به نعمة لم تر مثلاً أبداً ولم يكن الأمر كذلك مع محمد أحمد.

والمهدي يصلحه الله في ليلة - بعد أن لم يكن كذلك - ولو لم يبق من الدنيا إلا يوم لظول ذلك اليوم حتى يلي، وقد عرف عن محمد أحمد أنه نشأ صالحاً وعاش ورعاً، وكان في نقاء وزهده متشدداً..

(١) الدكتور أبو سليم: المرجع السابق، ج ٢، ص ٧١ وما بعدها.

والمهدي موعود ملك العالم. وقد أكد ذلك - محمد أحمد - نقلاً عن النبي. وقد عاش ومات داخل حدود السودان.

والمهدي بفتح القسطنطينية وغيرها من المدن. وقد توفي محمد أحمد قبل أن يحقق ليوحيه بالزحف إلى القاهرة لمخلع الخديوي توفيق وإراحة مصر والمصريين من ظلمه. وصحبه محمد أحمد يقول: أن النبي أخبره بأن السنوسي من ذرائع وخليفة عثمان بن عفان في ملكته. وقد مات محمد أحمد دون أن يتحقق شيء من هذا كله ورفض السنوسي حتى الرأه على رسالته.

وقد كان صوت محمد أحمد المقاضى. وقيل تحقيق ما وعد به من فتوح ومعارك باعثاً على الشك والريبة في أمره. وفي صحة دعوته ومهديته. وقد شعر بذلك أخلص الناس إليه. وكان أول صدى لهذه الجواهر الدينية والشكوك الكامنة. ذلك المنشور الذي صدر بتوقيع الخلفاء. يعلنون فيه مبايعة عبدالله التعايشي خليفة عن مهدي الله ورسوله:

« وكما أن النبي صلى الله عليه وسلم لما انتقل إلى الرفيق الأعلى قام بالأمر من بعده خلفاؤه الكرام وأصحابه. فكذلك خليفة المهدي عليه السلام فإن له به أسوة. فلذا يقوم بأمر الدين بعده خلفاؤه وأصحابه. حتى ينصر الله دينه. ويفتح على أيديهم من المداين ما لم يفتح الله في زمن المهدي عليه السلام ».

أما الشيخ اسماعيل الكردفاني. فقد كان أكثر وضوحاً في تعبيره حيث قال « ولا يطيق بك العطن. ويكب بك جواد القطن. فتكون في حيرة من فهم المراد من بشرى سيد الوجود للمهدي عليه السلام بأن الله يفتح له جميع البلاد. فنقول: قد مات المهدي عليه السلام وانتقل إلى دار الكرامة قبل فتح جميع البلاد. فاعلم أنار الله بصيرتنا وبصيرتك. أن المهدي عليه السلام هو خليفة الله في أرضه على خلقه. وأمينه على رعاية حقه. وقد علم أبناء البدو والحضر والقاطنون بالوير والمدر. أن ألوية الاسلام لم تنشر على يد أحد - بعد النبيين - أوفر ديناً واحداً يقينا من سيدنا محمد أحمد المهدي. وأن جميع ما يصدر عنه قولاً وفعلاً مؤيد بالكتاب والسنة. فليس قول من أقواله. ولا فعل من أفعاله. إلا وله شاهد من حديث النبوة والرسالة واشراق من مشكاة الانوار المصطفوية التي أخرجت الغزاة ».

وقد نقل عن الخليفة عبدالله التعايشي في هذا الشأن ما يلي:

« من زعم أنه ليس بالمهدي المنتظر حيث لم يستكمل الفتوحات فقد أخطأ طريق الحق. لأن

خليفته الأكبر منيع العرقان والتحقيق سيقوم بفتح ما لم يفتح في زمنه ».

غير أن هذه الآمال لم تتحقق. أدى الخلاف على ميراث المهدي إلى الفرقة والتمزق. وانفرد التعايشي بالسلطة ليصبح الحاكم المطلق. ولكن الانجليز لم يتركوه بهتاً طويلاً بهذا المنجد. فقد عادوا على رأس قوة مشتركة (الانجليزية ومصرية) لاحتلال السودان. وانتهى الأمر بمقتل التعايشي بعد تخريب بيته في أم درمان.

وخلق بالملاحظة، أنه ليس ضرورياً أن يعلن الرجل المختار لهذه المهمة عن نفسه.. الأسماء،
والرسول هو الذين يعلنون عن دعوتهم لأن من طبيعة النبوة، الاعلان والتشهير والافتخار حتى لا
تكون للناس على الله حجة، وطبيعة المهدي تختلف عن طبيعة النبوة، فالمهدي حركة أحياء
وتجديد، وقد لا يعرف المرشح لهذه المهدي أنه المهدي نفسه.
يقول العلامة أبو الأعلى المودودي:

«إن العالم يشاهد رجلاً قُتِلَ فيه صفات الكمال الخلقى، وزعموا تحدث فيه آمال البعث
والاصلاح الدينى، وقائدة تميز بصفات نادرة قلما تجتمع في شخص عادي، وعلى ضوء ما يقوم به
هذا الامام الجليل من عمل وتقدم ما يحققه للإسلام من عزة، وبالمقارنة بين عصره وبين ما كان
قبله من فساد وظلم، وما تحقق على يديه وفي عصره من اصلاح وصلاح وعدل، يعرف
الناس أنه الرجل المنتظر والمهدي الذي يعم عدله جميع البشر» (١).

ومن الواضح ان هذا الرأي لا يتعارض مع المفهوم السني لشخصية المهدي. فالمهدي عند أهل
السنة ليس شخصاً معيناً، ولا معروفاً، وقد كان محمد أحمد المهدي السوداني سنياً مالِكياً،
وحتى لو تجاوزنا حدود الدائرة المقيدة بالتصور السني لشخصية المهدي، الى الدائرة الأخرى
المقيدة بالتصور الشيعي، قلن بقيد ذلك شيئاً بالنسبة لمهدي محمد أحمد، كان المهدي المنتظر
عند الشيعة معروفاً اسماً، ومعروفاً شخصاً، ويتنظرون فرجه قريباً، وهو بالتأكيد شخص آخر غير
محمد أحمد السوداني (٢)».

محمد أحمد إذا لم يكن هو المهدي المنتظر الذي تحدثت عنه الكتب والروايات، وإذا
لم يكن هو المهدي المنتظر فما الذي جعله مصراً على موقفه هذا حتى الرمق الأخير؟

في نظرنا أن هذا الموقف يرجع الى ثلاثة عوامل رئيسية لعبت دورها في مهدي محمد أحمد،
هذه العوامل منها ما هو شخصي خاص، ومنها ما هو فكري عام. أما الجانب الفكري العام
فيتمثل في فساد الأوضاع الداخلية التي كان يعاني منها السودان على النحو الذي ذكرناه آنفاً.
وقد شاهد محمد أحمد فيما شاهد حريات مغتصبة وأملاكاً منهوبة وأرواحاً مهذرة وبلاداً مخربة
من قبل حكام كان أسلوبهم في الحكم موسوماً بالتحدي حتى تصور الناس أن الحكومة تريد بهم
شراً وبدينتهم.. وكان من عادة محمد أحمد أن يخرج سائحاً مع بعض أصحابه لدعوة الناس، وقد
جال في جميع البلاد ورأى بعينه، وجَدَ الناس عامتهم وخاصتهم - على الحكومة، وشدة رغبته
في التخلص منها حتى كان الكثيرون يتمنون ظهور المهدي الموعود لانقاذهم من الحال التي كانوا

(١) أبو الأعلى المودودي، موجز تجديد الدين وأحيائه، ص ٦١ - ٦٢.

(٢) المهدي المنتظر عند الشيعة الإمامية (الأثنا عشرية) هو محمد بن الحسن العسكري المختفي في سرداب الى
أن يحين وقت ظهوره.

عليها، وكلنا رأوا رجلا بفضلهم دراية وعقلا متصفا بالغيرة على الدين، ثم المهدي المنتظر.
لقد ترك هذا كله أثرا في نفس محمد أحمد، فأنصرف إلى التأمل والدراسة والرجوع إلى
الاعتكاف والخلوة، ولقد تأقت نفسه أن يكون هو هذا الرجل الذي ينتظره الناس، ولقد لعبت
العوامل النفسية والشخصية دورها في نفس محمد أحمد واضطربت في قلبه جذوة الشرق
والوحد. إنه صوفي عزيز في التصوف، والصوفية يعتمدون على الذوق والالهام والكشف، وفي
عالم الصوفية مجال فسح للشرقي والسمو والشفافية والرققة، وقد استغل فيه هذه الناحية، رجل
كان على التقيض منه في ذلك كله. كان هذا الرجل هو عبدالله التعايشي الذي جعله المهدي
الوارث لدعوته وخلافته من بعده.

لقد أكد عبدالله التعايشي - كما ذكرنا سابقا - وصية الشيخ القرشي وزكى في نفس محمد
أحمد الشعور بأنه المهدي، واستطاع بقوة شخصيته ودهائه دفع محمد أحمد بإعلان أنه المهدي.
وقد ذكر علي بن محمد أحمد المهدي: أن محي - عبدالله التعايشي قدم إعلان الدعوة ستنين،
ولو تأخر عشر سنوات لتأخرت عشر سنوات.. وهو قول يجعل من عبدالله التعايشي، رأس هذه
الفكرة والعقل المخطط لهذه الدعوة (١).

وقد حفظ محمد أحمد للتعايشي هذه اليد، وجعله الوارث لدعوته وخلافته من بعده، وهذا
من يتناول أعماله وتصرفاته بالنقد، قائلا: أن جميع أعماله وأحكامه محاولة على الصواب،
لأنه أوتي الحكمة وفصل الخطاب، ولو كان حكمه على قتل نفس منكم أو سلب أموالكم.. ومن
تكلم في حقه ولو بالكلام النفسي فقد خسر الدنيا والآخرة، ويخشى عليه من الموت على سوء
الحاققة (٢).

لقد بدأ محمد أحمد حركته بفضعة رجال مسلحين بالحرايب والعصي، ولكن مقدرته الفائقة في
إلهاب الجماهير وإعلان الجهاد في سبيل الله، مكنته من هزيمة الحكومة في كل معركة خاضتها
ضده، واستطاع وهو الصوفي البسيط أن يقهر خمسة جنرالات من أقوى دولة أوروبية، كان من
بينهم من أشهر القادة البريطانيين، لقد استخدم محمد أحمد المهدي الدين استخداما مثاليا ومرج
بينه وبين الحياة مزجا رائعا، فالاسلام هو الذي جاهد والاسلام هو الذي انتصر في النهاية على
الفساد والتعصب والصلبية، والاسلام هو الذي ساد البلاد وحكم العباد، وقد نجحت الحركة
المهدية، إذ حملت لواء المفاهيم الاسلامية المتحررة من السلبية والجور والتعصب والجبرية
واتسمت بإيجابية واضحة في مختلف المجالات (٣).

وقد اهتز المسلمون جميعا لحركة محمد أحمد المهدي ورأوا فيها رغبة مخلصه لإصلاح أحوال
المسلمين المتدهورة في تلك الفترة.. وقد جاءت الوفود من الهند والحجاز والشام ومصر وبلاد

(١) عباس محمود العقاد: الاسلام في القرن العشرين، ص ١٤٠ وما بعدها.

(٢) الدكتور محمد مصطفى حلمي: الحياة الروحية في الاسلام، ص ١٥٣.

(٣) الدكتور عبدالودود شليبي: المرجع السابق، ص ٢٤٦ و ٢٥٧.

المغرب ورواي وسكتو. وهذا يدل على مشاركة المسلمين له في الآلام والأمل والالتقاء بحور الحياة
حكومة إسلامية عالمية (١).

محمد أحمد المهدي : آراؤه ومذهبه الفكري..

ظهر في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي جماعة من الخبائلة الذين يقولون أراءهم على
مذهب الامام أحمد بن حنبل (١٦٤١ - ٢٤١هـ / ٧٨٠ - ٨٥٥م). الذي أحيى عقيدة السلف. وكان
متشددا في الالتزام بالنص الذي جاء به القرآن الكريم. وما ورد صحيحا عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم. من الأحاديث. وقد تجدد ظهورهم في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي
برعاية الشيخ ابن تيمية. ثم بعثت هذه الحركة من جديد في القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن
عشر الميلادي على يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب. وكان جوهر هذه الدعوة هو العودة الى القرآن
الكريم والسنة النبوية الصحيحة. فالقرآن وصحيح السنة هما الحكم الوحيد في تقرير الحكم
الشرعي. فلا حلال الا ما حلاله ولا حرام الا ما حرمه. والحق كل الحق فيسأ قرواء واثناء.

وحين كان القرآن الكريم والسنة هما المصدر الوحيد للسلف الصالح من هذه الأمة والرفع
الوحيد في شؤون العقيدة والدين والدنيا. حين كان الامر كذلك. بقيت عقيدة الامة نقية وقوية.
وبقيت صفوفها متحدة متراصة وعز شأنها. دينيا ودنيا. على هذا المنهج كان الصحابة. وحقا
حذوهم السلف الصالح من الامة. ثم خلف من بعدهم خلف بدلوها وغيروها واخضاعوها واستعصوا.
وصاحب هذا التبديل والتغيير تعصب وتمزق وشقات وتفرق وانقسمت الامة الواحدة الموحدة الى
فرق وطوائف ومذاهب ومدارس وكل فريق يزعم انه الناجي وكل حزب بما لديهم فرحون.

ولم يكد يبدأ القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي. حتى شاع التقليد المجامد الى حد
ان أصبحت المذاهب الفقهية والكلامية كأنها ديانات مستقلة. واصبح الاجتهاد معصية والرجوع
الى الكتاب والسنة جرمة. وتكون من العوام الجهلة والعلماء. أولي النظر الضيق والحكام الغاشمين
اتحاد ثلاثي لم يكن القيام في وجهه لاصلاح الامر بأهون من ملاقة الموت. وفي تلك الاثناء خرج
الى الوجود الامام تقي الدين أحمد بن تيمية (٦٦١-٧٢٨هـ / ١٢٦٣-١٣٢٨م). وكان ابن تيمية
اماما في الحديث. حتى قيل ان كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث. وكان من غلو شأنه
في الفقه ان ثبوا بحق مكان الامام المجتهد المطلق. زد على ذلك جرأة وشجاعة لا يخاف معها
قوة مهما بلغت في الجهر بالحق. وقد دخل بسبب ذلك السجن مرارا وفيه قضى نحبه في نهاية
الامر.

ماذا فعل ابن تيمية؟ وماذا كان موقفه من الاتجاهات والمذاهب الفكرية المعاصرة؟
لقد نظر فوجد ان طرائق العلماء. في فهم العقائد الاسلامية تنقسم الى أربعة أقسام:

(١) الدكتور حسن احمد محمود : الاسلام والثقافة العربية في افريقيا. ص ٣٧١
والدكتور عبدالودود ابراهيم شلبي : المرجع السابق. ص ٣٨ - ٣٩.

القسم الأول: الفلاسفة، وهؤلاء يقولون: إن القرآن الكريم جاء بالطريقة الخطابية والقصصية الاقتصادية التي ترفع المشهور ويضعون أنهم أهل البرهان والسيف، والعقائد طريقتها الزهراء واليقين.

والقسم الثاني: المنكسرون أي المعتزلة، وهؤلاء يقدمون قضايا عقلية قبل النظر في الآيات القرآنية. فهؤلاء يأخذون بالتوحيين من الاستدلال، ولكن يقدمون النظر العقلي على الدليل القرآني.

والقسم الثالث: طائفة من العلماء، تنظر إلى ما في القرآن من عقائد فتؤمن به وما فيه من أدلة، فتأخذها لا على أنها أدلة حادية مرشدة موجبة، بل على أنها آيات أحبارية يجب الإيمان بما تضمنت عليه من غير أن ينظر محتوياتها مقدمة للاستنباط العقلي.

والقسم الرابع: قسم يؤمن بالقرآن - عقائده وأدله - ولكنه يستعين بالأدلة العقلية بجوار الأدلة القرآنية (١).

وقد رفض ابن تيمية هذه المذاهب كلها، لأن منهاج السلف ليس واحدا منها، بل هو غيرهما. لأن العقائد لا تؤخذ إلا من النصوص، ولا تؤخذ أدلتها إلا من النصوص، وينتهي ابن تيمية من هذا كله إلى أنه لا سبيل لمعرفة العقيدة عند السلف، وكل ما يتصل بها أصلا وتفصيلا واعتقادا واستدلالا، إلا من القرآن والسنة. وكانت أهم مسألة شغلت ذهنه هي مسألة التوحيد، والوحدانية في العبادة معناها ألا يتوجه العبد في العبادة إلى ما سوى الله. وذلك يقتضي أمرين: ألا يعبد إلا الله وحده، ولا يشرك به شيئا، فمن سوى بين المخلوق والمخالق في شيء من العبادة فقد جعل مع الله آلهة أخرى. فدين الإسلام مبني على أصلين: أن يعبد الله وحده ولا يشرك به، وأن يعبد بما شرعه على لسان نبيه. وهذا هو حقيقة قولنا: «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله» (٢).

وقد بين الله هذا التوحيد في كتابه، وحسم مراد الإشراك حتى لا يخاف أحد غير الله ولا يرجو سواه، ولا يتوكل إلا عليه.

ولم يفت ابن تيمية عند هذا الحد فقد دعا إلى فتح باب الاجتهاد وشدد التكبر على القائلين بإغلاقه، كما حارب الممجد والتقليد والتصعب، وكان يقول ما قاله الإمام أحمد بن حنبل: لا تقلدني، ولا تقلد مالك ولا الشافعي وتعلم كما تعلمنا وحرام على الرجل أن يقلد في دينه الرجال، فإنهم لم يسلموا أن يغفلوا والتفقه في الدين فرض، فمن لم يعرف ذلك لم يكن متفقه في الدين (٣).

وكان ابن تيمية جريئاً شجاعاً لا يخاف في الحق لومة لائم ولم يهاب في النقد فرقة على

(١) ينظر في هذا الموضوع: الشيخ محمد أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية، ج ١، ص ٢٢٦.

(٢) ابن تيمية: قاعدة جليلة التوسل والوسيلة، ص ١٥٨ وما بعدها.

(٣) الدكتور محمد البهي: محاضرات في الفكر الإسلامي، ص ١٧ وما بعدها.

فريق، ولم يشرك طائفة دون أخرى. وقد نادى بأن يرجع المسلمون إلى الكتاب والسنة قبل أن يرجعوا إلى القياس والرأي. كان يريد إسلاما وجماعة إسلامية أساسهما الكتاب والسنة.

هذا باختصار شديد هو ما دعا إليه ابن تيمية. وكان خلاصة لمعظم آرائه وتعاليمه وقد لقيت هذه الآراء والتعاليم خير تعبير عنها في حركة محمد بن عبد الوهاب. ولم تكن هذه الحركة في جوهرها إلا أحياء لتعاليم ابن تيمية بصورة جديدة لأقواله وفكره. فهذه الحركة لم تزد بالنسبة للعقائد شيئا عما جاء به ابن تيمية إلا أنها تشددت في أمور لم تكن شائعة في عصره ولم تشتهر في عهده (١٧).

وكان موسم الحج ميدانا صالحا لعرض الدعوة على أكابر الحجاج واستمالتهم إليها فإذا عادوا إلى بلادهم كانوا من الداعين إليها والمتمحمسين لها. وعن طريق الحج بدأت الدعوة في الدبوع والانتشار في أنحاء العالم الإسلامي. ولم تكن حركة محمد أحمد المهدي، إلا حصى قربة للدعوة السلفية التي قام بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب في شبه الجزيرة العربية. بعد هذا التمهيد الذي أوردناه عن تاريخ الدعوة السلفية.. نعود إلى البيانات والمنشورات التي أصدرها المهدي لثري إلى أي مدى كانت أقواله وأحكامه مطابقة للفكر السلفي ومناجمه.

يقول محمد أحمد المهدي:

«من العبد المفتقر إلى الله محمد المهدي بن عبد الله إلى كافة أحيائه وأتباعه على سكة رسول الله صلى الله عليه وسلم:

يا أحيائي: فقد بايعتموني على ألا تشركوا بالله شيئا، ولا تسرقوا ولا تزنا ولا تأتوا بيهتان، ولا تعصوني في معروف، وإن تزهدوا في الدنيا وتبدلوا أنفسكم وأموالكم في سبيل الله.

فإذا كنتم (موقنين) (٢) لبيعتكم وعهدكم، فإن بيعتكم هذه هي بيعة الله ورسوله. إذ أن من بايعني فقد بايع الله ورسوله، فوجدوا الله في كل شيء، كما بايعتم على ألا تشركوا بالله شيئا، فلا تروا العيش والاقنيات والعز والنفع وضدهم عند أحد، ولا في الأموال والوظائف، بل أن الوظائف والأموال إذا حصلت لأحد فربما أسقطته عن الله. إذا كان ضعيفا في نور الإيمان لما أن رؤيتهما وزوالهما يقذفان في قلبه أن بهما العظمة والعيش فيشرك بالله كما (رأى) (٣) بنو إسرائيل خوار العجل وحراكه فظنوا أنه إله وقذف في قلوبهم حبه. وكل من نظر إلى شيء دون الله واثّر في قلبه أنه ينفع أو يضر فقد أشرك في الحقيقة. إذ أن

(١) الشيخ محمد أبو زهرة: المرجع السابق ج ١ ص ٢٥٣.

(٢) في الأصل موقنون. (٣) في الأصل كما رأوا.

كل ما سوى الله باطل. ومن كان يوحد الله ويرجو لقا الله، لا يميل إلى شيء دون الله فيطمئن به فيصرفه عن الله ويكون من خسر دينه. وآخرته. لا منفعة الغير التي يراها من غير حليقة تصد قلبه من التمسك بالله فيتمسك بذلك الغير فيكون مقطوعاً عن الله وعن منبع القوى والقدرة، ويكون كالشجرة المقطوعة عروقها، فخيال خضرتها عن قريب يذهب وتصحل وتتعهد. فمن اعتمد على شيء دون الله وفرح به فقد جهل. وكذلك من رجا شيئاً من دون الله، ويعلم من ذلك أن من تفخر بشيء دون الله فقد تفخر بالعدم، وتفكك بالغير يكون حجاً له عن الله وكفراً بنعمه تعالى. لأن الله هو المحيي والمميت والزاق والمفيت والمعز لا غيره. فمن نسب إلى غيره عطا أو منعاً أو نفعاً أو ضرراً، فقد ظلم بوضع الشيء في غير موضعه، ونسب نعمة لغير من أنعم بها. فان كنتم مصدقين بوحداية الله في الاقنيات والحياة وكل شيء إلى الممات فاخرجوا عما - عن الله - يصدكم وعن طلب الآخرة يصرفكم فانه لا رب الا الله ولا حياة الا في الآخرة.

وقد ابتلى الله عبادَه واختبر توحيدهم، فثبتوا ولم يتزلزلوا، فانظروا إلى ابتلاء ابراهيم عليه السلام في توحيد الله تعالى. كذف في النار فعارضه جبريل في الهوا، فقال له: ألك حاجة؟ فقال: أما اليك فلا. وأما إلى الله فبلى، فلما وقع في النار صارت عليه برداً وسلاماً. فكذلك من يتبلى الله فيصبر على توحيد الله مكنتها عن الاستعانة بغيره يسلم كما سلم ابراهيم عليه السلام.

وقد أمرنا الله أن نتبع سكة ابراهيم، فقال فكذلك ملأ ابيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل. يعني اتبعوا ملأ ابيكم ابراهيم وحق على من كان ابراهيمياً أن يكون من تدبير نفسه برياً ومن منازعة الله خلياً (١).

أن هذا المنشور تحسيد حي لا أقوال ابن تيمية وابن عبد الوهاب في التوحيد وافراد الله بالعبودية.

وفي منشور آخر يقول المهدي:

لا تستغيثوا بأحد دون الله، ولا تطلبوا أحداً دون الله ولو نبياً رسولاً أو ملكاً. فجميع الانبياء والمرسلين دعوا إلى وحدانية الله، فلا تتوهموا وتنسوا إلى رجل صالح شيئاً أو تطلبوا منه شيئاً، فان ما سوى الله يقطع النظر عن الله تعالى، قال الله تعالى: «وان يمسك الله بضر فلا كاشف له الا هو» (٢).

وقال: «ما يفتح الله للناس من رحمة فلا يمكك لها وما يمكك فلا مرسل له من بعده» (٣).

فلا تشركوا بالله شيئاً وراعوا حق الله في حرمته.

(١) المنشور الصادر في ٦ من صفر سنة ١٣٠١ هـ.

راجع الاصول الفكرية لحركة المهدي السوداني ودعوته للدكتور عبدالودود شلبي ص ٢١٥.

(٢) سورة يونس، الآية ١٠٦. (٣) سورة فاطر، الآية ٢.

وفي هذا المنشور يفتح لنا،
أولاً : مع الاستغاثة بغير الله ولو كان نبياً مرسلًا أو ملكاً .
ثانياً : ألا ينسوا أو يتوهموا أو يظلموا من رجل صالح شيئاً .
ثالثاً : اعتبار أي عمل من هذه الاعمال شركاً .

وهذه هي نفس الآراء والاحكام التي اصدرها ابن تيمية وابن عبد الوهاب وتكاثر الاتفاقات
والعبارات أن تكون واحدة على نحو ما بينا في التمهيد عند الكلام عن ابن تيمية .
لقد نشأ المهدي صوفياً كما اسلفنا ، وكان في صوفيته مثال المريد الدليل الخاضع لشيوخه ،
ويقسم ويحلف باسم الله سبحانه وتعالى بل يمجّد كثيراً من المريدين ، إذا توجهت عليه عين من قبل
خصمه حلف بالله فاجراً ، فإذا قيل له : احلف بشيخك أو السيد الفلاني تلغشم وتلكأ . وابن
واعترف بالحق ، ولكن المهدي يحذر انصاره من الحلف بغير الله ، لأن كل مؤمن يصدق بوحدة
الله لا يحلف بغيره .

ويقول المهدي في بيانه : « اعلموا ان العظمة لله ، فلا تحلفوا بشي . دون الله فيجزي الحلف في
غير موضعه ، وفي الحديث : « من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » ، وإذا عظمت منه الله
عليكم في شي . فاحلفوا بربه وخالفه وتقليل الحلف بالله خبير ، لأن من اعتاد ذلك يقع في حلف
يكذب فيقع في اليقين الغموس التي تقذف صاحبها في النار . » .

وقد أحاب المهدي ، عن سؤال وجه اليه بشأن الحلف بالحرام والطلاق أي عن حكم الشرع في
الرجل الذي يقول مؤكداً كلامه على عادة ساقطي المروءة من الناس . على الطلاق والحرام اني
أفعل كذا . أو فعلت كذا . أو ما فعلت كذا . قال المهدي رداً على هذا السؤال وهذه الفتوى
ما يلي :

« الحلف بالحرام والطلاق لغو لا يلزم فيه شي . لقوله صلى الله عليه وسلم : من كان حالفاً
فليحلف بالله أو ليصمت » ، بعد قوله : « لا تحلفوا بطلاق ولا عناق » وإذا وقع الحث فيهما من
الحالف فلا يلزمه فيه سوى الأدب ولا يحرمان الزوجة كما يزعم بعض الاخوان .

هذه النظرة الواسعة في استنباط الاحكام والفتاوى خاصة بالامام ابن تيمية ومدرسته
وتلاميذه ، فالطلاق انما شرع أصلاً لوضع خاص يستحيل فيه الوفاق بين الزوجين ، واستعمال
ألفاظ الطلاق في غير ما شرعت له وفي أمور بعيدة عن القصد منه لا تجعل لهذا الكلام أثراً في
العلاقة الزوجية ابجائاً أو سلباً ، وانما يعزز صاحبه بالقدر الذي يزرعه عن التلاعب بهذه الكلمات
واتخاذها هزواً ولعباً . وإذا كان القصد منها - اليقين والحلف - فإن ذلك غير جائز شرعاً ، وقد
اتفق العلماء - كما يقول ابن تيمية - على أن من حلف بالمخلوقات أو ما يعتقد هو حرمته ، لا
يعتقد له يمين ولا كفارة في الحلف بذلك (١) .

(١) كتاب الفتاوى للشيخ محمود شلتوت ، ص ٢٧٧ ، ٢٧٩ .

وقد سئل المهدي عن حكم الدين في السائم التي تستعمل للاستعاذة من السقم والمرض والضرر ونحوه كل شيء، يجيبه، بل لا يخرج من قدرته فقله خاطره ولا لفقه ناظر، فيسفي لمن كان تابعاً لنا أن يسلك طريقنا ويتوكل على الله وحده، ولا يلتفت إلى غير لا وجود له.

صلى الله عليه وسلم وعنه الخلفاء الراشدين، وقد أعطى لنفسه الحرية في التشريع ووضع السنة، لأنه يحمل مؤخلا لم يجعله أحد من المسلمين وهو التلقي المباشر عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وفي حالات عن الله عز وجل، وبالإلهام الذي يجعله يصل إلى الحكم الذي كان المهدي المنتظر في المصادر التي وقف عليها.

وكتبا مع نظريات المهديّة القائلة إن المهدي المنتظر بلغى المذاهب الفقهية والطرق الصوفية ويوجد كلمة المسلمين وبوجههم في طريق واحد، حتى لا يضلّ إلا الدين الخالص، أعلن المهدي العام المذاهب والطرق الصوفية في المنشور الصادر في ٢٠ من جمادى الآخرة سنة ١٣٠١هـ وألزم أنصاره بهذا الإلغاء، وبأن يسيروا على الوجه الذي يفيقه، وأن يأخذوا بتفسيره، وما وصفه في منشوراته من الآراء والتوجهات والنظم. وقد تمكن حقيقة من أن يوجه الفكر والثقافة إلى النحو الذي أرادته وأن يصيغه بصيغته الخاصة، ووضع المهدي حظرا شديدا على النشاط الفكري ومنع تداول الكتب إلا ما يجيزه، ودخل مع العلماء في عراق كبير.

وفي عشور « حياة الدين الكبرى » الصادر في ذي الحجة سنة ١٣٠١ هـ.

يقول المهدي لاتصاره... والذي ينقذكم من الهلاك، ويورثكم عظيم المكانة عند الله هو ان تتركوا معارككم السابقة، وتصغروا للدلائل باذن واعية حيث وجب عليكم ذلك ولزومكم الانقياد لي والخروج عما عندهم، كما انه لا سعادة للعبد الا في الدين الخالص الموافق للكتاب والسنة، اذا لم يكن العمل على ذلك فهو مردود لانه لا امان الا في الكتاب والسنة (١).

وفي الحدود الشرعية اصغر المهدي احكاما يرجع بعضها الى الكتاب والسنة وانفرد في بعضها باحتياجات خاصة، يقول المهدي: «جاهدوا في سبيل الله، واعلموا ان سيفا سل في سبيل الله افضل من عبادة سبعين سنة وعلى النساء الجهاد في سبيل الله، فمن صارت قاعدة وانقطع عنها ارب بالرجال عجايد ببيديها ورجليها، واما الشابات فيجاهدن نفوسهن ويسكن في بيوتهن، ولا يسيرون نرج الجاهلية الاولى ولا يخرجن لغير حاجة شرعية، ولا يتكلمن بكلام جهرا، ويستترن بشابهن، فمن وقفت كاشفة رأسها ولو لحظة عين فتؤدب بالضرب سبعة وعشرين سوطا، ومن تكلمت بصوت عال فتضرب سبعة وعشرين سوطا، ومن تكلم بفاحشة فعليه ثمانون سوطا،

(١١) الدكتور أبو سليم : منشورات المهدي، ص ٧ وما بعدها.
والدكتور عبدالودود شلي : المرجع السابق، ص ٢٢٤ - ٢٢٥.

سوطا . ومن قال لأخيه المؤمن : يا كلب أو يا خنزير أو يا سارق أو يا يهودي أو يا نصراني أو يا
خائن أو يا كافر أو ياملعون أو يا فاجر . فيضرب ثمانين سوطا ويحس سبعة أيام . ومن تكلم
مع احبته وليس يعاقده عليها ولا امر شرعي . يضرب سعة وعشرين سوطا . ومن شرب الخمر
يؤدب بثمانين سوطا . ويحرق «التشاك» ان كان عنده . وكذلك من خزنه في قمحه . ومن فعله
بأنفه . ومن باعه او اشتراه وان لم يستعمله يضرب سعة وعشرين سوطا .

ومن شرب الخمر ولو مصة ابرة يضرب ثمانين سوطا . ويحس سبعة أيام . وجاره ان لم يغير
عليه يكلم أمير البلد . وان لم يكلمه يضرب ثمانين سوطا . ومن ساعد شارب الخمر ولو بجرعة
ماء او انا . فيؤدب كذلك ويحس سبعة أيام . ومن ترك الصلاة عمدا يقتل . وجاره ان لم يغير
عليه يكلم أمير البلد . فان لم يكلمه يضرب ثمانين سوطا ويحس سبعة أيام . وتقبل أمواله
غنمية . ويبت الخمس سوات إن لم يسترها أهلها يضررون . من غير حيس . ورجم الزاني والزانية
وقطع يد السارق والسارقة «(١)» .

كما منع المهدي الناس من زيارة اضرحة الأولياء التي كانوا يزورونها قبل المهديّة . وبطل
الرتب والالقب الرسمية . وحرم الاحتفال بالاعراس احتفالا يدعو الى التفقة . وخفض مهر الزواج .
وبطل الرقص والغناء . وبطل السحر وكتابة الاحجية وما إليها .

وقد اتخذ المهدي الزهد والتقشف أساسا للمجتمع الاسلامي الذي به واعتقد بأن قيهما العلاج
الناجع لمشكلات العالم الاسلامي . ذلك لانه يرى ان الانسان ينبغي ان يتوقع عن الفوائد المادية
المباشرة لما أقيم له في رحاب الفضائل والقيم الدينية . كما انه ليس هناك حد فاصل في المهديّة
بين الدين والدولة .

ووصف المهديّ دعوته - كما أسلفنا - انها أمر إلهي . بمعنى ان الله سبحانه وتعالى هو الموجه
لها . وانها امر ديني يقوم بالنصرة الدينية التي عن طريقها تسعد حياة المجتمعات البشرية . الامر
الذي يدل على ان المجتمع من عمل الانسان . بحيث يتصلح امره اذا اتبع الناس الاوامر الالهية .
وتتدك اركانها وتسوء حاله اذا تخلوا عن تلك الاوامر وأعجبت الانفس الى المنافع الشخصية
والمنازعات الدنيوية دون الأخروية .

قال تعالى : «ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن
كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون» (٢) .

ومعنى هذا ان الامم اذا انحرفت وعزفت عن العمل الجاد القائم على الاخلاق والرحمة والتفوى
انهارت مجتمعاتها وحضارتها واذا عادت الى اتباع الحق أعيدت الى مكانتها ورسالتها .
وللمسلمين رسالة وامانة عالمية عليهم ان يبلغوها للناس كافة . ولذلك فهم أحق ان يلتسروا
اسباب الحياة والقوة من مصدرها الاصيل القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة .

(١) الدكتور عبد الوهيد شمس . المرجع السابق . ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .
(٢) سورة الاعراف : الآية ٩٦ .

الفصل التاسع

حركة رابع فضل الله (ت ١٣١٨هـ / ١٩٠٠م)

ولد رابع من فضل الله عام ١٨٤٥م في قرية حلغاية الملوك بالسودان حفظ القرآن الكريم في خلوة قريته على يد الفقيه هاشم. وعندما بلغ العشرين من عمره سافر إلى مصر والتحق بجيش الحديوي اسماعيل باشا الذي تولى حكم مصر في الفترة ما بين عامي ١٨٦٣ و ١٨٧٩م. حيث تدرب على حمل السلاح، وقد أصيب في أثناء مناورة عسكرية في يده اليمنى فتسببت له هذه الحادثة الأوسع التضرر. وجاء الإصلاح العسكري بإبعاده عن الجيش المصري فاضطر للعودة إلى السودان (١).

برز رابع من خلال الصراع الذي دار في السودان بشأن الوجود المصري الانجليزي، حيث خاض معارك ضارية بجانب الزبير وحمة باشا في منطقتي دارفور وبحر الغزال. وبعد احتلال الانجليز لهاتين المنطقتين غادر رابع السودان مع عدد كبير من انصاره في جويلية ١٨٧٩م نحو الجنوب الغربي للسودان. وللحيلولة دون حدوث انشقاق حول القيادة في المستقبل قرّر القادة والانصار اعطاء لقب أمير لرابع.

استقر رابع حياً من الدهر في منطقة «غونده» بأفريقيا الوسطى. حيث اقام فيها معسكراً قوياً ودرب انصاره على استخدام السلاح ونشر الدعوة الاسلامية بين قبائل «بندة». وفي تلك الاثناء، بعث اليه محمد أحمد المهدي يدعوهُ للانضمام الى صفوف الحركة المهدية، لبى رابع الدعوة وبدأ يتحرك بجيشه نحو السودان، غير انه ما كاد يبلغ حدود دارفور الجنوبية حتى بلغه خبر وفاة المهدي في ٢٢ جوان ١٨٨٥م وتولي عبدالله التعايشي. عندئذ توقف رابع عن مواصلة السير نحو الخرطوم وقرر الرجوع إلى دار كوتي ودار بندة، وهذا أمر طبيعي من الناحية السياسية، إذ لم يتصل به الخليفة عبدالله بعد وفاة المهدي.

مكث رابع حوالي ١٠ سنوات في دار كوتي ودار بندة، واقام علاقات طيبة مع الحدي شيخ السلامة الذي كان يريد التخلص من نفوذ مملكة وداي، وابتداءً من سنة ١٨٨٨م، قام بعطيات حربية ضد القبائل الاحيائية التي تقطن على ضفاف نهري السلامة والشاري. واخذ يتجه صوب مدينة «ماسينا» عاصمة مملكة الباقرمي و«كيكوة» عاصمة مملكة البرنو. وقيل ان يصل إلى ماسينا بعث اليه سلطان الباقرمي رسالة هذا نصها:

(١) سعد الدين الزبير: امراطورية رابع الزبير، ص ٤٥ وما بعدها.

«بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على محمد وآله من النسلين.
لمن عبد ربه السلطان محمد عبدالرحمن بن السلطان محمد عبدالقادر نصره الله آمين... إلى
حضرة العلية الطاهرة السنية الفاهرة البهية الطلعة القمرية حفظها الله من أمة وبلية وصانها الله
وعصاها ويغفرها في الدارين منها».

حضرة الشيخ رابع عامل المهدي (١) السلام عليكم ورحمة الله وبركاته لديكم وبعد. فإن
تفضلتم وعنا وعن حالنا سألتكم فنحن بحمد الله طيبون سالمون، وما سائلون إلا عنكم وعن كرامة
أحوالكم، فإن كنت كذلك فالحمد لله على ذلك. هذا وتعلمك أي قبل مجلسك بأيام تأملت
للخروج إلى «الكردي» (٢) صاحب «كوريل» لأنه عصاني ونقص الجزية. ولما سمعت بقدمك
وأخرجته من داره فرحت بذلك غاية ونهاية. وبعد أيام سمعت أن الكردي هرب وجاء إلى
«يسي»، أراد أن يتجاوز البحر (٣) ويذهب إلى حجر «مدقو» وكان إذ ذاك أجا وبوي غائبين وأنا
خرجت وقطعت له طريق الهروب. وجمعت عسكري كلهم. ولما سمع بذلك هرب إلى ناحية الكفر.
وأنا الآن ما قد قدمت إلى «سروا» لإعانتك لأنهم كفر وأجب قتالهم بالشرعة المحمدية. وهم منذ
زمن أبائنا يقرون فيهم ويسون منهم ومع ذلك لا ينقصون. فأنا وأنت لن تنقصهم أبدا. قالني
نقوله لك: أنك لا تسمع قول الناس الواردين لك بالنصيحة والكذب وما قصدهم إلا الفساد والله
لا يحب المفسدين. فنحن الآن معك نصير كآشي الواحد. وينعقد الأمان بيننا وكلمتنا تكون
واحدة. وأما الكردي أن جاء اليك فكله هيننا مرثا. وإن جاء الينا كذلك هو وغيره. لأنه قبيح
وطغى وقطع الطريق بيني وبينك. فكم من رسول نرسله لك منذ سنتين وهو يمتعه. هذا وإن سألت
عن عدم مواصلتك ومنع التجار عن طريقك، فنحن أولاً خائفون من الوداي. ومع ذلك ما منع
عك التجار إلى أن صرت والآن أنت تصالحت معهم (٤). فهذا هو المقصود، فجميع ما تطلب من
جهة التجار ومن جهتنا في الأخوة الإسلامية تجده إن شاء الله. ونحن كذلك. ولا تظن بنا ظن
السوء. ولاجل ذلك أرسلت اليك الحاج عيسى لتسمع بقدمي، لأنني طيقت الليل والنهار لأدرك
الكردي قبل هروبه (٥). وأما جميع ناسي في خلفي ما وصلوا إلى الآن، فإن جاءوا نرسل لك
رجالاً عدولا من خواصي سريعا عاجلا من غير توان لينعقد الأمان بيننا». لقوله تعالى: «وأوفوا
بالعهد أن العهد كان مسؤولا». والسلام على من حضر مجلسك الرقيق الاعلى.

(١) يعتقد سلطان الباقري أن رابعا كان امتدادا للحركة المهدية في السودان ولذلك طلب التعاون معه ضد
الكفر. إلا أن رابعا لم يثق به خوفا من أن يقضي عليه بالجلية. خاصة أنه لا يعرف عن هذه البلاد ومساكنها شيئا
فهجم عليه قبل أن يتفاوض معه وبالتالي قام سلطان الباقري بنفذه في المنطقة حتى النهاية.
(٢) الكردي: الكافر. (٣) البحر: نهر الشاري.

(٤) استولى رابع على المناطق الجنوبية المحاذية لمملكة الوداي (دار رونقا وداركتشي وملحقاتها) ولكنه لم يعقد
صلحا مع الوداي.

(٥) الكردي الذي تحدث عنه الرسالة هرب من رابع وجاء ليستجد بسلطان الباقري. ولذلك يبدو أن هذه
الرسالة كتبت لتضويه الحقائق عن رابع حتى يتم الهجوم عليه بفترة. إلا أنه نشبه وبادر بالهجوم على الباقري قبل
أن تتكالب عليه القوى المحلية مجتمعة.

ثلاثة حلت من شهر الله جمادى الأولى ١٣٠٧ هـ (١٦٩٣ م) في عام ١٨٩٣ م وصل رابع إلى مدينة «بوسو» واحتلها وأمر سلطان «كوبيل» الذي جاء

عند الرحمن جاورانج الثاني سلطان الباقرمي ليعده عن بلاده، فدارت معركة عنيفة بين الطرفين، ووقع أن جيش رابع قد تدرب على فنون القتال في عدة معارك منذ خروجه من السودان في حويله ١٨٧٩ م. وكانت أسلحته حديثة بالمقارنة مع الأسلحة التي يستخدمها سكان البلاد التي لم يكن لديه عدد كبير من الخيل التي تمكنه من الانتقال السريع والهجوم المباغت.

ونظرا لعدم تكافؤ القوة فقد خسر سلطان الباقرمي المعركة، وانظر في النهاية إلى الانسحاب من الميدان، حيث توجه إلى مدينة «ماجفا» العاصمة الثانية لمملكة الباقرمي بعد مدينة «ماسينا». وأخذ يجهز جيشا آخر للمعركة القادمة.

وتحرك رابع خلف السلطان جاورانج حتى وصل إلى مدينة «ماجفا» وشرب عليها حصارا قويا استخدم خلاله الباقرمي كافة الوسائل الممكنة للفكر، ولكن دون جدوى. فاستجد السلطان جاورانج بالسلطان يوسف، سلطان الوداي، وكان حرمه عثمان - أحد وزراء «سلطان الوداي» - موجوداً في ذلك الوقت في مدينة «ملفي» بالقرب من أراضي الباقرمي، في جولة لتحصيل الضرائب. فتلقي الأوامر بالذهاب فوراً لتجدة «الباقرميين»، وتم تجهيز جيش بقيادة عقيد البحر «حجر كبير». فعلم رابع بذلك، واتخذ التدابير اللازمة لمنع وصول التجدة. وحاولت قوات وداي اخترق صفوف جيش رابع ولكنها لم تتمكن من ذلك رغم محاولاتها المتكررة.

سقطت مدينة ماجفا في يد رابع بعد حصار دام خمسة أشهر، إلا أن السلطان جاورانج تمكن من الخروج منها مع بعض مقاتليه وتوجه إلى الجنوب مستجداً بالقوات الفرنسية التي كانت تتمركز في «ابوانجي شاري» أفريقيا الوسطى حالياً.

غادر رابع مدينة «ماجفا» بعد أن تحولت إلى ركام، واتجه صوب «كزنك لوجون» ومدينة كسرى، وجولفي، وتم تكليف العقيد أرياب بايكر، والفقير أحمد الكبير بالتفاوض مع السلطان صالح، سلطان لوجون، واقتنع السلطان صالح وأذن للأمر الواقع، وتم إبلاغ رابع الذي كان ينتظر بجيشه خارج سور المدينة بنجاح المفاوضات، وبعد ذلك ضمت «كسرى» وملحقاتها، وكذلك مدينتا «جولفي» و «مارة» منطقتا نفوذ السلطان حقراً وتم تعيين العقيد عثمان بن شاكر حاكماً على المناطق الممتدة جنوباً حتى مدينة لاي وشمالاً حتى مدينة القندة (مسكوري) ومشارف بحيرة التشاد. وشرقاً المناطق المجاورة لنهر الشاري، وكان تحت أمرته اللواء العاشر لواءه الخاص واللواء السابع بقيادة الصديق، واللواء التاسع عشر بقيادة بشارة خراج، واللواء العشرون بقيادة موسى الجبهيمان، واللواء الحادي والعشرون بقيادة ابن الشافي، ومنع سلطات

واسعة في الأراضي التي يحكمها
أما السلطان صالح المخلوع فقد اتهم بالتآمر، وبذلك اعتبر خطرا على أمن البلاد واستقرارها.
فحكم عليه بالاعدام وتم تنفيذ الحكم علنا.
ترك رابع العقيد عثمان بن شاعر خلفه في «كركك لوجون» وتقدم هو بجيشه غربا نحو مدينة
«كيكوة» عاصمة مملكة البرنو، والتي تبعد عن نقطة انطلاقه بحوالي ٢٧٥ كيلو مترا.
كان سلطان البرنو يمارس سلطة مطلقة ويعاونه في الحكم وزير يقوض سلطانة لوطفون يحملون
القب «مالا» و«كشلا» و«كيشا» ويكلفون بتحصيل الضرائب، وفي حالة الغزو يتقدمون الوحدات
العسكرية التابعة لهم. وكان «الكيشا» بمثابة «وال» مهمته توفير الأمن والدفاع عن البلاد.
ويعتبر أهل البرنو أكثر الشعوب التي حاربها رابع وأحسنهم تسليحا. وفي تلك الفترة كان الأمراء
والاجاويد يعيشون جميعا في انحلال خلقي شمل البلاد كلها، وعجز السلطان محمد هانم
سلطان البرنو الذي اشتهر بالتقوى والعمل الصالح ان يضع حدا لهذا الانحلال، وبمينا كانت
الأحوال تسير من سيئ إلى أسوأ في المملكة وصل رابع إلى أراضيها، فكانت البقطة مؤلة
ومتأخرة.

التقى جيش رابع جيش مملكة البرنو بقيادة محمد طاهر، حيث دارت معركة بين الجانبين أسر
في نهايتها قائد القوات، البرناوية، وعدد كبير من رجاله، وفر بعض الجنود إلى كيكوة. وعندما
علم السلطان محمد هاشم بالخبر قرر ان يتوجه بنفسه لملاقاة رابع الذي احتل بالفعل جزءا كبيرا
من أراضيه، فغادر كيكوة بجيش كبير، لكنه تراجع عن المعركة بعد ان تكبدت قواته خسائر
فادحة، وافتتح بذلك الطريق أمام رابع، فزحف واحتل كيكوة يوم ٩ ماي ١٨٩٣م. وحضر عدد
كبير من القادة والأمراء والأعيان وقدموا اليه ولائهم. ونظرا لعدم توفر مياه الشرب في كيكوة،
قرر رابع بناء على نصائح وزيره (الجلابي وجبارا) نقل مقر إقامته إلى «ديكوة» التي تقع على
ضفاف نهر «أجيري» وبالتالي على مقربة من «البلي» مخزن الغلال الرئيسي في البرنو. ومنذ
ذلك التاريخ تحولت ديكوة من قرية صغيرة إلى عاصمة شهيرة، حيث استقر فيها رابع وبدأ بعمل
على توطيد أركان ملكه.

حكم رابع المناطق التي استولى عليها في الفترة ما بين عاصي ١٨٩٣ و ١٩٠٠ بالنظام
اللامركزي رغم ممارسته للسلطة العسكرية الاستبدادية بوجه عام، وعدم تحميله للذين يحاولون
النبيل منه، فقد ظل يحمل لقب أمير المؤمنين الذي أطلق عليه منذ عام ١٨٨٠م كما أسلفنا، وقسم
البلاد إداريا إلى ولايات وأعطى بعض رؤساء الألوية والوكلاء والاجاويد والأمراء سلطة إدارتها
والتصرف فيها طبقا لتعاليم الشريعة الإسلامية، على أن يحاسب كل منهم على أخطائه أمام
مجلس الشورى الذي يرأسه شخصيا.

وكان القضاء يتولاه الفقهاء، بتعيين من الولاة ويتم تنفيذ الحكم الشرعي على الجاني خلال
الجلسة القضائية دون أن يكون هناك مجال للاستئناف والمحسوبة، ولم يتدخل رابع في شؤون
القضاء إلا في حالات استثنائية نادرة.

وتتلقى خزينة الدولة (بيت المال) سواردها المالية من الغنائم والعربات والزكاة، والاموال التي تصادها السلطة من الافراد، والحراج، وكان الشيوخ والنساء، والاطفال والفقراء، والمساكين يستنون من دفع الضرائب. وكان لراعي علاقة تجارية مع دول حوض البحر المتوسط، فقد كان يصدر لها السلع المحلية كالعاج وريش النعام وعسل النحل والصمغ العربي وحلوى النعاج، الخ. ويستورد منها الاسلحة والتخيرة والسجاد والزراي والافخنة القطنية والحبر والكتان والسكر والشاي والتوابل وادوات الزينة.

ونظرا لقصر الفترة التي حكم فيها رابع المنطقة والحروب المتواصلة بينه وبين السلاطين الذين تقدمهم سلطاتهم التقليدية، لم تمكن ادارته من اقامة اية نهضة أو مجتمع جديد. ولكن كان له الفضل في نشر الاسلام في اويانجي شاري، وقبائل السارا كايا والكلاي والبندة. تلك القبائل الاحيائية التي كانت تسكن شمال شرقي اويانجي شاري وجنوب شرقي التشاد. والتي كانت تشكل الجزء الاكبر من جيشه. كما كان الفضل في انها الصراعات القليلة الدامية التي كانت تدور في انترنو وأراضي شاري الاسفل بين السلامات وبني سعيد منذ عام ١٨٩١م بسبب الاعتداء على حقوق الغير وعصيات الاخذ بالتأثر. فقد استدعى زعماء القبيلتين والقبائل المناصرة لهم الى «ديكوة» وطلب منهم المصالحة، فأقسموا البمين على ان يعيشوا في سلام، وكان ذلك في عام ١٨٩٤م.

في الفترة التي تحرك فيها رابع من السودان نحو الغرب ١٨٧٩ - ١٨٩٣ شهد العالم مرحلة تاريخية هامة تمت فيها الاحتكارات الرأسمالية نحوا عالميا في كل من فرنسا وبريطانيا والمانيا واطاليا نتيجة لنمو الصناعة وتقدمها في تلك البلاد مع تركيز الاموال وأعمال البنوك في أيدي عدد من الشركات الضخمة. وصاحب هذا النمو تطور الاستعمار والتسابق الى تقسيم العالم بين الدول الأوروبية الى مناطق نفوذ واسعة، يمكن فيها تصريف منتجات الصناعة الأوروبية والحصول منها على الموارد الخام والأيدي العاملة بأسعار زهيدة تزيد من أرباح الاموال المستغلة في هذه المستعمرات.

وكانت افريقيا في ذلك الوقت هي الارض البكر التي يتطلع اليها المولون في كافة دول أوروبا، والمجال الطبيعي لتوسع الرأسمال الأوروبي في بحته عن اسواق جديدة. وكانت فرنسا من انشط الدول الأوروبية في ارتياد مناطق افريقيا الاستوائية عن طريق ارسال البعثات العلمية والتجارية وعقد معاهدات واتفاقات مع ملوكها ورؤسائها التقليديين.

ففي أعقاب مؤتمر برلين ١٨٨٤/١٨٨٥م الذي حدد القواعد العامة التي يسير عليها المستعمرون في تقسيم افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، أخذت فرنسا تمد نفوذها نحو حوض بحيرة التشاد ونهر النيجر وأعالي النيل لتربط بين مستعمراتها في غربي وشرقي افريقيا من جهة، وفي شماليها وجنوبها من جهة ثانية وكان وجود رابع في المنطقة يعتبر خطرا يحول دون تحقيق هذه الامال.

وفي عام ١٨٩١ تأسس في «كارنو» بافريقيا الوسطى أول مركز استطلاعي فرنسي، ومنه

تحركت البعثات الفرنسية العسكرية نحو حوض بحيرة الشاذلي، وكان أشهرها بقيادة «أميل جانتي» الذي عقد معاهدة حماية مع سلطان الباقرمي عبدالرحمن جاورانج، ثم عاد مسرعاً إلى فرنسا فاستقبل في باريس استقبال البطل المظفر.

عندما علم رابع بالتحللل الفرنسي في المنطقة وعقد هذه المعاهدة قام بهجوم صباغت على «مانسبا» عاصمة الباقرمي، وألقى القبض على الأمراء والوزراء الذين شهدوا توقيع المعاهدة مع الفرنسيين. حيث أخذوا إلى «ديكوة» كآسرى، بعد أن أدبروا بالتآمر ضد الإسلام والمسلمين في حين تمكن السلطان جاورانج من اللجوء إلى المناطق الجبلية، وأخذ يتصل بالفرنسيين ويجهز قوا للهجوم على رابع.

وفي شهر جوان ١٨٩٩م وصلت معلومات خطيرة إلى رابع، حيث علم بالتحرك الفرنسي الموجه ضد وجوده في المنطقة. وفي شهر جويلية ١٨٩٩ وصل الثقيب بريتوني إلى «كوكاك» حيث التقى بالسلطان عبدالرحمن جاورانج وتحركا معاً نحو «ديكوة» وخرج رابع للاقائهما قبل أن يصلا إليه، وتجمع جيشه الذي كان تحت قيادته في «كسرى»، ثم تحرك منها صوب الجنوب، وصل رابع إلى منطقة «توجباو» وبدأ الهجوم على القوات الفرنسية في ١٧/٧/١٨٩٩. وبعد معارك ضارية قضى على القوات الفرنسية بكاملها، فقد قتل الثقيب بريتوني والملازمان براون ودرزان والفرج شبكة فضلاً عن الجنود، كما تم أسر أفراد حاشية السلطان جاورانج والأسلحة على الأسلحة والأخيرة.

أما السلطان جاورانج فقد نجح من الأسر، فتوجه مع البقية من رجاله إلى قرية «كوكاك» واستقر فيها ينتظر مجيء القوات الفرنسية من إفريقيا الوسطى. وبعد ثلاثة أشهر من تاريخ المعركة جاء «أميل جانتي» وبدأ الهجوم على رابع الذي كان يتركز في «كونو»، ودامت المعركة ثلاثة أيام بلياليها، وعندما ثبقت رابع من استحالة تحقيق النصر أصدر أوامره بالانسحاب من بلدة كونو. والعودة إلى «ديكوة»، وبمجرد وصوله إليها أخذ يعيد تنظيم جيشه لمواجهة الهجوم الفرنسي القادم الذي يعلم أنه وشيك الوقوع، فقد أخذ الفرنسيون يتعقبونه، وطلب جانتي من الحكومة الفرنسية أن تمده بجيش يحقق به النصر التام، فصدرت أوامر بتحريك فرقة عسكرية من الجزائر بقيادة العميد «جرو» ولامبي» وأخرى عن النيجر بقيادة الملازمين «جولاند» ومانسير» والتقت الحملتان في بلدة «جولفي» وفي مارس ١٩٠٠م هاجمت مدينة كسرى وقتلت وألحقت بها بشارة خراج وأسرت عدداً من الجنود. ثم وصل جانتي والتقى بالحملتين، وعلى بعد (٦) كيلو مترات من مدينة كسرى، أقام رابع معسكره، وفي ٢٢ من أبريل ١٩٠٠م هجم الفرنسيون بقيادة العميد لامي على معسكر رابع وأندلع القتال بين الفريقين وركزت القوات الفرنسية قوتها على رابع بعد أن علمت أنه يشكل عماد القوة المعتبرة لجيشه في الميدان، وفي حوالي الساعة الحادية عشرة صباحاً من اليوم ٢٢/٤/١٩٠٠م قتل رابع، وهكذا سقطت مملكته بعد فترة مليئة بالأحداث المحلية والدولية.

الفصل العاشر

حركة محمد بن علي السنوسي الخطابي الادريسي الحسيني..

ولد محمد بن علي السنوسي في محلة الواسطة على منقفي وادي شلف من بلدة مستغانم بالجزائر عام ١٢٠٢هـ/١٧٨٧م، حيث كانت تقطن أسرته التي اشتهرت بالاحسان الى عرافة النسب بالعلم والدين، وقد توفي والده وهو في الثانية من عمره فأشرفت على تربيته وتعليمه عمته السيدة قاطمة، وهي من فضليات اهل زمانها ومتبحرة في العلوم الاسلامية منقطعة للتدريس والوعظ والارشاد، واعتنت بآبن أخيها وتولت بنفسها تربيته وتنقيفه، وأظهر محمد بن علي السنوسي منذ صغره شغفا عظيما بتحصيل العلوم الاسلامية فدرس في مستغانم القرآن الكريم واجاد حفظه، كما درس اللغة العربية والفقه والحديث والتاريخ والتصوف ثم انتقل الى «مازونة» لاستكمال دراسته على الشيخ الصالح طالب المازوني والشيخ أبي راس العسكري وغيرهما. ثم انتقل الى مدينة فاس وظل فيها الى أن حصل على «المشخة الكبرى» وعين مدرسا بالجامع الكبير بفاس.

وفي دروسه التي كان يلقيها على الطلاب، بدت معالم شخصيته القوية ومحددات المخطوط الرئيسية لتطلعاته واهدافه، واثارت مواظبه وانتقاداته لحالة المسلمين في المغرب مخاوف السلطان مولاي الحسن الذي احس بالخطر على سلطانه فشد الرقابة عليه، وكانت هذه الحالة عاملا من العوامل التي دفعت الى ترك مدينة فاس، قاصدا الحجاز لاداء فريضة الحج. وفي طريقه الى الحجاز يمر بجنوب الجزائر ليتعرف على اشهر الزوايا ومقدميها، فمكث في «الأغواط» التي كانت تتميز بأهمية موقعها بوصفها ملتقى القوافل الآتية من السودان الغربي يلقي دروسا في الشريعة واللغة العربية، ثم ارتحل منها الى مسعد ثم الى جلفة، ثم الى «بوسعد» ثم ترك جنوب الجزائر الى قابس بتونس ومنها الى طرابلس فينغازي فمصر فالحجاز، حيث نزل بمكة المكرمة سنة ١٢٤٠هـ - ١٨٢٥م، اقبل محمد بن علي السنوسي في مكة - بعد اداء فريضة الحج - على العلماء، يتعرف عليهم ويأخذ عنهم، والحق ان تشوقه للعلم وتواضعه في أخذه كان يبدو جليا في أي مكان حل فيه، وهذه خاصية افادته كثيرا ومكنته من الاطلاع على المذاهب والاتجاهات الفكرية المختلفة المعاصرة. واستقر بمكة والتحق بخدمة استاذاه الشيخ أحمد بن ادريس الفاسي (١١٧٣ - ١٢٥٣هـ) الذي اشتهر بالعلم والورع والتعمق في الدراسة الفقهية وفي الطرق الصوفية، ولما ارتحل احمد بن ادريس من مكة الى اليمن بسبب ما لقيه من عنف

السلطات ومعارضة علماء مكة الذين صاروا يتقرونه على اعتبار أنه كان لا يتفق في منهجه
وذهب مع ما اعتاد عليه هؤلاء العلماء من الزمان طويلة، ارتحل معه محمد بن علي السنوسي
إلى اليمن ولأزمه حتى وفاة استاذ به.

عاد السنوسي بعد وفاة استاذ به إلى مكة وأعلن حركته السنوسية وأسس أول زاوية له بحبل
إبي قيس عام ١٨٣٧م. وتعتبر هذه السنة بداية عهد الحركة السنوسية، ولم يستقر السنوسي
بالحجاز طويلا، إذ قرر العودة إلى الجزائر عام ١٨٤١، فأرسل بعض أتباعه وأهله بحرا إلى
قابس. وسار هو ببقية الأتباع على طريق البر، مارا بالقاهرة فسيوة فمصراته وطرابلس ثم قابس
حيث وجد أهله في انتظاره.

وفي قابس علم السنوسي بالاحوال التي عليها بلاده الجزائر فحمله ذلك على تغيير اتجاهه
والعودة من حيث أتى، ذلك أن الأمير عبدالقادر قد هدم زاوية «عين ماضي» وقتل شيخ الطريقة
التيجانية وطارده أتباعها، وقد عرف عن السنوسي بانتسابه إلى هذه الطريقة مما يعرضه واتباعه
لبطش الأمير عبدالقادر إذا اتجهوا جنوبا، أما شمالي الجزائر فكان الفرنسيون يسيطرون عليه ولا
يمكن دخوله خاصة وقد علم بطريقة حكمهم للبلاد ويطشهم بالعباد، وهكذا تقرر العودة إلى برقة
التي لاقاه أهلها بالترحاب وأكرموه هو وصحبه ورغبوا إليه البقاء والاقامة بينهم. فأقام السنوسي
في برقة واتخذها مركزا لدعوته، وذلك لعدة اعتبارات:

١ - حاجة برقة إلى الإصلاح، مما يجعلها أرضا طيبة لنشر الدعوة ونجاحها.

٢ - خلو برقة من الطرق الصوفية الأخرى التي قد يتنافس أصحابها.

٣ - موقع برقة الحساس بالنسبة للعالم الإسلامي العربي والأفريقي.

استقر السنوسي في بنغازي وأمر بعض أخوانه المرافقين له ببناء زاوية بالحبل الأخضر.
فأنشأوا أول زاوية للسنوسية في ليبيا على حافة وادي البرد بالقرب من قبر الصحابي الجليل
رويق بن ثابت الانتصاري، وتم بناؤها عام ١٨٤٣م. واشتهرت باسم «الزاوية البيضاء» وانتقل
إليها السيد السنوسي ومن لأزمه من الإخوان الذين كانوا ينضمون إليه من كل بلد. انتشرت
السنوسية في ليبيا انتشارا واسعا، وذلك بفضل نشاط الإخوان وإخلاصهم للدعوة السنوسية،
والنتائج الباهرة التي كانت الزاوية تحققها في المجتمع.

سافر السيد محمد بن علي السنوسي إلى الحج للمرة الثانية وعندما عاد إلى برقة وجد أن
الزاوية بدأت تخرج الأقواج الأولى من المعلمين والدعاة بحيث أصبح من الضروري إنشاء زاوية
جديدة تكون بمثابة الجامعة يتلقى فيها الطلاب تعليمهم العالي الذي يؤهلهم لحمل مسؤولية
الدعوة والعبادة وبعد دراسة مستفيضة اختار السنوسي «المجبوب» وذلك لعدة اعتبارات منها:

١ - أن منطقة المجبوب ليست ملكا لأي من القبائل، فيتجنب بذلك تنافس القبائل وتطلع
كل منها إلى إنشاء زاوية مماثلة في أراضيها، الأمر الذي لا يستطیع السنوسي تحقيقه لعدم توفر
العلماء المتخصصين الذين يحتاج إليهم الدراسات العالية.

٢ - أن بعد المجبوب عن المحضر يفرض على الطلبة الانصراف إلى تحصيل العلم.

ج - ان واحة الجعفوب التي كانت غير مأهولة بالسكان تشجع السنوسي اختيار سكانها الجدد وتكون بيئة صالحة برعاها للطفلة.

د - كانت الجعفوب تقع عند ملتقى طريقين هامين أحدهما طريق الحج، والآخر طريق القوافل التجارية الذي يربط بين دول حوض البحر المتوسط ومراكز التجارة في السودان الأوسط. لهذه الأسباب انشأ السنوسي زاوية الجعفوب، ولما لم يثابرها انتقل إليها عام ١٨٥٦م. وانتقله إلى الجعفوب دخلت الدعوة السنوسية في مرحلة جديدة، تقوم على أسس وقواعد مرسومة تضمن لها البقاء والاستمرار والاصلاح.

كان محمد بن علي السنوسي قد تأثر بأحوال العالم الاسلامي في عصره التي اشعرته بضعف السلطة الممثلة بالخلافة العثمانية، بالإضافة إلى شعوره بضعف العالم المسيحي على المسلمين، لا لاستغلاله اقتصاديا فحسب، بل لممارسة الحروب الضليعية في صورة جديدة. وما اثر عليه كثيرا تقدم ونجاح التصاري في القارة الافريقية، ولذلك ركز تفكيره على الاصلاح فصار هدفه ايجاد مجتمع مسلم يتألف من افراد فهموا الاسلام وتربطهم شريعة الله، وذلك حتى يستطيع هذا المجتمع صد اعداء الاسلام ورد اطماعهم. واغلب الظن انه انتهى بتفكيره إلى ان النجاح في تحقيق هذا الهدف لا يند وان ينتهي باصلاح السلطة وحل مسألة الخلافة، وكان يشعر بأن وظيفته في تعليم الناس شيء اقامه الله عليه، ومرة عبر بنفسه لاهل «وحقة» في رسالته لهم عن شعوره هذا حيث قال: «وقد طلب منا أناس ان نبعث معهم بعض اخواننا يذكرّون عباد الله ويعلمونهم ما فرض الله ورسوله عليهم ويهدونهم إلى سبيل الرشاد، وعرفنا على ذلك لكون هذه الوظيفة هي التي اقامنا الله عليها، نبيه العاقل ونعلم الجاهل، وترشد الضال» (١).

وبعد ان نجح في تكوين نواة المجتمع الذي كان يسعى إليه فكر بأن قيادة هذا المجتمع ستقذف العالم الاسلامي وتحكمه، ولذلك اصبح يرفع من منزلة محمد المهدي السنوسي ويتحدث عن جنود المهدي الذين سينقذون العالم الاسلامي من غزاة الكفار. كما يمكننا ان نستدل من محاولته نشر زواياه في مختلف اجزاء العالم الاسلامي ان هدفه كان يتصف بالشمول، ولا يستغني عن الشمول لانه مرتبط بنظرة ابن السنوسي للعالم الاسلامي باعتباره امة واحدة، ولا تتناقض هذه النظرة مع كون دعوته اقتصر على مناطق معينة لظروف خارجة عن ارادته.

كان السنوسي يتمتع بقدرة تنظيمية غير عادية، ويحس عملي دقيق للأحداث. فقد كان يربط بين الزوايا جميعا عن طريق توحيد ادارتها بمجلس الاخوان. وكانت الزوايا ترفع تقارير دورية إلى هذا المجلس، فيتولى المجلس دراستها ويقرر متى لزم الامر ايفاد مندوبين عنه للزوايا يتفقدون شؤونها ويدرسون احوالها وعلاقات المقدم أو الشيخ ومعاونيه بالمجتمع. ويتولى ادارة كل زاوية شيخ من كبار الاخوان يعاونه وكيل ومعلم صبيان وعدد من القدم، ويستعين ياخوان لدراسة المشكلات الاجتماعية التي تنشأ، ويتعاون معهم على حلها بالطرق السلمية (الصلح والقضاء).

وتعمل كل زاوية على تفسير شؤونها المالية مستقلة عن بقية الزاوية، ولها أن تزاود نشاطها تجاريا وزراعيا، وتلك المواشي، ولكنها تحت ما يزيد عليها إلى الزاوية المركزية. وقد كان مركز السنوسي الكبير أول الأمر - كما استلضا - الزاوية البيضاء - ثم أصبحت زاوية الجغبوب، ثم تحولت إلى زاوية التاج بالكفرة.

ويشترط السنوسي لمن أراد الانسحاب إلى الحركة، أن يحفظ القرآن الكريم ويقرأ الحديث والفقه. ويلزم الإخوان بثلاثة القرآن الكريم مرة في كل شهر فيجتمعون بعد صلاة الصبح والمغرب من كل يوم لقراءة جزء منه (الورد) ولا يجتمع الإخوان السنوسيون على غير القرآن وليس للإخوان السنوسيين مراتب غير السن وأقدمية الانسحاب إلى الحركة ولهم آداب معينة منها: أن أحدهم لا يسافر إلا إذا أذن له شيخ الزاوية، أما الشيخ نفسه فإنه يستأذن في السفر من السنوسي الكبير أو من ينوب عنه من كبار الإخوان. وللسنوسية تقليد منع في معاقبة من يسيء الأدب من الإخوان أو من أهالي المنطقة يعرف بالهجرة، ومعناه أن الشخص المهجور لا يجالس ولا يجادته ولا يتعامل معه أحد حتى يظهر توبته ويرجع عما سبب هجرته، ويعفو عنه السنوسي أو شيخ الزاوية.

لم يقتصر نشاط الحركة السنوسية على إقامة الشعائر الدينية وحدها، بل اهتمت إلى جانب ذلك بنشر الثقافة الإسلامية بين الناس بما كانت تقوم به الحركة من تحفيظ القرآن الكريم، وبما كان يلقى الدعاة من دروس الوعظ والارشاد، كما شجعت الحركة على الاستقرار والزراعة والتجارة والصناعة. وأسهمت في نشر الأمن في المجتمع الليبي، ونالوا التوثر المستمر بين القبائل التي كانت لا هم لها غير التفكير في شن الغارات والاخذ بالثأر. كما أن الحركة لم تقتصر على ليبيا وحدها، بل تعدتها إلى أن شملت جميع أقطار المغرب وتوغلت في أفريقيا جنوب الصحراء. فأسست زوايا لها في كل من مراكش والجزائر وتونس ومصر والسودان العربي والأوسط والشرقي، ثم امتدت إلى الجزيرة العربية، ولا تختلف الزاوية السنوسية خارج ليبيا عما كانت عليه في داخلها من حيث النظام والنشاط الذي تقوم به في المجتمع، مما جعل للحركة أكبر الأثر في إصلاح حالة العالم الإسلامي بصفة عامة، والعالم العربي بصفة خاصة.

لقد مات السيد محمد بن علي السنوسي سنة ١٨٥٩م، بعد أن نجح في إقامة حركة إصلاحية كبرى ودفن بزاويته في الجغبوب. وقد خلفه ابنه الأكبر محمد المهدي (١).

(١) أحمد صدقي الدجاني: المرجع السابق، ص ١٧٩.

محمد بن علي السنوسي آراءه ومذهبه الفكري.

لهم الحركة السنوسية يعني علينا فهم افكار ابن السنوسي. لقد ألف ابن السنوسي عددا من الكتب منها «آراء» في عدد من المواضيع. ولا نستطيع ان نحصر بدقة عدد الكتب التي ألفها ابن السنوسي ذلك ان بعضها منها طبع، وبعضها آخر لا يزال مخطوطا. كما ان بعضها الثالث فقد. وان من المهم جمع هذه الكتب وحصرها لاختلاف فكرة دقيقة عن صاحب الدعوة السنوسية.

وقد أورد اسماعيل باشا البغدادي في كتابه «هبة العارفين في اسما المؤلفين وأثار السنوسي». أشمل من خمسة وثلاثين مؤلفا بين كتاب ورسالة ذكر اسمها. ونسبها لابن السنوسي. وشملت هذه المؤلفات عددا من المواضيع. وان أكثرها يتناول مباحث فقهية وصوفية. وهذا يتفق مع شخصية ابن السنوسي التي أبرز ما فيها الجانبان الفقهي والصوفي.

والطريقة الصوفية عند ابن السنوسي وغيره من المتصوفة وسيلة للارتقاء بالنفس ومغالبة شهواتها الفاسدة. ولقد سبب التطرف عند بعض الصوفية انحرافات كثيرة. وموقف ابن السنوسي من هذه الانحرافات يتضح لنقده لبعضها ففي حديثه عن الطريقة «الصدقانية» يقول: «دخل الغلط في الاخلاق على جماعة من هذه الطائفة وذلك من قلة معرفتهم بالاجوال واتباعهم حفظ النفس. ولكنهم لم يتأدبوا بمن يروضهم ويخرجهم من الرغوات ويحرعهم المرات ويذلهم على المنافع الرضية في علاج عيوب النفس وطريق ذواتها. فمثلهم كمثل من يدخل بيتا مظلمًا بلا سراج. الا من اراد الله هدايته يجذب عنايته قاله هو الوالي الحميد». ويتعرض ابن السنوسي لانحرافات اخرى ولكنه يحاول تحليلها ويذكر حكمها في كتابه «السبيل المعين في الطرائق الاربعين». ومن أبرز الآراء التي وردت في كتاب المسائل العشر المسمى «بقية المقاصد في خلاصة المراسد» أن ابن السنوسي لا يرى التقيد بما ورد في المذاهب الاربعة. بل الاعتماد على الكتاب والسنة. وائتاء المذاهب أنفسهم. متفقون اتفاقا يفتينا على وجوب اتباع الرسول على الله عليه وسلم. وعلى أن كل واحد من الناس يؤخذ قوله ويترك الا الرسول. وهو ينتقد بشدة طائفتين. الاولى: تجمع بعض دخلاء الصوفية الذين لا يحفلون بالعلوم الشرعية. وتجمع الثانية بعض متغالي اتباع الأئمة الذين تعصبوا لمذاهبهم. وانه لا يؤمن باغلاق باب الاجتهاد. كما انه لا يرى وجوب التقليد بالنسبة للعالم. وانه يبسط شروط المجتهد (١). ويذكر احتمالات عدم وصول بعض الاحاديث للأئمة. وآراء ابن السنوسي الفقهية على جانب كبير من الاهمية بالقياس الى عصره الذي عاش فيه. فهي آراء يمكن وصفها جريئة وقد جابه تبعه لمئاته بها معارضة قوية يمكن تقديرها عند قراءة فتاوى الشيخ عليش فيه (انظر الفتاوى ص ٨٩).

(١) شروط الاجتهاد المطلق هي: (معرفة القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ومعرفة موضع الاصاح المتين، ومعرفة علم اصول الفقه، ومعرفة اللغة العربية، ومعرفة علم الفقه) وان يكون الاجتهاد في الطبقات. وما لا نص فيه. وما فيه نص يحتمل التأويل.

أما بالنسبة لأرائه الصوفية فإنه يؤمن بما يدعيه الصوفيون من الرقيا الضالحة والابتغال والكشف، وتلمس عنده تعسفا في دراسة الصوفية ولا عجب فقد تعرف عليها منذ صباه وتسلط بها حتى آخر حياته، وهو يؤمن بالصوفية كما يؤمن بالنسك بالكتاب والسنة، ويرد على من يستنكر مثل هذا المصح بين طريقتي الاقطاب والعلاء، فيقول: «قد بسري في وهم من ليس له وسوخ في علم القوم أن أحوال الصوفية بعضها مباحين لما عليه علماء الشريعة كما جاء به بعض المجهلة تعالبا أو تنقيصا فاعلم أن سبيل القوم رضي الله عنهم اتباع النبي صلى الله عليه وسلم، في الخليل والحقير، وكلما ازداد أحدهم اشباعا، ازداد كمالا ليكون الكمال الكلي عندهم في كمال الاتباع والا فليس منهم أو ناقص عندهم، فإن أعمالهم عندهم موزونة بميزان الشريعة فما رجع فيه قلبه وما لا تنفوه» (١).

قالصوفي كما يراه ابن السنوسي يتقيد في طريقه بالكتاب والسنة.

لم يقتصر محمد بن علي السنوسي على تسجيل أفكاره في كتبه، بل عمل على نشرها، كما أن أفكاره نفسها تطورت ونمت حتى تبلورت في حركته التي قام بها وقد اختار الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة أسلوبا له، كما تعمق في فهم المجتمع الذي أراد هدايته في برقة والمغرب والجزائر، ونجح في مهادة السلطة العثمانية المثلثة في ليبيا برجال الحكوة من والي وادارين، حتى أن علاقته بهم تجاوزت الرسميات إلى المودة والتقدير والتعاون، وكان بلجا إلى الاستفادة من المناسبات لتوضيح أفكاره، ويضمن في حديثه الترغيب والترهيب، ويشجلى تفكيره السليم في مجال نشر الدعوة عن شرائه للعبيد وتحريرهم، ثم تعليمهم واعادتهم إلى اهليهم لنشر الاسلام بينهم، كما يتجلى توجيهه السليم لآخوانه وطلابه فيما روي عنه من أن بعض الطلبة اتسوا منه أن يعلمهم الكيمياء، فقال لهم: «الكيمياء تحت سكة المحرات»، كما كان يشوق طلابه إلى القيام على الحرف والصناعات ويقول لهم مشجعا: «يكفيكم من الدين حسن النية والقيام بالفرائض الشرعية وليس غيركم بأفضل منكم» (٢).

ويمكننا بعد القاء هذه الاضواء على شخصية محمد بن علي السنوسي وآرائه وأفكاره - القول إنه من الدعاة المخلصين وأنه كان بعيد الهمة عظيم الاقتدار على التنظيم والاصلاح، غدا للجهل وخصما للاستكانة وضد الافكار العقيمة، ولم تشنه العقبات عن الاستمرار في العمل الاسلامي.

(١) محمد بن علي السنوسي: المسائل العشر، ص ١٦.

(٢) احمد صدقي النجاني، المرجع السابق، ص ١٦٦.

الحركة السنوسية في عهد محمد المهدي السنوسي

لم تتأثر الحركة السنوسية بموت مؤسسها محمد بن علي السنوسي، بل سارت في الطريق وانتشرت ذواياها في مختلف الاقطار. واتسع نشاطها خاصة في افريقيا جنوب الصحراء. بقيت «المجسوب» مركز الحركة الرئيسي بعد وفاة ابن السنوسي، حيث استقر بها محمد المهدي، وقد دام بقاءه فيها حوالي ست وثلاثين سنة (١٨٥٩ - ١٨٩٥ م). انتقل بعدها الى الكفرة، وخلال تلك السنوات كان المهدي يشرف على سير الحركة من الخجوب ويعاونه عدد من كبار الاخوان اعضاء المجلس الأعلى للنظام، وكان هذا المجلس يضم بالإضافة الى كبار الاخوان المقيمين في الخجوب كبار رؤساء الزوايا، وأنه كان يجتمع سنويا في الخجوب للنظر في اهم الامور برئاسة محمد الشريف، ثم تعرض قراراته على محمد المهدي. وقد وزعت الاعمال الرئيسية كالمالية والقضاء والتعليم والمراسلات والمقابلات وما الى ذلك من الاختصاصات التي يحتاجها النظام - على اعضاء هذا المجلس من كبار الاخوان. وبنت الحركة السنوسية في عهد محمد المهدي غوا كبيرا، فتضاعف عدد الزوايا أكثر من أربعة أضعاف، ولقد كان من أسباب هذا النمو السريع للحركة في عهد محمد المهدي بالإضافة الى طبيعة الحركة التي تتفق مع حاجات المجتمعات القبلية الصحراوية ما يتعلق بالمهدي نفسه. من ذلك طول المدة التي قضتها زعيما للحركة إذ تجاوزت أربعين سنة، فتتمكن أثناءها من تركيز العمل الذي بدأه والده ووجد متصفا من الوقت لتوطيد دعائم الحركة والتعرف على مختلف قبائل الصحراء ونشر الدعوة بينهم. ومن ذلك أيضا اعتقاد عامة تلك القبائل بمهدويته، مما جعلها تفرح لتقديم الولاء له وتخلص في اتباعه. ثم ان سياسته التي استهدفت البعد عن السلطة العثمانية وتحجب الاحتكاك بها وبالأوروبيين دفعته الى حصر جل اهتمامه بنشر الدعوة في الصحراء وجنوب الصحراء. كما كانت اختلافه ومزاياه الشخصية من الأسباب المهمة في اقبال سكان الصحراء عليه.

لقد عم القول بمهدوية محمد المهدي السنوسي بين الاخوان، حتى قال به عامتهم وبعض علمائهم، وهناك من لم يقل بذلك منهم، ولو أن هؤلاء لم يعملوا على تغيير الفكرة السائدة. وبما يروى عن أحمد الريفي أنه سئل عن مهدوية محمد المهدي فأجاب قائلا: «ليس على الله بعزير أن يكون المهدي المنتظر، وعلى كل حال فهو خير هاد، ومهدي في وقتنا هذا ونحن قد اكتشفنا بهديه» فهذا الجواب فيه دبلوماسيّة. الا ان محمد المهدي نفسه كان ينفي هذا القول وينهى اتباعه عنه، على الرغم من أنه سمع من أبيه قوله لكبار الاخوان «نحن من جماعة المهدي...» ولابد أنه سمع اقوالا أخرى، الا أنه فهمها على أنها نوع من التشجيع له وعمل على رفع منزلته امام الاخوان وخصوصا وأنه صغير السن.

وبنما كان اتباع السنوسية يقولون بمهدية محمد المهدي ظهر في السودان من ادعى المهدية، وهو محمد احمد المهدي، وقد حاول هذا الأخير استمالة المهدي وعقد صلات طيبة معه، ولكن محمد المهدي السنوسي رفض ذلك، وموقفه من دعوة محمد احمد المهدي السوداني يعزز رفضه

القول بالمهدوية
والقروى سياسية واستراتيجية انتقل محمد المهدي من الجغبوب في ٢٢ من شوال ١٢١٣ هـ
الموافق ١٨٩٤ م. وتوجه إلى الكفرة واتخذها مركزاً جديداً لحركته. وقد تناول المؤرخون هذا
الانتقال بالتعليل

وملخصه : أن البعض يرى أن استقرار الانجليز في مصر أجفل السنوسي ودفعه إلى الصحراء.
والبعض الآخر يرى أن السبب توقعه لغزو الطليان للبيضا كما توقع والده. وهناك من قال أن
السبب هو معاملة بعض مأموري الدولة العثمانية الذين كانوا يتحررون وينقبون عن السلاح في
الزوايا. والأرجح هو أن هذه الأسباب مجتمعة يضاف إليها أنه من الكفرة كان يقصد القرب من
السودان الأوسط وعمارة تلك الأماكن هي التي دفعته للانتقال. ومع أن الاهتمام السنوسي
بالسودان الأوسط قد بدأ في عهد المؤسس للحركة السنوسية، فإن هذا الاهتمام زاد في أيام
محمد المهدي حيث جدت أحداث في أقاليم السودان الأوسط جعلت محمد المهدي أكثر اهتماماً
بالحرص على القرب منها، إذ هددت تلك الأقاليم خطران كبيران، نجم أحدهما عن قيام سلطة رابع
فضل الله على انقراض مملكة البرنو الإسلامية. بينما كان عزم الفرنسيين على التوغل في السودان
الأوسط وسيط سلطانهم على الممالك الإسلامية (الكالم والوداي والباقرمي ودارفور والبرنو
وسغاي وسكتو) مصدر الخطر الثاني، وكلا الخطرين يهدد قوة الحركة السنوسية في تلك البلاد.
وقد جاء في رسالة يعتفها محمد المهدي إلى الزوايا في غنام ١٣١٣ هـ / ١٨٩٥ م. أن نشاط
جوايس الفرنسيين ظهر في برقة لمس نبض الحركة السنوسية حول موقفها من التغلغل الفرنسي
في السودان الأوسط وأخذ معلومات عن قوة السنوسيين.

وخطط محمد المهدي لجبهة هذين الخطرين فعمل على توطيد العلاقات بينه وبين الممالك
الإسلامية. فأرسل مبعوثه المرتضى أبو رخيص بكتاب إلى سلطان مملكة وداي يوسف. وكانت
العلاقات قوية بين السنوسية ومملكة وداي منذ عهد ابن السنوسي. ثم ازدادت الروابط بين محمد
المهدي والسلطان يوسف في المدة التالية، حتى طلب السلطان يوسف في أواخر عام ١٨٧٧ م. أن
يوفد محمد المهدي السنوسي أحد كبار الإخوان السنوسيين مندوباً خاصاً في عاصمته أبشة.
فأرسل إليه السيد محمد عبدالله السني. فوطد نفوذ السنوسية في وداي. كذلك اتصل سلطان
الباقرمي، وسلطان دارفور.

أقام السيد محمد المهدي بالكفرة مدة أربع سنوات ونصف، انتقل بعدها إلى «قرو» بالنشاد.
وانتخذها مركزاً للحركة حتى وفاته بعد الانتقال بحوالي ثلاث سنوات.

وكما حدث عند انتقال محمد المهدي من الجغبوب إلى الكفرة اختلف الكثيرون في تفسير
أسباب هذا الانتقال وتوعد أقوالهم. فانه كذلك عند الانتقال إلى «قرو». ولو أنه كان من
الواضح أن محمد المهدي إنما يريد من وجوده بواحة «قرو» أن يستطيع تنظيم المقاومة واتخاذ
الاهبة لمواجهة القوات الفرنسية الزاحفة نحو بحيرة الشاد.

وفي أثناء إقامة محمد المهدي في «قرو» أرسل محمد البراني إلى مملكة كانم. من زاوية في
لمواجهة التطفل الفرنسي في السودان الأوسط (١).
بدأت الحرب عندما تقدم الفرنسيون - بعد مقتل رابع - صوب مملكة كانم في حملة مزودة

بالبأسلحة والمعدات الحديثة. ونهيا السنوسيون لمقاتلتهم فوضعوا حامية كبيرة في بئر العلال.
وكان على رأسها أحمد الشريف ابن أخ محمد المهدي. بساعده شيخ الزاوية محمد البراني.
حدث الاشتباك بين الطرفين. فأحرز السنوسيون بعض الانتصارات. ثم تغلب الفرنسيون عليهم.
وسقطت زاوية بئر العلال في أيديهم في أوائل عام ١٩٠٢م. وسيطر الفرنسيون منذ ذلك
التاريخ على مملكة كانم. وبدأوا يتجهون صوب زاوية «عين جلكة» في منطقة بوركو. وسيطر
هذا الصدام سنوات بين السنوسية والفرنسيين في الشاد.

وفي أثناء الاشتباكات الأولى بين السنوسيين والفرنسيين في بئر العلال اشتد المرض على
محمد المهدي. ثم توفاه الله في يوم الأحد ٢٤ من صفر ١٣٢٠هـ الموافق ٢ من جوان ١٩٠٢م في
زاوية قرو. وقد خلفه في رئاسة الحركة السنوسية السيد أحمد الشريف. الذي توقفت الحركة في
عهد عن النمو والانتشار والسبب الرئيسي في هذا التوقف الظروف التي حدثت في المنطقة.
وتعني بها الحرب السنوسية الفرنسية الإيطالية. فقد اضطرت هذه الحرب السنوسيين إلى صب
جهودهم وقواهم في الجهاد المسلح. ولكن يهمن أن نذكر أن هذه المقاومة استمرت حوالي عشر
سنوات. وأنها كانت دفاعا عن النفس والعقيدة الإسلامية ضد العدوان الصليبي الذي عمل على
احتلال كل زوايا السنوسية في السودان الأوسط. ليثبت مركزه ويقضي على الدعوة الإسلامية
واللغة العربية في أفريقيا.

ويتضح مما استعرضنا أن الحركة السنوسية نجحت في إصلاح المجتمع البدوي. حيث تكون في
الصحراء. مجتمع متعاون متكافل تسوده روح الأخوة والسلام. كما نجحت في إقامة سلطة تمسك
بزعام الأمور وتشرف على الفرد والجماعة وتعمل على تحقيق أهداف الحركة. ولم تفرض هذه
السلطة نفسها بالقوة على الأفراد وإنما تبعوها راضين من أنفسهم لأنها نعت من إيمانهم بها. كما
تميزت بأنها حركة سلمية شعارها الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة. وبأنها حركة جددت في
المفاهيم الإسلامية وفتحت باب الاجتهاد. وخلصت الصوفية من الشوائب التي علق بها.
وعملت على نشر الكتاب والسنة بين المسلمين. ومع ذلك فإن بعض رواسب عصور الانحطاط
دخلت فيها من الجو المحيط. فلم يتسن لها أن تعطي الاهتمام الكافي للحركة العلمية الحديثة
ولم تحدث تغييرا جذريا في أساليب التفكير التي تميزت بها تلك العصور.

(١) الدكتور عبدالرحمن عمر الماحي : نشأة من الاستعمار حتى الاستقلال. ص ١٤٦.

الفصل الحادي عشر

حركة محمد بن عبدالله حسن (ت ١٣٤٠هـ / ١٩٢١م)

نشأ محمد بن عبدالله حسن كما ينشأ أمثاله من رجال الإصلاح، فقد حفظ القرآن الكريم في سن مبكرة، وتلمذ على شيوخ «بربرة» في الصومال ثم سافر إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج وليستكمل دراسته على أيدي كبار العلماء في الحرمين الشريفين، وكان عمره في ذلك الوقت خمساً وعشرين سنة.

وحين عاد إلى الصومال التقى بالشيخ محمد صالح السوداني شيخ الطريقة الصالحية، فنقل إليه - أي الشيخ محمد صالح - أخبار محمد أحمد المهدي وجهاده ضد الظلم والاستبداد والتغلغل الاستعماري في السودان.

كان الصومال في ذلك الوقت يمزق بين دول الاستعمار والطغيان، فبريطانيا تحتل منه جزءاً، وفرنسا تحتل جزءاً، وإيطاليا تحتل جزءاً، والحبيشة تريد منه أجزاءً لا جزءاً واحداً، أضف إلى كل ذلك تفرق الكلم في الداخل بسبب النزاع بين شيوخ القبائل ووقوف بعض مشايخ الطرق الصوفية موقفاً محايداً.

لقد بدأت حركة الإصلاح التي حمل لواءها محمد بن عبدالله سنة ١٨٩٧ بحملة واسعة أوشح فيها أهدافه من هذه الحركة، فقال في كلمات معبرة: «فشرعت في استعداد سريع من جهة، وخطب ومواعظ مؤثرة من جهة أخرى وكنت ادعو القبائل الصومالية للتحرر من الشك والتكاسل إلى اليقين والعمل، ومن التحالف والتخاذل إلى التعاون والتكاتف، ومن الخوف والهلع إلى الاقدام، والجراحة، ومن الاستسلام والذلة إلى الاستيصال والعزة، فاجتمع لدي عدد كبير من القبائل الصومالية فغرت في نفوسهم محبة دينهم ووطنهم وبغض عدوهم من الكافرين ومن يساندهم، وانطبعت معاني القرآن الكريم في نفوسهم وفهموا المقصد منها، وتعاهدوا على الجهاد والدفاع عن الدين والوطن والشرف، وأخذوا في الاستعداد بالرمح والسيوف والبنادق القليلة» (١).

ونجح محمد بن عبدالله حسن في جذب مشاعر المسلمين الصوماليين نحوه، وألهب حماسهم وبدأ في تأسيس «قوة» روعي في اختيار أفرادها العناية الفائقة، ووزعت إلى وحدات استحدث لها أسما، تعبر عن وظائفها أو طبائعها المختلفة وحدد دور كل منها في المعركة ومنها:

١ - شيخخال: أي كبار العلماء، ومهمتها الوعظ والارشاد وتعليم الناس.

(١) الدكتور محمد المعتصم سيد: مهدي الصومال (أسئلة مذهب وشخصيات)، ص ٨ وما بعدها.

- ٢ - غلوتين : أي اصحاب العيون الكبيرة . وهم المختصون بتربية الخيول المستخدمة في الحرب .
- ٣ - انطودين : أي اصحاب العيون الكبيرة المختصين بتربية المواشي كالابل والبقرة والغنم ويخصص انتاجها لمد الجنود وغيرهم بالمواد الغذائية .
- ٤ - منجلي : وهي إحدى الوحدات الحاربة الهامة وتحمل اسلحتها علامة م .
- ٥ - جريسري : أي الجناح الاعلى .
- ٦ - جريهوسبي : أي الجناح الاسفل .
- ٧ - ناجورة : أي المختصة بقطع الاسلاك الشائكة التي يتحصن بها الغزاة الاستعماريون .
- ٨ - ثوقسوح : أي الضعفاء الذين لا تتلائم احاسنهم مع طبيعة الحرب القاسية ولا يصلحون للعمليات الحربية .
- ٩ - طريش : وهم الذين يقتسمون الى صفات الحزم وينقصهم حسن الهذام والتنظيم في هبنتهم .

١٠ - صجد : وهم الرماة .

١١ - حجاتو : أي المغيرين .

واهتم محمد بن عبدالله حسن بتشبيد القلاع وبناء الحصون المنيعة واقامة مراكز استراتيجية ترابط فيها قواته ، وقد مضى محمد بن عبدالله في جهاده غير عابئ بالتضحيات التي يتعرض لها ، انه منطلق الايمان ، ومنطلق الايمان لا يضع في حسابه قيمة للمعسران والربع ، انها إحدى الحسنيين : (الشهادة أو النصر) .

وكما فعل «غردون» مع محمد أحمد المهدي ، حين كتب اليه قائلا : اني قادم اليك بحزوة اقطع بهم انفسك « فقد أرسل الجنرال «كوفل» القائد العام للقوات البريطانية هذه الرسالة الى محمد بن عبدالله وستنسفك نسفا اذا لم ترجع عن غيبك واذا لم تخمد ثورتك الجنوبية ، واعلم ان حكومة صاحبة الجلالة عظيمة جدا ، ولا يستطيع مجنون مثلك ان ينال منها شيئا . فارجع عما أنت فيه وعد الى صوابك قبل ان تقع المصيبة عليك وتندم على أعمالك السيئة » (١) .

وقد رد عليه محمد بن عبدالله قائلا : « من السيد محمد بن عبدالله حسن قائد القوات الاسلامية الصومالية الى الجنرال كوفل قائد الشيطان . قد اطلعت على رسالتك وفهمت منها جميع اغراضك الدنيئة واغراض حكومتك الوضيعة واعلم ان قواتكم التي تفاخرون بها لا تساوي لدي شيئا واعلمك ايضا انكم اذا كنتم تحاربونني بقواتكم الهائلة الكثيرة العدد ، فلاني اقاتلكم بنيتي الصالحة ويايمانني القوي ، ويعزمتي التي لا تعرف الملل ، ومهما تكن الظروف لن استسلم لك وأكون للشرك عبدا » (٢) .

(١) الدكتور عبدالودود شلبي : المرجع السابق ، ص ٢٦٣ .

(٢) الدكتور محمد المعتصم سيد ، المرجع السابق ، ص ٤٦ .

لقد طار صواب القائد البريطاني « كوفيل » بعد هذا الرد الحاسم، وبدأ بجمع قواته لخوض معركة فاصلة مع محمد بن عبدالله. لقد بدأت المعركة وسقط الجنرال كوفيل تحت سباتك حبل المجاهدين والقدامى. وكان وقع هذه الهزيمة كوقع سابقتها - في الخرطوم - أديسا ومرتدا ومطرفة. وقد رأيت بريطانيا بعد هذه الهزيمة سلوك طريق آخر.. أن حبلها كثيرة في اصطيد الزعماء والمجاهدين في العالم الإسلامي.

وبدأت المفاوضات. وكان طلب الحكومة البريطانية يتركز في صورة وقف القتال وإلغاء السلاح. وفي نظير ذلك تعترف الحكومة البريطانية بمحمد بن عبدالله حسن ملكا على الصومال كله.

لقد تكرر هنا ما فعله « غردون » مع محمد أحمد المهدي بتعيينه سلطانا على « كردفان » وسرى كيف كان رد محمد بن عبدالله، كما عرفنا رد مهدي السودان.

لقد أمر أنصاره أولا بزد الهدايا التي بعث بها إليه نائب الملكة في الهند، ثم وجه حديثه بعد ذلك إلى رئيس الوفد: « انني لم افكر في يوم من الايام أن اكون ملكا.. ولم يكن ذلك هدفي.. في الحاضر ولا في المستقبل.. ولكن هدفي الوحيد هو أن اطرد الاستعمار من بلادنا وأعيد إليها حقوقها المقتصة، واطهرها من الشرك والتفان ولست أبالي بعد ذلك أن أحي أو أموت ».

إن المسلم قبل أن ينطلق للجهاد في المعركة يكون قد خاض معركة الجهاد الأكبر في نفسه مع الشيطان. ومع هواه وشهوته، مع مظامعه ورغباته، مع مصالحه ومصالح عشيرته، مع شارة غير شارة الاسلام، ومع كل دافع الا العبودية لله، وتحقيق سلطانه في الارض وطرد سلطان الطواغيت المقتضين لسلطان الله عز وجل.. لقد حمل محمد بن عبدالله اعباء الجهاد في الصومال ضد أربع دول من دول العدوان - بريطانيا وفرنسا وإيطاليا والحبيشة - قبائله لفرنسا رأيت بريطانيا أن ترمي معها اتفاقا لمنع تسرب الأسلحة من ميناء « جيبوتي » إلى قوات محمد بن عبدالله. وبالنسبة لإيطاليا فإنها رأيت في حركة محمد بن عبدالله تهديدا لممتلكاتها في البلاد الاسلامية التي سيطرت عليها، فقررت أن تقف بجانب بريطانيا لمساعدة لها أو حماية لمصالحها. أما الاحباش فإن دورهم في حرب الاسلام والمسلمين أصبح جزءا لا يتجزأ من تركيبهم العضوي، وقد وجدوا في هذا التحالف مع الدول الاستعمارية فرصتهم الذهبية للانتقام والتشفي.. انها معركة غير متكافئة من غير شك.. انه قدر كتب على الامة الاسلامية في هذه المرحلة الخالكة من تاريخها.. وقد مضى محمد بن عبدالله في جهاده غير عابئ بالتضحيات التي يتعرض لها.. واستأنى على كل أغراء عرفته الدنيا.

لقد حدثت اشتباكات عنيفة بين المجاهدين وقوات الاحتلال الاجنبية في كثير من المواقع، كما حدثت عديد من الاصطدامات المسلحة بين المجاهدين وبعض القبائل الصومالية الموالية للدول الاستعمارية.

لقد أيقنت دول الاستعمار - بعد فشلها في حصد شوكة الاصلاح - أن القتال والسيف

يزيدان حذوة الجهاد والاستشهاد في القلوب بأجرها، وأهل هو المصير مرة أخرى إلى طلب المفاوضات وعقد معاهدة صلح.

علم محمد بن عبدالله حسن أن حركته قد اشتدت وقطعت شوطاً بعيداً بحيث وصلت إلى مرحلة فرضت نفسها على الآخرين، وتأكد أن محاولات الدول الاستعمارية الرامية إلى الانسحاب قد فشلت، وأن جهودها في هذا المضمار قد تبذرت نهائياً، وحين الوقت ليطلق «باب السياسة» علماً منه أن الظروف مواتية لأجراً، اتصالات واسعة النطاق على الصعيدين الدولي والمحلي، فقرر فتح باب المفاوضات للصلح مع إيطاليا طالما ألحت عليه وذلك للتوصل إلى اتفاق لتوقيع هدنة، وفي نفس الوقت قرر أجراً، مباحثات مع كل من ألمانيا والفرنقة العثمانية لطلب المساعدة العسكرية والفنية كما قرر الاتصال بالعلماء ورؤسا القبائل للخطابة بتأييد حركته ومساندتها (١).

وفيما يلي نص اتفاق الصلح والنتائج التي ترتبت عليه.

القرص من هذا الاتفاق عند كلا الجانبين هو الوصول إلى صلح وأمان يعمان جميع أنحاء الصومال، والجانبان هما: يسطورتزا، المبعوث الخاص الإيطالي، والسيد محمد بن عبدالله حسن، النائب عن نفسه وعن أخوانه المجاهدين، وقد اتفقا على المواد التالية:

١- السيد محمد المذكور أعلاه وأنصاره من جانب وإيطاليا ورعاياها وغيرهم من جانب آخر يكونان في تصالح أيد، وكذلك يكون السيد محمد وأنصاره من جانب وبريطانيا ورعاياها وكذلك الحبشة من جانب في تصالح أيد، وإيطاليا هي المسؤولة والثانية عن نفسها وعن رعاياها وعن بريطانيا ورعاياها، وأي تشاجر أو مخالفة بين الجانبين سيجل بالمفاوضات والوقائق، ويكون رئيس المفاوضة إيطاليا، وللانجليز أن يحضروا المفاوضات إذا كان الخلاف متعلقاً بجانيهم.

٢- قد تنازلت إيطاليا للسيد محمد بن عبدالله، عن جميع السواحل التي تقع بين (كرعد وكيج) لكي يتخذها بلداناً ترسو فيها سفنه التجارية، وإيطاليا تراقب تلك البلدان من جهة البحر حيث أن مياهاها لم تزل في حمايتها وأن تجعل في تلك البلدان وكيلها إذا احتاجت إلى ذلك، ويمكنه اتخاذ عساكر له للحرس، وعلى السيد محمد بن عبدالله، أن يؤمن هذا الوكيل ويساعده ويقدم له العثور من واردات وصادرات تلك البلدان.

أن حكم تلك البلدان يكون دائماً للسيد محمد بن عبدالله، والسيد محمد هو المنتصر عن إيطاليا حتى ترسل وكيلها، وعلى السيد محمد تأمين تلك البلدان وطرقها وأن يحكم رعايا الدول الثلاث التي في تلك البلدان بالعدل والانصاف.

٣- يكون بيع البضائع حراً في تلك البلدان باستثناء السلاح، وعلى السيد محمد أن يتعهد بذلك.

٤- الأراضي المعروفة والمعترف بها للمجاهدين هي: (نغال وهيبو) وعلى الانجليز أن يتزلوا

(١) محمد فريد السيد حجاج: صفحات من تاريخ الصومال، ص ٤٩ - ٥٠.
والدكتور عبدالودود شلي: المرجع السابق، ص ٢٦٥.

عنها وكذلك عن التساؤل التي ذكرناها وهي الواقعة بين (كرعد - وكيج) وكذلك أراض أخرى
ستتم إلى حدود المجاهدين من جهة سلطان مجرتينا وهيمو. وعلى السيد محمد ألا يترك
انصاره إلى تلك الجهات إلى أن يعود الوفد بموافقة الحكومة الإنجليزية بالتنازل عنها.
وعلى السيد محمد أيضا أن يعقد صلحا منفردا مع السلطان (المجرتيني) ومع قبيلتي
غير محمود، وعيسى محمود، حيث انهما لا يعترفان رسميا بسلطة السلطان عليهما، رغم
انهما من ضمن قبائل المجرتينيين.

٥ - كل ما يحدث للمجاهدين مما يخل بسلامتهم وامنتهم يجب ابلاته قورا إلى الحكومة
الاطالية لتتخذ الاجراءات اللازمة وتكون لجنة تقوم بتنفيذ هذا الصلح من الجانبين وتتصل
بالجنة ويكون لها عضو في تلك اللجنة.

ولم التوقيع على الاتفاقية بتاريخ ٢٨ من ذي الحجة ١٣٢٢هـ/ ٥ من مارس ١٩٠٥م (١).
إذا درسنا مواد هذا الاتفاق وناقشناها مناقشة دقيقة نجدها تحتوي على عبارات مظافة غير
محددة تحتمل عدة تفسيرات وتأويلات شتى، من شأنها أن تزيد الطين بلة وتخلق مشكلات
جديدة في غاية التعقيد.

ويبدو أن كلا الطرفين قد نعمد قبولها وانغمض عينيه عن عيوبها على الرغم من عدم دقة
صياغتها واقتارها إلى التحديد والتوضيح، كي تتيح له فرصة التحلل من مسؤولياته تجاه
تطبيق نصوص الاتفاق.

ولقد كان لكل من ايطاليا والمجلترا والحبيشة اغراض واهداف من عقد المصالحة، ولكنها لم
تكن حنة الية صادقة العزم في مطالبتها بإبرامها، ولم تكن تستهدف من ورائها سوى الخداع
وانخاذها حيلة لكسب الوقت واستغلال فترة الهدنة. ولذا أطلق المجاهدون على هذا الاتفاق اسم
صلح الخديعة.

النتائج التي ترتبت على الاتفاق :

ان المؤامرات التي صاحبت صلح الخديعة قد تركزت على النقاط التالية:

١ - محاولة زعزعة ثقة المجاهدين بالسيد محمد بن عبدالله، كجزء من حملة التشكيك
والحرب النفسية.

٢ - دفع القبائل الواقعة تحت سيطرة المستعمرين وتآليها مع المجاهدين لضرب الصوماليين
بعضهم ببعض وصرف اهتمام المجاهدين عن مهمتهم الاساسية وهي الدعوة إلى الاسلام والجهاد
في سبيل الله والنضال ضد المستعمرين.

٣ - تصوير تصرفات السيد محمد بن عبدالله حسن امام العلماء واظهارها بأنها منافية
للشريعة الاسلامية، وذلك للنيل من سمعته والتشكيك في اهداف المجاهدين الرامية إلى اعلا.

(١) عميد أركان حرب محمد حجاج : المرجع السابق، ص ٥٠ - ٥٢.

كلمة الله وتطهير البلاد من الاثباتية والتصاوتية والسيطرة الاجنبية.
وقد أدت هذه المؤامرات والسياسات الى تجهيز القتال مرة أخرى بين المجاهدين والعلماء وغيرهم
من الدول المتحالفة معها. ويبلغ عدد الانتصارات والمعارك بين المجاهدين من جانب - والدول
الاستعمارية والقبائل الصومالية الدائرة في فلكها من جانب آخر - ٢٨ والمرة
وحيث ان سياسة الدول الاستعمارية تجاه الحركة الإصلاحية تعتمد على الاستنزاف بواسطة
القبائل المتحالفة لسيطرتها فانها رأت ان القبائل التي نشن على المجاهدين غارات بصورة فردية
قليلة التأثير على قوة السيد محمد بن عبدالله وفروا بدلا من ذلك وقع سلطنتي محرتينا
وورسحلي الاكثر قوة وتنظيما للاغارة على المركز الرئيسي للمجاهدين قربهما اليه. وخرج من
كل من محرتينا وورسحلي جيش كبير مجهز بأحدث الاسلحة. وانضم الجيشان في الطريق حتى
وصلا الى مكان يسمى «بران» ولكن السيد محمد بن عبدالله حسن جمع قواته ونظمها ووضع
خطة أدت الى الحاق هزيمة نكراء بالمغبرين. وكسبت قواته المعركة بأكل الحيات ثم قامت بعد ذلك
معركة «نغال» بين المجاهدين والقوات البريطانية اسفرت عن هزيمة البريطانيين وابتداهم عن
أحرمهم. وفكرت بريطانيا ان تجلو عن الصومال الشمالي. ولكن نوقش هذا الموضوع في مجلس
اللوردات في جلسته المتعقبة بتاريخ ١٩١٠/٤/٦م.

وتحدث اللورد «كودوني» وانتقد سياسة الحكومة البريطانية في هذه المنطقة لعرضها الجلاء.
عن الصومال لما له من تأثير في السياسة البريطانية في شرفي افريقيا. وكذلك تناولت الصحف
البريطانية هذا الموضوع وعارضت هذا القرار. كما ان المندوب البريطاني المعارض لفكرة الجلاء.
قام بتدبير جمع التوقعات من الاهالي احتجاجاً على قرار بريطانيا الخاسر بالجلاء. فاضطرت
بريطانيا الى اعادة النظر في قرارها متأثرة في ذلك باحتجاجات سكان محمية الصومال
البريطانية ووعد ايطاليا بمساهمتها الفعالة ومشاركتها في الحرب ضد المجاهدين بصورة جدية.
ثم وضعت ثقلها في الصومال مما أدى الى تحولات كبيرة في الوضع العسكري والسياسي
للمنطقة. وبالتالي ألحقت بالمجاهدين الهزيمة.

وتتلخص العوامل الهامة التي اتاحت لبريطانيا فرصة هذا الانتصار الحاسم فيما يلي:

- ١- انتصار الحلفاء على المانيا والدولة العثمانية في الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ - ١٩١٨م) وظهور سلاح جديد في ميدان القتال ضد المجاهدين.
- ٢- ان بعض الصوماليين ومن بينهم افراد من المجاهدين قتلوا على أيدي المجاهدين انفسهم
بانتقامات غير مؤكدة في صحتها على انهم جواسيس أو موالون للاستعمار أو متعاونون لحكم
السيد محمد بن عبدالله مما كانت له نتائج سيئة واتاحت لاعداء الحركة استغلالها باثارة روح
الحقد والكراهية في الاهالي ضد السيد محمد بن عبدالله وانتصاره.

وقد سبب ذلك ما يلي:
(أ) استغلال العناصر الموالية للاستعمار وهذه النقطة لتسيط حملاتها الدعائية على السيد محمد، بالانحسار بعض العلماء، الذين تنزعوا بإصدار غشوى عفرضة تهدف إلى تأليب الرأي العام ضده.

(ب) تحلي بعض مشايخ القبائل عن تأييد السيد محمد بن عبد الله، مما أدى إلى انقطاع شعبيته وتلاشي حركته.

وعلى الرغم من الحروب التي شنتها الدول الاستعمارية على الصومال، وعلى الرغم من حركات التنصير بإمكاناتها الضخمة التي واكبت دخول الاستعمار، فقد استطاع الصوماليون أن يحافظوا على عقيدتهم الإسلامية وأن يختاروا اللغة العربية لغة رسمية للبلاد، وأن يجعلوا الصومال مركزاً ينطلق منه الدعاة إلى الحجة وكينيا وسائر المناطق في شرقي إفريقيا.

الفصل الثاني عشر

الآثار التي ترتبت على الحركات الإصلاحية في إفريقيا

لقد نجحت الحركات الإصلاحية في إفريقيا في تفتية الشوائب التي عقلت بالعقيدة الإسلامية وفي القضاء على تسلط الحكام المحليين وإقامة نظم جديدة تختلف عن النظم السائدة. وإذا كانت هذه النظم قد استمرت وعاشت فترة طويلة من الزمان بلغت ما يربو على قرن فإن بعضها كان قصير الأجل بسبب الصراعات المحلية والتدخل الخارجي الضلبي. لكن بالرغم من ذلك فقد استطاعت الحركات الإصلاحية في إفريقيا إقامة مجتمع إسلامي يضم مجموعة من العلماء الذين لعبوا دورا كبيرا في تشكيل المجتمع والقضاء على كثير من العادات والتقاليد الاخرى القاسية. وساهموا في غرس أسس العقيدة الإسلامية الصحيحة. كما أذى جهاد هؤلاء المصلحين إلى نشر الثقافة الإسلامية واللغة العربية في مناطق جهادهم. وأصبح القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين - عصر ازدهار تلك الثقافة الإسلامية. ويرجع ذلك إلى المؤلفات الفخمة التي أنجزها زعماء الحركات الإصلاحية والدعوة إلى الارتقاء بالنفس إلى درجة الصفا والطهارة. والنسك بالكتاب والسنة والعمل باللغة العربية. ووقفت هذه الحضارة الإسلامية سدا منيعا أمام التغلغل الاستعماري الذي لم يستطع القضاء على تلك المجتمعات التي ظلت تحافظ على صفاتها ومبادئها الإسلامية حتى يومنا هذا.

إن الحركات الإصلاحية ما هي إلا صحو إسلامية كانت تسعى لتجديد الفكر الإسلامي وتنقية العقيدة من الشوائب وتطبيق الشريعة في السلوك والمعاملات وتعميقها في النفوس. ومن ثم فإنها ساعدت على انتشار الإسلام بين الأحيائيين في إفريقيا. واستمرار النظم الإسلامية القائمة. ووقفت بحزم ضد كل عمليات التمرد والعصيان في الداخل وضد كل خطر خارجي يهدد الإسلام والمسلمين.

فقد قاوم رجال الإصلاح الاقارعة ذلك التدخل الأوروبي الاستعماري ورفضوا التنازل عن بلادهم للنصارى وظلوا يحاربون دفاعا عن الإسلام والمسلمين. ولم تستسلم جيوشهم بالرغم من قلة تدريبها وعدم كفاءة أسلحتها مع الأسلحة الأوروبية الحديثة. كذلك ساعدت الحركات الإصلاحية على استقرار البدو الرحل وأنشاء المدن والقرى والمدارس والمساجد في مختلف المناطق. وقد واکب هذا الاستقرار تطور الزراعة والتجارة والصناعة التقليدية والخدمات التعليمية وغيرها. حيث ظهرت في المدن الكبرى أسواق عامرة عمت شهرتها الآفاق. وأحسن الناس بالامن والطهارة. بعد أن فرض زعماء الإصلاح العدل والأخوة بين كافة الناس.

وعلى الرغم من تعرض أفريقيا للاستعمار الأوروبي، فإن الآس التي وضعها زعماء
الحركات الإسلامية في القرن التاسع عشر لا تزال آثارها باقية حتى يومنا هذا. ولعل الفارس
اليوم لأحوال المسلمين في أفريقيا يفس بوضوح المعالم والآثار العتيقة لهذه الحركات. رغم جهود
الاستعمار الأوروبي في القضاء على الكثير من مبادئ وتعاليم الحركات.

القسم الثالث

الفصل الأول

مناهضة النصارى للدعوة الإسلامية في إفريقيا

لقد حقق الإسلام في إفريقيا نجاحا عظيما لا يمكن تقديره الا بتصور قوة زحف الاستعمار الأوروبي والإرساليات التنصيرية والمبالغ الطائلة التي تنفقها الدول الأوروبية على تلك الإرساليات.

وقد كان البرتغاليون أول من قام بالحركة التنصيرية في ساحل الذهب (غانا) وجنوب غرب إفريقيا وموزمبيق. في القرن الخامس عشر الميلادي. ثم دخل الاسبان هذا المجال في الفاهومي وغينيا، وتنافس المبشرون الفرنسيون إلى السنغال وساحل العاج وفولتا العليا (بوركينافاسو). ومنذ عام ١٨١٥م. أصبحت السيراليون مركزا للبعثات التنصيرية الألمانية تعمل في حوض نهر الكونغو والتوجو والكاميرون وتنيجنيا، نشطت البعثات الانجليزية في نيجيريا وغانا وجنوبي القارة الافريقية وشرقها..

وقد اشتركت اكثر الامم الأوروبية في حركة التنصير في إفريقيا بطريقة مباشرة او غير مباشرة. ونقلت مذاهبها المختلفة إلى المنطقة. فالملذهب الكاثوليكي انتشر في المستعمرات الفرنسية والبلجيكية والاسبانية والبرتغالية، اما المذهب البروتستانتي، فقد انتشر في المستعمرات الانجليزية، والالمانية، والامريكية، وقد تنافس النصارى الكاثوليك والبروتستانت حول تنصير الافريقيين الاحياءيين وتشكيك الافريقيين المسلمين في عقيدتهم الاسلامية.

وكان المبشرون يعتمدون في أول الامر على الاتصال برعاة القبائل فيتنصر بعض هؤلاء طمعا في الهدايا التي تقدم اليهم أو رغبة في حماية أراضيهم من غزو استعماري آخر، أو خوفا من منافسهم..

ولما استقر المستعمرون الأوروبيون ادخلوا نظمهم السياسية وفلسفاتهم الحضارية في إفريقيا. وفرضوا على الممالك الاسلامية وفرضوا العزلة على البلاد وقطعوا صلاتها بالدول الاسلامية الاخرى، وحاربوا الاسلام واللغة العربية، وفرضوا اللغات الأوروبية على الافريقيين وأنشأوا المدارس التي ثبتت ثقافتهم وافكارهم وقد حرص المستعمرون على طمس معالم الحضارة الاسلامية والفكر الاسلامي في إفريقيا، وادعوا بأن إفريقيا كانت مجهولة وغير متحضرة، وان رجال الاستعمار الأوروبي أمثال: لفتجستون ويكر وكستنائي وبرازا، هم الذين اكتشفوا إفريقيا مع انها كانت معروفة، وللمؤرخين والرحالة المسلمين أبحاث مسجلة عنها. وكذلك عمدوا إلى

نقل القوات الاسلامي الى العواصم الأوروبية رغبة في احتلاله والاستفادة منه، ثم الغنا - عليه
لم حتى الاستعمار فحصل على التجار المسلمين الذين كانوا يحصلون معهم الاسلام الى انحاء
افريقيا. حصلت عنيفة منها اياهم بتجارة الرقيق. ولذلك وضع قيودا على تنقلاتهم حتى يفسح
المجال للمبعثات التبشيرية التي بدلت لتي مدارسها وكنائسها ومستوصفاتها.
وقد اتبع المشيرون طرقا وأساليب جديدة بعد الحرب العالمية الأولى بقصد تنصير الافريقين
الاحياءين وغيرهم. منها تفصيل المسيحي على غيره في التعليم والتوظيف والبعثات الدراسية.
كما اتخذ الفاتيكان بعض التدابير لتوطيد المسيحية في البلدان الافريقية منها العمل على
تخريب ١٨٠٠ راهب و ١٥٠ أسقفا من الافريقين سنويا ليشجعوا ان يتفاهموا مع اخوانهم في
افريقيا.

واذا كانت هذه التدابير قد اتخذها الفاتيكان منذ عام ١٩٦١ فإنها اليوم بالتأكيد قد تغيرت
وتطورت وأصبحت أشد خطرا على الاسلام والمسلمين من ذي قبل.
وما ذكر في هذا الفصل ان أسقف غانا لم يستطع ان يتفهم رغبة الافريقين في الوحدة
والتمحرر. ولما صرح برأيه طرده الرئيس فوامي نكروما.

في أواخر عام ١٩٩٠ عقد مؤتمر للمبشرين في برلين الغربية وكان الاجتماع خطيرا. لأن
المبشرين كانوا يرغبون في ايجاد حل لأكبر معضلة في نظرهم - واجهت التصراية في القارة
الافريقية. ذلك ان التنصير قد بدأ ينكش اثر عدد من الهجمات في الدول الافريقية الاسلامية
التي نالت استقلالها. فقد تلقى المشيرون معارضة منظمة في كل من مالي وغينيا والسنغال
والكاميرون والنشاد بسب ارتباطهم بالاستعمار. وتمع المشيرون من ممارسة نشاطهم في هذه
الدول. ولكن المال والتنظيم والعمل الجاد والصبر على المكاره ونفوة النخبة التي سهرت على
تعليمها وتشقيها في عهد الاستعمار. مكتسبهم من العودة الى ممارسة نشاطهم التنصيري
والتكيف مع التطورات المحلية وصايرة الاوضاع السياسية الجديدة في افريقيا بوسائل وأساليب
عصرية فعالة.

لقد كان التنصير في كثير من مظاهره عملا يؤيده الاستعمار ويدعمه بكل قواه العسكرية
والدبلوماسية والاقتصادية. ولقد انتشرت المسيحية في كثير من انحاء القارة الافريقية في ظل
الحروب والسادق. لأن المستعمر كان يحمل الانجيل في يد والبنديقة في اليد الاخرى.
وفي هذا الصدد يقول احد الكهان الافريقين. اذا كان الاستعمار يريد ابقا. سيطرة شعب
على آخر لأطول مدة ممكنة. واذا كانت التبعية هذه لا تقتصر على التاحيتين الاجتماعيتين
والاقتصادية. بل تتعرض الى توازن الانسان الروحي والنفسى. فما هو واجب المسيحي ازا. هذا
الموقف الحالي من الانسانية؟

ويقول البير تينود جري. في كتابه افريقيا الشائرة: «ان علينا ان نعترف بأننا ربطنا في كثير
من الاحيان مصير الكنيسة في افريقيا بمصير أوروبا الاستعمارية. ذلك ان صحيفة الفاتيكان
الرسمية كانت ولا تزال تدافع عن آراء المستعمرين أو تنبئ بعضها».

ولقد ثبت لكل من معنى باصلاح الامراض الاجتماعية ان الاستعمار عمل ولا يزال يعمل على
تضيق القيم والفضيلة. وقد قال احمد شوقي
واذا أصيب القوم في أخلاقهم

فأقم عليهم سائقا وعسولا
والما الأمم الاخلاق ما بقيت

فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وكم من مجتمعات تنبأى بقوتها وتزهر بطاقاتها، وتتسخر اعجابا بقدراتها، فإذا بها
تضحل وتفسح عنها تلك القوة وبأخذها النعاس فتغفو وما هي الا فترة قصيرة حتى تغرق في
نوم غسق وسبات مميت، ولا تكاد تفتح عيونها وتستيقظ حتى يتبين لها ان تلك القوة والعظمة
قد ذهبت ولم يبق لها اسم ولا رسم ولا صورة ولا جسم، وحل محلها الضعف والوهن.
ومن هذا المنطلق صار الاستعمار يتخذ الاساليب السالبة للشخصية والقادرة على تحطيم
المجتمعات والشعوب. فلا عجب اذا رأينا مشرا يحذر امم الغرب من المسلمين الذين لا يزالون
متسكنين بالاسلام والعفة والطهر والسجيا الحسنة، فيقول:

«... اني أخشى ما أخشاه أن ترثا امة لا يزال جسدها طاهرا، ولكن من حسن حظنا انها الى
الآن لم تعرف نفسها ولم تع قدراتها... الا وهي الامة الاسلامية».

وبذلك ترى التصارى بصفة عامة يناهضون الاسلام في كل زمان ومكان. يشن الوسائل
كالحيا، الثعرات ونشر الانحلال والرذيلة في المجتمع... ولقد استطاعوا ان يقتنعوا بعض المسؤولين
في البلدان الاقريقية ان غير الاحيائي والمسيحي اجني عن البلاد. وعلى هذا لا يتمكن الطلاب
المسلمون من مواصلة دراستهم، بل ان بعض المسلمين اضطروا لأن يضيفوا الى اسمائهم اسما
اوروبي أو احيائي حتى يتمكنوا من الحصول على حقوقهم الوطنية.

أما الموظفون المسلمون فقد كانوا يلاقون ظروفًا قاسية، إضافة الى انهم لا يوضعون في مراكز
مهمة.

هذا الضغط الذي عايشه المسلمون فترة طويلة من الزمن ترك آثارا سيئة في نفوس الاجيال
الصاعدة، إذ صار الابتعاد عن الاسلام وعدم الاعتزاز بالهوية الاسلامية بأخذان طريقتهما في
الناس.

وهنا يتعلق بنشر الانحلال والرذيلة، فقد بأخذك العجب وأنت تسير في شوارع أي عاصمة
من عواصم افريقيا جنوب الصحراء، حيث يخيّل اليك ان حانات الخمر أكثر من حانات السلع
التجارية الأخرى. وربما لا تجد متجرًا أوروبيا يخلو من جزء خاص بالخمر. وكثيرا ما ترى الرجال
والنساء، في منعطفات الشوارع يشربون الخمر ويعربدون ويظفون في الحانات برفصون حتى مطلع
الفجر، خاصة ليلة الأحد.

وما يخرق المجتمع الأفريقي في شرب الخمر إلا بعد أن روج التصاري في أفريقيا هذه التجارة
القاسية، وأنشأوا لها المصانع وسروا شراها للجميع، وغصوا النظر عما يترتب عليها من
أضرار. ولذلك فقد ضرب الفساد الخلقى جذوره إلى الأعماق في المجتمع الأفريقي وتسرب إلى
الجامعات والمدارس، وهكذا تكون الأخلاق العالية قد أفلت. وبغروبها يزاد المجتمع ارتكاسا في
الأحوال والمهاوي.

الفصل الثاني

الإسلام بين كيد الكائدين وإغراض المسلمين

ير المسلمون اليوم بأسوأ فترة في تاريخهم، وفي التاريخ الإسلامي فترات هالكة ليست لليلة، منها فترة التتار وفترة الصليبيين، وقد كانتا فترتين حرجيتين في تاريخ الأمة الإسلامية استغرقت كل منهما ما يقرب من مائتي عام، ووصل الدل بالمسلمين في إحدى الفترتين وهي فترة التتار إلى حد أن التتري كان يلقى المسلم وليس في يده سلاح فيقول له ابن هنا مكانك حتى اذهب فأني بسلامي لا فتلك. فيبقى المسلم مكانه حتى يأتي التتري بالسلاح ويقتله.

كانت فترة من القل ظاهرة اليأس، ومع ذلك ففي حسي أنها لم تكن أشد يؤساً من الفترة المعاصرة، أو لم تكن أبعد عن الحل من هذه الفترة المعاصرة. الفارق في الحقيقة ليس في شدة اليأس وليس في شدة سوء، إنما الفارق في حال المسلمين أنفسهم (١).

لقد غزي المسلمون من قبل الصليبيين والتتار عقاباً ربابياً لهم على مخالفتهم وقعودها وبدع ابتدعوها ومعايير ارتكبوها، ولكن العقيدة الإسلامية كانت ولا تزال حية في القلوب، علاها الرماد، نعم، رماد المعصية الذي يغشى على قلوب المؤمنين فينقص من إيمانهم بقدر ما يقعون في المعاصي، كانت الغاشية تغشى قلوب المؤمنين وأفكارهم، ولكن الجذوة كانت لا تزال تشتعل في القلوب... فما إن قبض الله لهذه الأمة قائداً وزعيماً يذكرها بدينها، يذكرها بوعدتها في شخص صلاح الدين مع الصليبيين، وفي شخص قطز مع التتار حتى صحت هذه الأمانة ورجعت إلى الصف وتجمعت تحت راية العقيدة وانتفضت انتفاضتها التي كان من ورائها النصر. قال صلاح الدين لجنوده ولأمته: انكم هزمتم لأنكم بعدتم عن منهج الله ولن ينصركم الله حتى تعودوا إلى منهجه «وليتصرفن الله من ينصره أن الله لقوي عزيز» الذين أن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وامنوا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور» (٢) فعادوا إلى المنهج وانتصروا بالفعل على الأعداء والكائدين من اليهود والنصارى.

(١) لمزيد من التفاصيل راجع كلا من:

الدكتور صابر طعيمة: أخطار الغزو الفكري على العالم الإسلامي، ص ١٧١ وما بعدها.

دكتور الجندى: التبشير والاستشراق والدعوات الهدامة، ص ٨٥ وما بعدها.

ومحمد قطب: (الإسلام طريق الخلاص).

وأحمد ديدات: بين الإنجيل والقرآن ص ٢٣ وما بعدها.

(٢) سورة الحج: الأيتان ٤٠، ٤١.

وصاح فطر صبحته الشهيرة في التاريخ (أو اسلاماء) وفي يوم واحد في يوم هذه الضيحة
تغير مجرى التاريخ .. فقد كان التتار قد خرجوا من غرب الصين في مشوار واحد طويل. لا
يتوقفون أبدا يدمرون كل شيء. في طريقهم، واطاحوا بالخلافة العباسية في بغداد عام
١٢٥٨/٥٦٦م. واجتاحوا الحضارة الإسلامية، واجتاحوا كل شيء. وجدوه في الطريق، حتى
المكتبة، مكتبة بغداد الشهيرة ألغوا كتبها في النهر لجعلوها حسراً لحولهم. وأقاموا مذبحاً في
بغداد استمرت أربعين يوماً وليلة، ذبحوا فيها علماء المسلمين وتجارهم وأغنياءهم وأصحاب الحياه
فيهم. حتى تروى كتب التاريخ أن نهر دجلة جرى احمر من الدماء التي أريقَت فيه. وظل التتار
في زحفهم الساحق لا يتوقفون أبداً، حتى كانت معركة عين جالوت المعركة التي اقتحمها فطر
بنك الضيحة الشهيرة شاهراً سيفه بقول وا اسلاماء.

بدأت المعركة في الصباح وصعد المسلمون امام جحافل التتار، وما أن جاء العصر من ذلك
اليوم حتى بدأ الميزان يتغير وحتى بدأ التتار يتفهمون. وبدأ المسلمون يتغلبون عليهم، وحدث
تغير ضخم في التاريخ، لأن أولئك التتار الذين وقفوا لأول مرة، وامام أول قوة توقفهم عن
الزحف وقفوا يفكرون من الذي أوقفهم؟ كيف توقفوا وهم الذين لم يوقفهم شيء؟ وعرفوا ان
الذي أوقفهم هو الاسلام ووحدته المسلمين، عندئذ بدأوا هم بعد فترة من الزمن يدخلون في
الاسلام، وصاروا فيما بعد جنوداً لهذا الدين، بعد ان كانوا جنوداً مدمرين مخربين.

فترات سيئة هالكة مرت بهذه الأمة الإسلامية، ولكنها مع سونتها وبوسها لم تكن أسوأ ولا
أسود من هذه الفترة الراهنة، لان جذوة العقيدة على كل ما علاها من الرصاد، كانت لا تزال حية
في القلوب، كانت تنتظر الذي ينفخ فيها فتصحو وتتجمع وتنفض الانقضاة التي يعقبها
النصر.

وبنحو منذ قرون ثلاثة أو قرنين على الأقل نتهاي تحت اقدام اعدائنا، واعدائنا المجدد هم
اعدائنا القدامى، أعداء لا اله الا الله محمد رسول الله هم أولئك الذين حدثنا عنهم كتاب الله
المنزل، هم تلك القنات الاربع التي زخرت بذكرها السور الطوال والمتوسطة ولم تخل السور القصار
من الاشارة الى واحدة منها، أو إليها جميعاً وهي: «اليهود والنصارى والمشركون والمنافقون»
هذه القنات الاربع التي نيب الله سبحانه وتعالى الى انها تعادي الله وتعادي رسول الله وتعادي
اتباع لا اله الا الله محمد رسول الله، ولا تكف عن هذا العداً أبداً. يقول الله سبحانه وتعالى:
«ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تشبع ملتهم»، لن ترضى هذا تقرير رباني، ان اليهود
والنصارى لن يرضوا أبداً عن المسلمين الا ان يتخلى المسلمون عن دينهم ويتبعوا ملتهم.

ويقول الله سبحانه وتعالى: «ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان
استطاعوا (١)» لا يزالون، يعني سوف يظلون، لا يزالون تفيد الاستقبال، هي ليست حاضراً
فقط، انما هي استمرار في المستقبل، سيظلون يقاتلونكم بشئى الاسلحة، بشئى الوسائل حتى

يوهوكم عن دينكم ان استطاعوا.

خلا - هم أعداء الله ولم يكفوا أبدا لحظة واحدة خلال أربعة عشر قرنا من التاريخ. لم يكفوا عن الكيد. لم يكفوا عن مقاومة المسلمين كلما ساحت لهم الفرصة. ولكن هذا القتال الأخير الذي دار في القرون الثلاثة الأخيرة فيه لون خبيث من الغزو. لم يكن في الفترتين السابقتين فترة الشار والحروب الصليبية الأولى.

في الحروب الأولى اندحر الصليبيون ورجعوا مهزومين بقواهم العسكرية. وواحد منهم هو «لويس» (١١) التاسع ملك فرنسا الذي أسر في مصر وسجن في سجن المنصورة. ثم فك أسره حين اقتداء قومه. هو الذي نصح أهل بلاده ألا يغزوا المسلمين بالسلاح وحده. قال لهم: ان غزو المسلمين بالسلاح لن يجديكم شيئا ما دامت العقيدة حية. وما دامت الحكمة في القلوب لم يجديكم شيئا ان تغزوهم بالسلاح. ونصحهم بأن يحاولوا غزو المسلمين في عقيدتهم. أن يغزوا قلوبهم وعقولهم. وألا يكفوا بغزو السلاح. والحروب الصليبية الحديثة قد استفادت من هذه النصيحة الخبيثة. نصيحة لويس التاسع. فحين منحت لهم الفرصة لغزو العالم الاسلامي من جديد. لم يغزوهم بالسلاح وحده. ولم يغزوهم بالعلم وحده. ولم يغزوهم بالمال وحده. ولكن غزوه بهذا النوع الذي نسميه في اصطلاحنا الحديث «الغزو الثقافي أو الغزو الفكري والروحي والنفسى» وهو أسوأ ما تعرض له المسلمون في تاريخهم.

لقد استيقظ الحق الصليبي بعد سقوط الاندلس مباشرة. وحين قضى على آخر دولة مسلمة في الاندلس وهي دولة غرناطة سنة ١٤٩٢م. تحرك الصليبيون لغزو العالم الاسلامي حيث قسم البابا اسكندر بورجيا السادس (١٤٩٢/١٥٠٣م) (٢) بلاد الاندلس الى دولتين اسبانيا والبرتغال. وهما الدولتان الخاليتان اللتان تحتلان أرض الاندلس الاسلامية. ولذكروا ان اسم البرتغال هو اسم عربي «برتقال» هي أرض البرتغال التي زرعتها المسلمون وكانت هذه تسمية المسلمين لها. كانوا يسمونها أرض البرتغال لانها مليئة بحدائق الحموض. والبرتغال بالقاف الفاكية التي نعرفها جيدا. هو ذات الاسم الذي بقي في التاريخ.

وزع البابا أرض الاندلس على أهل ملته سماها أرض الكفار هكذا قال في منشوره. قال ستوزع أرض الكفار أي المسلمين على دولتين هما: اسبانيا والبرتغال. وانطلق أهل البرتغال أول من انطلق لغزو العالم الاسلامي. ولم يكونوا يقدرون لغزوهم من جهة الشرق كما فعلوا أول مرة لوجود الدولة العثمانية بقوتها الاسلامية التي أرعبت أوروبا خمسة قرون كاملة. لذلك حاولوا ان يلتصقوا حول العالم الاسلامي. وهنا كانت الرحلات الجغرافية التي ندرسها لاينأنا نقول انها

(١١) لويس - اسم ١٨ من ملوك فرنسا أشهرهم ٩ (١٢١٤/١٢٢٧م) قاد الحملتين الصليبتين السابعة والثامنة وصل الى ديباط ١٢٤٩م أسر في معركة المنصورة ١٢٥٠م توفي بالطاعون في تونس. وهو في طريق العودة الى بلاده.

(١٢) اسكندر - اسم حمله ثمانية باباوات. أهمهم الثالث ١١٥٩/١١٨١م. اشتهر بمقاومته لسياسة الاباطرة المجرمانيين في إيطاليا.

والسادس الذي يعتبر من باباوات النهضة الأوروبية. انصرف الى السياسة وبرع فيها. راع في حياته الخاصة

رحلات استكشافية، وما كانت رحلات استكشافية، إنما كانت رحلات تجارية، لهذا لم يفرز
الفنيس الاستعماري.

وشرس لأننا خلقنا نفول لهم أن «فاسكو دي جاما» هو الذي كشف طريق رأس الرجاء
الصالح. والحقيقة كان المسلمون يعرفون طريق رأس الرجاء قبل فاسكو دي جاما بأربعة قرون
على الأقل، فقد كانوا يتفوقون بحجارة العالم كله من الصين إلى الجزر البريطانية، وكانوا يعرفون
الساحل الأسيوي والأفريقي معرفة دقيقة جداً، ومن يقرأ كتاب «تاريخ الهند» للبيروني (١١)،
يرى وصف الوصف الدقيق لسواحل آسيا، وصفاً ملاحياً لا وصفاً جغرافياً فحسب، يصف كل صغيرة
وكبيرة في هذا الساحل، ويقول للملاحين احذروا أماكن معينة، لأن البحر فيه شحط فإذا دخلتم
قرب الجزر فسيتقى سفنكم على الأرض فاحذروا أن تدخلوا فيها إذا كان الجزر قريباً وأبقوا بعيداً
عن هذه الأرض حتى يأتي المد. تعليقات ملاحية في منتهى الدقة وخرائط ملاحية جيدة.

وذكر المصادر أن الذي كشف طريق رأس الرجاء الصالح لفاسكو دي جاما هو أحمد بن
عابدين، الملاح العربي المسلم، ولم يكن النصراني أهل أوروبا يعرفون شيئاً عن هذه السواحل حتى
أخذوا خرائط المسلمين، واستدلوا بالمرشدين من البحارة المسلمين، ومع ذلك نقول لأننا في
المدارس أن فاسكو دي جاما هو الذي اكتشف طريق رأس الرجاء الصالح. نعم، هو الذي كشفه
لأوروبا، كشفه لأهل بلاده الذين لم يكونوا يعرفونه من قبل، أما المسلمون فقد كانوا يعرفونه
قبل ذلك بقرون كثيرة.

وحين اكتشف النصراني طريق رأس الرجاء الصالح عام ١٤٩٨م داروا حول العالم الإسلامي،
واختاروا النقاط الضعيفة فيه ليجعلوا منها نقاط التطلقات وتغلغل في البلاد الإسلامية.

وكان الإسلام ذا دولة عظيمة في إفريقيا، دولة ذات أساطيل، ذات جيوش ذات حضارة لا
نعرف عنها شيئاً، لأن تاريخها غيب عنا، لا ندرسها، ليست لها وثائق عندنا، هل تعرفون أين
وثائقها؟ وثائقها في أوروبا، حين دخل النصراني إفريقيا وغيرها من مناطق الإسلام نهسوا كل
الوثائق التي وجدوها وجعلوها في متاحفهم هناك. حتى إذا جاء باحث مسلم يدرس تاريخ هذه
المنطقة يذهب إلى أوروبا ليطلع على الوثائق الإسلامية هناك التي حلت منها متاحف المسلمين.

استغل النصراني مساحة الإسلام، وأن شئت أن تكون قاسياً بعض الشيء استغلوا غفلة
المسلمين. قالوا لهم: نحن ملاحون نريد منكم قطعة أرض على الساحل تكون مرفأً لنا لتسويل
سفننا، وبمساحة أو غفلة أعطاهم المسلمون قطعة الأرض، وفي اللحظة التي استولوا فيها على
قطعة الأرض حولوها إلى موانئ، حربية، وجاءت السفن تحمل الجيوش لتحتل السواحل وتتوغل
منها في الدواخل.

هذه الجولة التي بدأت من القرن السادس عشر الميلادي، وبلغت ذروتها في القرن التاسع

(١١) البيروني (٩٧٣ - ١٠٤٨م) مؤلف عربي من أصل فارسي، ولد بضاحية خوارزم. درس الرياضيات والفلك
والطب والعلوم والتاريخ من مؤلفاته الآثار الباقية في القرون الخالية. والقانون المسعودي في الهيئة والتنجيم.
وتاريخ الهند.

عشر هي أسوأ ما صر في تاريخ الأمة الإسلامية. ففي هذه القرون الأربعة حاول النصارى أن يقتلعوا العقيدة الإسلامية من قلوب المسلمين. نعم، لن يتسكنوا أبداً ولكنهم حاولوا بشتى الطرق ومختلف الوسائل (١).

ولأذكر لكم طرقاً مما فعل في مصر بالذات كنموذج. لأن التجربة المصرية تجربة متكاملة. تجربة مرت بها بلاد العالم الإسلامي جميعاً، على درجات متفاوتة. منها من قطع نصف الشوط، ومنها من هو في بدء المرحلة ومنها من اقترب من النهاية. ولكن التجربة المتكاملة هي التجربة المصرية. وهي حديرة أن أعطيكم نتفا منها.

وأمر آخر يجعلني أبرز هذه التجربة، أن ثقل النصارى ارتكز على نقطتين بالذات. هما استئصال والقاهرة) لأن هاتين العاصمتين بالذات كانت تتمثل فيهما قوة الاسلام. ففي استئصال كانت القوة السياسية والعسكرية للاسلام لوجود الخلافة فيها. وأما القاهرة فقد كانت تتمثل فيها القوة الروحية والفكرية، من أجل ذلك ضغطت الصليبية بكل ثقلها ومعها الصهيونية العالمية على هاتين العاصمتين الكبيرتين الاسلاميتين.

فأما استئصال فقد ظل الضغط يتوالى عليها حتى أزيلت الدولة العثمانية وبارزتها أزيلت القوة السياسية والعسكرية للأمة الإسلامية، وأما مصر فقد ظل الضغط يتوالى عليها حتى كاد النصارى يخرجونها اخراجاً من الاسلام. لهذا وذلك أثرت أن أعطيكم نتفا مما حدث في مصر لتعلموا كيف حاول النصارى اقتلاع العقيدة الإسلامية من قلوب المسلمين بضرب مصر قبلة طلاب العلم والمعرفة التي فاضت أنوارها بفضل اخلاص ومثابرة علمائها، حتى عمت هذه الأنوار مشارق الأرض ومغاربها في مختلف العصور.

يقول اللورد كرومر (١٨٤١ - ١٩١٧م) المعتمد البريطاني الذي حكم مصر في الفترة من ١٨٨٣ الى ١٩٠٧م. في كتابه مصر الحديثة: أن مهمة الرجل الأبيض - يعني الانجليزي - الذي وضعته العناية الالهية على رأس هذه البلاد، أن يجعل المسيحية هي قاعدة التعامل مع المحافظة النامة على كل المظاهر الخاوية للدين الاسلامي كعظلة الجمعة والعبيدين، منعاً من اثاره الشكوك. يعني ريشاً يتم تنفيذ المخطط كله يجب المحافظة على الشكل الظاهر تظل عظمة الجمعة والعبيدين وما الى ذلك من الامور الثانوية الفرعية البعيدة عن الضلب، البعيدة عن الجوهر حتى ينتهي تنفيذ المخطط ويبعد المسلمون عن الاسلام.

في مؤتمر تشيبري عقد في القاهرة بالقرب من الازهر، عام ١٩٠٦، وكان مقرره البشر زويتر (٢) (ت ١٩٥٢م)، وكان مبشراً ذائع الصيت يومئذ وواسع النشاط، فقام المبشرون

(١) الدكتور محمد البهي: الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ص ٢٢ - ٢٨.

(٢) زويتر مبشر بروتستانتي، اشتهر بعدائه الشديد للاسلام، مؤسس مجلة العالم الاسلامي الامريكية التبشيرية. مؤلف كتاب: الاسلام تحت العقيدة، صدر سنة ١٩٠٨. وناشر كتاب: الاسلام، وهو مجموعة مقالات قدمت للمؤتمر التبشيري الثاني سنة ١٩١١م في لكتاو في الهند. وتقديراً لجهوده التبشيرية، انشأ الامريكيون وفقاً باسمه على دراسة اللاهوت واعداد المبشرين.

المشاركين في هذا المؤتمر يقولون : إننا نشك في مهمتنا ، فنحن نقتل المال ونربل الرجال ونفهم المدارس ونسئ المستشفيات ونسئ الملايين ونعطي خدمات اجتماعية ، ثم لا بدخل في التصرفية بعد هذا الجهد كله إلا طفل صغير حلقته من أهله وهو صغير لا يعرف عقيدة أهله . فقام زعيم يقول : استمع إلى اخواني الخطباء ، ولست أوافقهم فيما يقولون : إن مهمتنا ليست هي تنصير المسلمين ، فهذه مهمة لا طائل وراءها إنما مهمتنا هي تقريب المسلمين عن التمسك بالاسلام . وفي ذلك تحجنا بحاجنا بأهرا بقفل مدارسنا النشيرة وسياتنا التعليمية التي تنتهجها المدارس الحكومية في بلاد المسلمين (١٩) .

في تلك الفترة اشتكى المبشرون اللورد كرومر ، اشتكوا أنه يضيق عليهم ولا يسمح لهم بالعمل على نطاق واسع كما كان الحال قبل أن يأتي كرومر ، فأرسلت الشكاوى من وزارة الخارجية البريطانية إلى كرومر في القاهرة لترد عليها ، فجمع كرومر المبشرين وقال لهم هل تصورون أنني ألق في طريقكم ؟ هل تصورون أنني أعوق نشاطكم ؟ ... ولكنكم تستعملون وسائل استغرافية يخطف الأطفال والتنصير بالقوة ، فتكون النتيجة زيادة تمسك المسلمين بالاسلام . أما أنا فقد اتفقت مع شاب تخرج حديثا في كلية اللاهوت في لندن يحيى ، إلى مصر ليضع سياسة تعليمية ستحقق أهدافكم كاملة ، هذا الشاب هو « دنلوب » الشهير الذي وضع مناهج التعليم في مصر ، التي لا تزال مع الآلاف بتعديلات نافذة تطبق لا في مصر وحدها ولكن في دول كثيرة من دول العالم الاسلامي .

ماذا صنع دنلوب ؟ دنلوب القسيس يأتي إلى مصر ليضع سياسة تعليمية لمصر الاسلامية ، ماذا نتوقعون أن يكون من سياسة القسيس وهو يضع سياسة تعليمية . هل يضع سياسة تعليمية لتعميق العقيدة الاسلامية في القلوب أم لاقتلاع العقيدة الاسلامية من القلوب ؟

وضع هذا النصراني سياسة تعليمية تقضي بالتفرقة بين مدرس اللغة العربية والدين ، وبين جميع المدرسين الآخرين في المدرسة الواحدة . هم جميعا ذوو مؤهل عال ، ولكن مدرس اللغة الانجليزية ومدرس الحساب والرياضيات ومدرس التاريخ والجغرافيا ، يتقاضى بعملة ذلك الزمن اثني عشر جنيها ، وكان للجنه قوته الشرائية الضخمة بحيث أن ثلاثة جنيها أو أربعة كانت تكفي حياة مترفة ويبقى الباقي كله ادخارا . أما مدرس اللغة العربية وحده في المدرسة فحرمه أربعة جنيها . يعني مدرس اللغة الانجليزية أو الحساب أو الرياضيات أو التاريخ والجغرافيا اثني عشر جنيها ، ومدرس اللغة العربية أربعة جنيها بينما مدرس اللغة العربية يأخذ ثلاثين درهما في الاسبوع ، ولا تنتهي الدفاتر من امامه عندما يعود إلى المنزل .. دقاتر الاملاء .. دقاتر القواعد والتطبيق . ما يكاد ينتهي من فن حتى يأتي فن جديد ، وهذا اجزه في نهاية الشهر . عندما يحس التلاميذ وأولياء أمورهم والمجتمع كله بالمنزلة الاقتصادية لمعلم اللغة العربية ، كيف يكون وضعه الاجتماعي . وبعبارة أوضح حين يكون أب له بنات ويأتي خطاب ، يأتي مدرس لغة انجليزية أو

(١٩) شاتليه : الغارة على العالم الاسلامي ، ص ٣٣ وما بعدها .

مدرس حساب أو مدرس تاريخ وجغرافيا، ومدرس لغة عربية، فلمن يعطى ابنته لصاحب ثلاثي عشر حنينا، ولا يعطى لها صاحب المجهات الأربعة، إلا إذا كانت منزلته الاجتماعية مؤثرا، ولذلك يخرب نطاق من العزلة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية حول مدرس اللغة العربية، ولا يكون وضعه في المدرسة هو وضع المقدم، إنما يلقى في مؤخرة الصف، وفي كثير من الأحيان كان فراش المدرس القديم ذو الخدمة الطويلة يتقاضى أجرا مساويا لأجر مدرس اللغة العربية، أو يزيد عليه في بعض الأحيان.

ماذا تظنون من تأثير ذلك على اللغة العربية؟ هل يظل لها احترام في النفوس؟ كلا. الاحترام كله للغة الإنجليزية، فمن كان لسانه يترنن بلغة الاحتلال فهو المقدم في المدرسة والمجتمع وفي كل مكان.

أما مدرس اللغة العربية ودارس اللغة العربية فننصب عليه السخرية: «يا أمي هز أنت فقي» والفقير في مصر هو معلم الكتاب وهو أدنى فئات المعلمين في نظر المجتمع. فإذا أخطأ إنسان في اللغة الإنجليزية والفرنسية يصح سخرية لكل الجالسين، أما إذا أخطأ إنسان في اللغة العربية فلا حرج، بل إذا تحرى الصواب يقولون: هذا متفاعس، هذا فقي. هكذا كانت نظرة المجتمع للغة العربية التي هي لغة الكتاب المنزل والسنة النبوية المطهرة، وكان يقصد من وراء ذلك الاستهانة بكل ما هو مكتوب باللغة العربية بما في ذلك القرآن الكريم، بينما تتوجه القلوب وتتوجه المشاعر إلى ما كتب باللغات الأجنبية، ومن هنا تتوجه القلوب والمشاعر إلى أوروبا، تهل منها الأفكار الضالة، بينما هي تنبذ الكتاب الذي بين يديها.

ويحيى دور مدرس التربية الإسلامية وهو واحد من مدرسي اللغة العربية، ولكنه يختار من أكرهم ساء عن عمد، يقال له نريد أن نربحك من الحصة ومن تصحيح الكراريس. ويختارونه هزيل البدن فانيا متهدما ليقع في حس التلاميذ أن هذه هي صورة الدين الإسلامي، ثم توضع حصة الدين في آخر اليوم الدراسي، فإن كان يوم السبت فهي الحصة السابعة، وإن كان في الأيام الأخرى فهي الحصة السادسة. وإن كان يوم الخميس فهي الحصة الخامسة، دائما حصة الدين هي آخر حصة في الجدول الدراسي والتلاميذ مثقلون بشغل اليوم الدراسي كله يتشابهون من النعاس وينتظرون اللحظة التي يندق فيها الجرس لينطلقوا في الطريق إلى البيت، في هذه اللحظة يصب فوق رؤوسهم درس الدين، فيتمثل في حسم الهرم والفناء، في شخص المدرس، والثقل والتفوق في درس الدين، فينفرون من هذه الحصة لا يوقرونها ولا يحبون مادتها التي تدرس اليهم.

في ذات الوقت كانت مدارس المبشرين التي تدرس للمسلمين في مصر تبدأ بحصة الدين المسيحي وتبدأ بها لا في قاعة الدرس، بل في كنيسة المدرسة، ويقوم بالتدريس أحب المدرسين والمدربات إلى قلوب التلاميذ ليكون درس الدين حبا في نفوس التلاميذ وهم آتون بنشاطهم وخبرهم كله، خير الصباح والبكور، ويكون محبا إليهم لأنه ليس في القاعة، وقاعة الدرس مهما قبل فيها فهي ليست محبة للتلميذ، أما خارج القاعة فهو درس محب، ثم المدرس الذي يدرس المسيحية لطيف صروح الوجه دمث الاخلاق حي الحركة محب إلى التلاميذ. مقارنة بسيطة بين

درس الدين الاسلامي في المدارس العامة ودرس التعسفية في مدارس الشيعة فدلنا على الامر
الحيث الذي قلناه ونلوب ونصح فيه (١).

أما التاريخ الاسلامي فيدرس للتلاميذ على النحو التالي:
كان العرب في الجاهلية يعبدون الاصنام، ويتدون البنايات، ويشربون الخمر، ويلعبون الميسر،
ويقومون بغارات السلب والنهب، فجاء الاسلام فنهاهم عن ذلك، هذه العبارة هي حق ولكن حق
يراد به باطل.. ان القصد الحيث من وراء هذه الجملة، ان الاسلام قد استغنى أغراضه، جاء الامور
معينة ليزيل آمورا معينة في مجتمع معين، فإذا زالت هذه الامور انتهت مهمة الاسلام، كان
العرب يعبدون الاصنام، هل هناك الآن عبادة حسية ظاهرة للاصنام «كلا» إذا هذا البند قد انتهى
لم يعد قائما في حق المسلمين، ويتدون البنايات، هل هناك أحد يتد البنايات اليوم؟ كلا، إذا هذا
البند انتهى أيضا.

ويشربون الخمر ويلعبون الميسر، طبعاً هذه مساوئ اجتماعية، لكن ما الحيلة فيها، الدين نزل
بتحريمها والتشريعات والقوانين، وما زال الناس يشربون الخمر ويلعبون الميسر، اذا فصحى الاسلام
أو عدم مجيئه في هذا الامر سواء.. ويقومون بغارات السلب والنهب،
نعم، الآن هناك شرطة وهناك درك، وهناك نيابة ومحاكم، ولا أحد يستطيع ان يقوم بغارات
السلب والنهب دون ان يتعرض له قوات الامن والنيابة إذا ماذا بقي للإسلام من دور يؤديه؟
عن عمد لم يقل النصارى ان الاسلام جاء ليزيل الشرك من الارض والشرك يتنقل في امرين:
الامر الأول: الترجه لغير الله بشعائر التعبد.

الامر الثاني: تحكيم شرعية غير شرعية الله.

هذه هي الحقيقة، الشرك كما عبر عنه كتاب الله.. «وقال الذين اشركوا لو شاء الله ما عبدنا
من دونه من شيء، نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء» (٢).

يعني هاتان هما شعبتا الشرك التوجه لغير الله بشعائر التعبد.. والتحكيم والتحرير من دون
الله - فالشرك الذي لا ترى مظاهره ظاهرة هو شعائر التعبد، لكن الشرك الموجود والذي فرضه
النصارى بقوة السلاح هو ازالة شرعية الله وتحكيم شرعية أخرى غير شرعية الله - هذا شرك
أخفى عن المسلمين أمره لم يقل لهم انه شرك، لانهم لو عرفوا انه شرك لتحركت العقيدة في
قلوبهم ولقاموا يحاربون. أما ان يقال لهم ان الاسلام جاء من أجل هذه البتة بأعيانها فدلالتة
في الآخر ان الاسلام قد أدى مهمته وانتهى ولم يعد له دور يؤديه.

لم يدرس للتلاميذ سيرة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وتاريخ الخلفاء الراشدين، لوجه
الله، انما ليشكل ذلك دراسة التاريخ السياسي الاسلامي.. والتاريخ السياسي الاسلامي هو أسوأ

(١) شاتليه - المرجع السابق، ص ٥١، ٥٢.

(٢) سورة النحل: الآية ٣٥.

ما في تاريخ المسلمين. فلان حارب فلانا ليتولى الحكم. فلان دس السهم لفلان ليتولى الحكم
تعم التاريخ الاسلامي فيه هذه الوقائع. لكن من قال ان التاريخ الاسلامي محصور في هذه
الوقائع السياسية. أين مجال الاسلام! أين عظمة الاسلام! أين حضارة الاسلام التي رفعت
القبائل المتناحرة في شبه الجزيرة العربية التي عجزت خلال القرون السابقة لحيي الاسلام ان
تكون أمة. فكونت منها لا مجرد أمة. بل خير أمة اخرجت للناس بشهادة الله سبحانه وتعالى:
«كنتم خير أمة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله» (١).

أين الاخوة الاسلامية التي زرعتها هذا الدين في قلوب المسلمين. انما المؤمنون اخوة فجمعت
العربي القرشي مع بلال الحبشي. مع صهيب الرومي مع سلمان الفارسي. فصورتهم جميعا في
أمة واحدة ونسبت هذه الجنسيات كلها. وبقي الاسلام. وعاش المسلمون اخوة متحابين في الله
بل يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبوبكر سيدنا واعتق سيدنا. يعني عمر يقول لبلال
سيدنا بلال فلا يضع بلالا في مصاف كبار رجالات الاسلام فحسب. بل هو سيد لعمر وعمر هو
غير.

والقرآن الكريم يؤكد هذا المعنى ويقويه. يقول الله: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر
وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن اكرمكم عند الله اتقاكم إن الله عليم خبير» (٢).
وقال تعالى: «يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث
منها رجالا كثيرا ونساء. واتقوا الله الذي تسالون به والا حرام ان الله كان عليكم رقيبا» (٣).
وقال تعالى: «وان هذه امتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون» (٤).
وقال تعالى: «إن هذه امتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون» (٥).

كذلك وصف الرسول محمد صلى الله عليه وسلم أمته حين يقول: (تري المؤمنين في تراحمهم
وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الاعضاء بالسهر
والحمى) (٦).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبة الوداع: (ايها الناس ان ربكم واحد وان أباكم
واحد كلكم لأدم وآدم من تراب. لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود الا
بالتقوى).

فالاسلام بالنسبة للانسان سلم نحو مفهوم اسمي للوجود والثقة بالنفس حيث ينقله من النظام
القبلي الضيق ويمنحه مجتمعا بديلا حتى لا يكون قريسة للشعور بالضيق ونهبها للتفرق

(١) سورة آل عمران: الآية - ١١. (٢) سورة الحجرات: الآية ١٣.

(٣) سورة النساء: الآية ١. (٤) سورة المؤمنون: الآية ٥٢.

(٥) سورة الانبياء: الآية ٩٢.

(٦) رواه البخاري. راجع العسقلاني: فتح الباري. الجزء العاشر. ص ٤٣٨. الحديث رقم ٦٠١١.

النفس، فهو - أي الإسلام - يرمى بالإنسان إلى مجتمع أرحب بسوءه الأخاء - ويطلبه التعاون والوفاء، كيف لا، وهو مجتمع ميزان الكرامة فيه التقوى والعمل الصالح، لقوله تعالى «إن أكرمكم عند الله أتقاكم».

ثم إن التكافل الاجتماعي الذي زرعه الإسلام في قلوب هذه الأمة فتكافلت في داخل الأسرة في داخل الحي، في داخل المدينة، في داخل المجتمع الإسلامي الواسع، التكافل الذي يحمل الغني فيه الفقير يحمل القادر فيه غير القادر، التكافل الذي وصل لا إلى العناية بالإنسان وحده، بل حتى بالاحياء من الحيوان، حتى يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لو عثرت بغلة بالعراق لكتبت مسزولا عنها لم لم أسولها الطريق، والذي حس الاحساس بعنى الاوقاف، على الناس وعلى الحيوانات، هناك اوقاف اوقفها المسلمون للعناية بالحيوانات التي ليس لها راع، هذا كله من الذي صنعه؟ صنعه الاسلام وطبق في عالم الواقع، ثم الحركة الاسلامية العلمية، الحركة الاسلامية الحضارية، اين ذهب هذا كله؟ لم يبق في دراسة التاريخ الاسلامي الا ذلك الخط المائل، خط التاريخ السياسي.

لا ننكر ما وقع في التاريخ السياسي لكن حين تعرض الصفحة التاريخية بكاملها بحساسها ومساوئها، بأخذ هذا الخط المائل حجمه الحقيقي في الصفحة لكن حين تخفى المحاسن كلها، وتبرز المساوئ وحدها، ماذا يكون رد الفعل في نفوس الدارسين؟.. رد الفعل هو ان الاسلام عاش عشرين سنة أو ثلاثين سنة، ثم انتهى، هذا هو الاثر الخبيث لدراسة التاريخ الاسلامي على تلك الصورة المشوهة التي وضعها النصارى في فترة استعمارهم للعالم الاسلامي، والتي ولا تزال تدرس بها الى هذه اللحظة في كل البلاد الاسلامية على وجه التقريب.

وحين يفرغ التاريخ الاسلامي من القيم والمبادئ، ماذا يوضع بدلا منه؟ يوضع بدلا منه تاريخ أوروبا.. أوروبا أم الحضارة، أوروبا أم الانسانية، أوروبا أم الديمقراطية، أم الحرية، أم حقوق الانسان، أم كل شي - نافع في الحياة.. هكذا يقولون.

فحين يدرس التاريخ على هذه الصورة، الاسلام خلو من جميع القيم ومن جميع المبادئ العليا، وخلو من الحضارة، وخلو من العلم والمعرفة، واستنفذ اغراضه التاريخية، وليس فيه الا هذا الخط المتعرج، خط المساوئ.. وأوروبا هي النور وهي الحضارة وهي الرقي وهي التقدم، ماذا تكون النتيجة؟.. تكون النتيجة التي حدثت بالفعل ان تخرجت أجيال من المسلمين لا تعرف شيئا عن حقيقة الاسلام، بل تعرف في مكانه شبهات مشارة حول الاسلام، وتتجه بقلوبها وعقولها الى أوروبا، تريد ان تستعيد قلوبها وافكارها لاوروبا.. هذا الذي كان، وهذا هو الغزو الفكري الذي تصعب به لويس التاسع وطبقته الحملات الصليبية الحديثة، والذي اتسع واتسع في مناهج التعليم وفي وسائل الاعلام حتى خرج تلك الاجيال التي لا تعرف شيئا عن حقيقة الاسلام، الا تلك الشبهات التي تبذل في قلوبهم ولا تعرف الا أوروبا وحضارة أوروبا.. قلما تخاضم المسلمون مع دول أوروبا سياسيا، حين خاب أملهم حين منتهى بالاستقلال ومنتهى بالتقدم والرفاهية.. ثم منحت عليهم، غضبوا منها، فلم يجدوا بديلا حاضرا في نفوسهم الا في دول

شرق أوروبا. وبذلك انتشرت الشيوعية وانتشرت الاشتراكية في دول العالم الإسلامي. وهي لون جديد من الغزو الفكري.

وعين قبل لهم: أن أوروبا لم تتقدم إلا حين أخرجت المرأة من سجن البيت - هكذا قالوا - ومن سجن التقاليد. ومن سجن الأخلاق إلى التحرر إلى المساواة إلى اختلاط الجنس إلى اشتراك المرأة في مجالات الحياة، صدقوا فأخرجوا نساءهم. وعزوا نساءهم لأن أوروبا عرفت نساءها. صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم « لنسلكن سنن الذين من قبلكم حتى إذا دخلوا الجنة من قبلهم حتى دخلوا جحر حصب دخلتموه » جحر الحصب كما تعلمون ضيق مريم مرعب. ومع ذلك دخلوا هم جحر الحصب فدخلناه. يعني تقليد النصارى في كل شيء.

حتى ترحم المسلمون بقلوبهم وعقولهم إلى أوروبا يجلبون السموم كلها ويشربونها مبتهجين بشربها. وهي السم « رأوا أوروبا تنادي بالقومية والوطنية فقالوا هذا هو الطريق » فلبنت الإسلام كراية تجمع. لأنها لم تعد تصلح. لأن الزمن تغير. هكذا يقولون: لقد كانت أوروبا تعيش تحت راية المسيحية فكانت القرون الوسطى المظلمة. ولم تتحرر أوروبا ولم تنور إلا بعد أن أراحت راية التجمع الديني. ونصب راية التجمع القومي والوطني. فلنصنع مثلهم « نريد أن نتقدم ونتحضر فلننته راية التجمع الإسلامي لأنها هي سر تأخرنا. هي التي أخرتنا القرون الطوال ولنا نتقدم إلا بنهذه الراهية. ورفع راية القومية والوطنية.

وسرت هذه الأفكار الهدامة في العالم الإسلامي. وقسم لنصارى هذا العالم إلى دولتين صغيرة. لأن الدولة الكبيرة تزهق كاهل المستعمر. أما الدولة الصغيرة فهي سهلة الابتلاع والهضم.

وبعد التقسيم أصبحت كل دولة تعادى اختها. وكانت النتيجة انتشار الكراهية بين الشعوب. وقد يكون هذا الشعب أو ذاك يدين بعقيدة واحدة وواقع في قبضة استعمار واحد.

يقول اللورد كامبيل البريطاني، الذي عهد إليه بدراسة أحوال البلاد العربية واقتراح حل يحول بين هذه البلاد وبين يقطتها: « هناك شعب واحد يقطن بين المحيط الأطلسي والخليج. وهو شعب ذو أصول عرقية واحدة. وله دين واحد ولغة واحدة وتاريخ مشترك وأمنى مشتركة وأرض متصلة لا يفصل بينها شيء... وقد بدأ هذا الشعب يتحمل نحو اليقظة، فماذا يحدث لنا لو أتم يقظته؟ ماذا يحدث لمصالحنا في تلك المنطقة؟ انه يجب أن نفعل كل ما في وسعنا للحيلولة بين هذا الشعب وبين يقطته ». ثم يقترح في النهاية فيقول: لابد من إيجاد جسم دخیل يقطع اتصال هذا الشعب، جسم يكون معاديا لسكان المنطقة ومواليا لنا. وهو « إسرائيل » هذا التقرير كتب عام ١٩٠٧ م. وطبق عمليا عام ١٩٤٧ م. (١١).

وعين تمكن الكيد من الأمة الإسلامية وراحت تستجلب الأفكار الضالة، الأفكار المضلة من النصارى تحسبها طريق النجاة وقعت في المشكلات التي تعانيناها اليوم. المشكلات التي كادت

(١١) الدكتور/ خالد محمد نعيم | الجذور التاريخية لرساليات التنصير الأجنبية في مصر، ص ١٧٨ وما بعدها.

تفرقها. كانت تقودها القدرة على التنفس في شتى بقاع الأرض حيث تعال عبيدها. تعال أفراسها. تعال أمواليها. تعال طرقها عن طريق الافكار التي استلجتها من أوروبا نظراً أنها الدنيا.. تظن أنها سبيل التطور والازدهار.

الاسلام ليس شعاراً رفيع ولكنه واقع معاش. ولا يسمح للمسلمين في داخل بلادهم ان يكونوا مغرورين بعالمهم دينهم. حين يقولون يريد ان تطبق شريعة الله، يقولون لهم، يريدون ان يخلطوا الدين بالسياسة، والسياسة بالدين. هذه النظرة الى الدين ذاتها على أنه شيء لا علاقة له بالسياسة هي جزء من الغزو النصراني للاسلام والمسلمين. واستغلال للفكر الغربي وأحلاله محل الاسلام في قلوب المسلمين وأجبال من المسلمين تصديق ان الاسلام لا علاقة له بالحياة السياسية. ونقول: ما للدين والسياسة، ما للدين والاقتصاد، ما للدين والاجتماع، ما للدين والموضة، ويصدق الناس ان الاسلام لا علاقة له بالاحلال والحرام، وتنظيم الحياة الاجتماعية، يصدقون لان الفكر العلماني النصراني توغل في قلوبهم وتكوينهم، وهو اشد سؤاً من غزو السلاح، واشد سؤاً من الغزو السياسي والاقتصادي والعلمي والتكنولوجي، وان كانت جميعها تتسالد في قهر المسلمين وأذلّتهم وأبعادهم عن دينهم.

التبعية من ذلك كله ان صار المسلمون كما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يوشك ان تداعي عليكم الامم كما تداعي الأكلة الى قصعتها، قالوا أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله. قال: لا بل انكم كثير ولكنكم غثاء غثاء السيل»، هذا الغثاء الذي ينطبق عليه وصف الشاعر الجاهلي القديم الذي يهجو قبيلة تيم، يقول:

ويقتضي الأمر حين تغيب تيم

ولا يستأذنون وهم شهود

وكذلك يفعل بالمسلمين في الهيئات الدولية وفي بلادهم وفي اقتصادهم وفي كل شيء، يقضى الأمر والمسلمون غائبون عن الساحة وان حضروا لا يستأذنون لا يؤخذ رأيهم بوصفهم مسلمين. يؤخذ رأيهم أحياناً بوصفهم جزءاً من دول العالم الثالث، أو جزءاً من دول عدم الانحياز أي وصف، الا وصفهم على انهم مسلمون. اما ان دخلوا بوصفهم مسلمين عندئذ تنتصب لغات العالم النصراني والالحادي كله عليهم، في حين انه يبارك الدولة التي قامت على أساس الدين «دولة اسرائيل»، وكانت ولا تزال تخطط على اقامة دولة نصرانية كبرى في شرقي افريقيا تضم اثيوبيا والصومال وكينيا وتنزانيا وأوغندا وجنوبي السودان.

أما الدولة التي تقوم على أساس الاسلام، فرجعية وحشية همجية متبذرة. لا يسمح لها النصراني بأن توجد.

يقول لورانس براون الجاسوس البريطاني الشهير: المعروف بلورانس العرب في كتابه «الاسلام والرساليات الاحنية» ص ٥٨: الخطر الحقيقي كان في الاسلام وفي قوته على التوسع والاختضاع وفي حيويته، انه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار، واذا اتحد المسلمون في دولة واحدة يمكن ان يصبحوا خطراً على العالم الغربي ومصالحه، ويمكن ان يصبحوا نقمة له أيضاً. اما اذا بقوا

ماترون فانهم يلقون حنته بلا قوة ولا تأثير
والقد كانت شروط الصلح مع تركيا في مؤتمر لوزان بسويسرا سنة ١٩٢٣ م دليل على ترواها
التضارر المبينة ضد الاسلام والمسلمين.

ومن هذه الشروط :
• قطع كل صلة بتعاليم الاسلام .
• الغاء الخلافة الاسلامية .
• وضع دستور جديد للبلاد بدلا من الدستور القديم المؤسس على مبادئ الاسلام .
• اخراج انصار الخلافة والدعوة الاسلامية من البلاد .
• قيام الجمهورية التركية .

• الغاء وزارة الاوقاف والمعاهد الدينية والتعويض الهجري وعطلة الجمعة والطربوش والحجاب
• الارتباط بأوروبا والاتصال عن العالم الاسلامي وقارة آسيا .

ومن هنا وقف العالم الاسلامي كله مذهولا ازا . لمحول الدولة التي فادت المسلمين ستة لمرور
مرة واحدة الى دولة غربية الطابع ، وكان لهذا التغير أثر بعيد المدى في نفوس المسلمين .
واستكمالا لهذا المخطط شجع المستشرقون في جامعات أوروبا وأمريكا ، الدارسين المسلمين

على دراسة لهجاتهم المحلية لينعيدوا تمزيق اللغة العربية التي توحدت بالقرآن الكريم الى لهجات
محلية ، ثم لغات تبعد شيئا فشيئا عن اللغة العربية الفصحى لغة القرآن الكريم فيبعدون بذلك
أيضا عن مصدر عقيدتهم وتشريعهم ، وبالتالي يبعدون أيضا عن تراثهم الفكري الموروث ، وذلك
من أجل القضاء على الرابطة الإسلامية القوية بين المسلمين وخلق ثقافات اقلية جديدة تزيد من
نفوذ العالم الاسلامي وازدواجيته .

لقد ذكرت قيسا سبق ان فترة التناحر كانت فترة مذلة عظيمة للمسلمين ورغم ذلك كانوا
مسكينين بقوله تعالى : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الاعلون ان كنتم مؤمنين » . كانوا يحسون
بأنهم هم الاعلون بآيمانهم بـ « لا اله الا الله محمد رسول الله » . هم اعلى من التناحر ، وان ذبحهم
التناحر وقتلوهم وهم اعلى من الصليبيين ، وان انتصر عليهم الصليبيون في المعارك الحربية . أما
هذه الجولة الاخيرة فلا أول مرة في تاريخ المسلمين يشعر المسلمون بأنهم ليسوا « الاعلون » وان
اعداءهم الكفار الذين لا يعرفون الله اعلى منهم . هذه هي البلبلة في حال المسلمين اليوم ، لماذا ؟
لأن العقيدة في قلوبهم خدعت لان العقيدة قلت في قلوبهم ، لان العقيدة خدعت مصادرها من
مناهجهم الدراسية .

وفي الخواء الذي ملأ هذه القلوب وضعت التبعية لاوروپا وفلسفتها الحضارية التي سمحت
للاتكاف لتقتل العقيدة لتمنعها من الانتشار بين الامم .
جرب المسلمون منهج الغرب فلم يجدوا منه الا اللذ والهوان والتدهور الاجتماعي ، وسوء الخلق
والرشوة والفساد ، ثم جنحوا نحو الشرق فلم يحصلوا الا الفقر والكيث والمفقد ، والحرمان من

أسطة الحقوق الإنسانية واستبعاد الإنسان لأخيه الإنسان وسيطرة الآلة وحشية التاريخ.. فما
السبيل إلى النجاة؟

لا القوة ولا الوطنية ولا الرأسمالية ولا الاشتراكية ولا الاتحاد ولا التمسك الخلقي.. لا كل
هؤلاء يبدل بها إلى طريق النجاة، إنما هي طرق كلها أوغل فيها المسلمون زاهوا هبوطا، زاهوا
شعبا زاهوا تبعية لأعداء.. لا إله إلا الله محمد رسول الله.. طريق واحد هو طريق النجاة
«الاسلام» هو طريق النجاة، الاسلام هو الطريق الذي وضعه خالق السماوات والارض وما بينهما
وما تحت الثرى، الاسلام هو الدائبة للمسلم، لا كيان للمسلم الا في داخل الاسلام.. حين يخرج
المسلم من اسلامه يفقد ذاته، يفقد قوته، يفقد العنصر الدافع الذي يدفعه إلى الجهاد إلى
المجادة إلى الابحية إلى الواقعية إلى الانتاج إلى كل خير يمكن أن يتحقق.
الاسلام طريق النجاة لأنه دين الغفلة يادي ذي يد.. غفلة الله التي غفل الناس عليها لا
تبدل خلق الله ذلك الدين الغم.

الاسلام طريق النجاة لأنه هو الذي يجمع النفس البشرية ويعطيها طاقتها الحقيقية فتصبح
من ثم طاقة كونية فاعلة في هذا الكون.

ولقد يخطر في بالنا ان الكفار قد نزلوا الدين فمكن لهم في الارض، فما بالنا نقول نحن
نريد ان نرجع إلى الاسلام ليمكن لنا في الارض! نعم هذه النقطة تحتاج إلى وقفة قصيرة، يقول
الله سبحانه وتعالى: «فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم ابواب كل شيء». هي سنة من سن
الله، ان الكفار الذين لجوا في الكفر تفتح عليهم ابواب القوة والتمكين. انظروا إلى العبارة
القرآنية «ابواب كل شيء». كل لون من ألوان القوة يستطيع الانسان ان يفكر فيه مفتوح عليه،
القوة العلمية، القوة الاقتصادية، القوة العسكرية القوة السياسية، كل ما يمكن ان يتصور بما تفل
عليه العبارة القرآنية «ابواب كل شيء». حتى اذا قرحوا بما أوتوا اخذناهم بقتة فاذا هم
مبلسون». إنما يستدرجهم الله ليمكن لهم في الارض.. نعم حسب سنة ربانية «من كان يريد
الحياة الدنيا وزينتها نوكت اليهم اعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون. أولئك الذين ليس لهم في
الآخرة الا النار».

الله سبحانه وتعالى يعطي الدنيا للمسلم والكافر. «كلأ غد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما
كان عطاء ربك محظورا».

لكن ما النتيجة حتى هنا في الحياة الدنيا. «فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم ابواب كل
شيء. حتى اذا قرحوا بما أوتوا اخذناهم بقتة فاذا هم مبلسون».
أوروبا متمكنة في ظاهر الامر قوية مفتوح عليها أبواب العلم والتمكين المادي والتمكين
التكنولوجي كل شيء. لكن كيف الحياة في أوروبا وأمريكا؟
انظروا إلى احصاءاتهم هم، لأننا اذا قلنا نحن، فنحن متهمون بالتحيز.. تقول الاحصاءات
الأمريكية:

إن مرض الجنون يقتل بعدد من الأمريكان أكثر من أي وباء. مرضى آخر. وإن القلق واضطراب الأعصاب والأمراض النفسية وحالات الانتحار تبلغ نسبة رهبة وهي أعظم في الأروبا ومن دونها الحصة الغربية والأمريكية بصفة خاصة إن يمر الإنسان مروراً دورياً على العبادة النفسية (العبادة السيكولوجية) كما يسمونها. لماذا يذهب الإنسان مروراً دورياً على العبادة مرضى أم لأنه سليم؟ وما حاجة السليم بالذهاب إلى العبادة؟ لما يذهبون إلى العبادة؟ هل يذهب لأنه لا يتوسم مرضاً يحتاج إلى علاج. وبصرف النظر عن كون هذه العبادات تعطي علاجاً طبياً أم تزيد المرضى سوءاً فإنهم مرضى. أقول تزيد المرضى سوءاً. لأن معظم الأطباء التحليل النفسي في أوروبا وأمريكا يهود. وهذه العبادات النفسية مصائد يصيدون فيها الأسماء ليزيدوهم حالاً. المرحمة بشئ أنواعها، تستنها عالية وهي في ازدياد مستمر. الألمان على الحشر. الألمان على المعذبات. الألمان على اليسر. الإصابات المنطوية. التفكك الأسري. التفكك الخلقي. أمور تفتح منها أوروبا وأمريكا. هذا مع التمكن السياسي والتمكن العسكري والتمكن الاقتصادي. لكن بلا بركة بلا طمأنينة. لأن الطمأنينة لا يعرفها إلا القلب المؤمن «الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله لا يذكروا الله تطمئن القلوب» أما القلوب التي لا تعرف الله ولا تعرف اليوم الآخر فهي كذلك لا تعرف الطمأنينة. وأن ملكة القوة الاقتصادية والقوة العسكرية والقوة السياسية والعلمية. الله سبحانه وتعالى يمكن الكفار يكفرهم فترة من الوقت ليدمر عليهم في النهاية «والذين كفروا يمتنعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم».

أما المؤمنون فلا يمكن لهم في الأرض وهم عاصون لله حائدون عن طريق الله. لماذا لا يمكن لهم كما يمكن للكفار. لأنه سبحانه وتعالى لا يريد أن يقتلهم وهم عبادة الذين يدخر لهم الجير في الآخرة. تصور معنى أن المسلمين عصوا الله فنصرهم. ماذا تكون النتيجة. يقولون في أنفسهم عصيا الله فنصرنا فلنمنح في العصيان لينصرنا أكثر فتكون الفتنة. لما نادينا وتربية لأمتنا. أمة محمد عليه الصلاة والسلام لا ينصرهم الله أبداً إلا حين يستقيمون على الإسلام إيماناً وقولاً وعملًا وعلماً وحضارة.

قال تعالى: «ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز. الذين أن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وآمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور» (١).

وقال تعالى: «ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون» (٢).

وقال سبحانه وتعالى: «وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكّن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أنا يعبودوني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون» (٣).

(١) سورة الحج الأيتان ٤٠، ٤١.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٩٦.

(٣) سورة النور: الآية ٥٥.

وحين نقول الاسلام هو طريق النجاة، لانه جمع بين خيري الدنيا والآخرة ونظم الحياة تنظيمًا دقيقًا، لم يدع بابًا من أبواب الخير الا حث عليه ووضع مفاتيحه في ايدي المسلمين، ولم يترك بابًا من ابواب الشر الا اوصده وحذر منه، كما ان للاسلام من المرونة ونظمية حاجات الانسان ما جعله صالحا لكل زمان ومكان. وهذه خاصية من خواصه لا توجد في غيره من المعتقدات، والتشريعات الوضعية.

ورغم كيد الكائدين وجهل الجاهلين ستظل هذه الخواص ملازمة للاسلام لا تنفك عنه لانها من طبيعته. وستظل كذلك الدوافع القوية والقلب النابض الذي يبعث الحياة والحسن والحركة في الامة الاسلامية التي كتب الله لها الخلود.

قال تعالى: «فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون» (١).

الفصل الثالث

مخطط النصارى ضد الاسلام والمسلمين في افريقيا

ان ما يحدث الآن في القارة الافريقية يمكن النظر اليه من زاويتين:
أولاهما: موقف النصارى من الاسلام والحضارة الاسلامية.
وثانيتهما: موقف المسلمين بالنسبة لقضاياهم ونظرتهم اليها وتصرفهم حيالها.
ولن أخوض كثيرا فيما يتعلق بالامر الثاني الا بالقدر الذي يفسر الامر الاول ويحلل
عوامله. ذلك لأن أي تدخل للنصارى لا يمكن ان يتم الا من خلال الشغرات والفجوات التي
تتخلل عمل المسلمين وجهلهم او تجاهلهم للمسؤولية المنوطة بهم في هذه الدنيا.
فعلى الرغم من وجود القواعد الاساسية لقيام نظام اسلامي اقليمي وعالمي الا ان المسلمين
منقسمون على انفسهم، ليس في افريقيا فحسب، بل في شتى بقاع العالم، مما يشكل اعطال
الطرق للتحرك والتدخل النصارى والالحادي ضدهم.
وهناك الآن فجوة لا شك فيها بين الاسلام بمبادئه واسسه التي تسمو على كل فكر بشري،
وبين المسلمين الذين تخلفوا عن تطبيق هذه المبادئ وتلك الاسس، واشغلوها أكثر بصغائر الامور
وتركوا عظامها دون عناية كافية، مما كان سببا في تمزقهم وتخلفهم.
وعلى المسلمين الآن ان يتصوروا كيف أسكن للقوى النصرانية والالحادية ان تتحرك بحرية وان
تنفذ في هذا الفراغ لتعمل على قهرهم واضعافهم بشتى الوسائل...
واذا كان الاسلام بشكل قوة ايمانية وحضارية للشعوب الافريقية فان اللغة العربية تعسر قلب
هذه القوة، ولذلك يركز النصارى هجومهم المتوالي على الشعوب العربية لا لاسباب السياسة
والاقتصادية والاستراتيجية فحسب، بل خوفا من هذه الشعوب وما تمثله من ثقافة قاهرة قادرة
على المنافسة الحضارية في افريقيا وغيرها من القارات.
وقد اتخذ النصارى لانفسهم خطة ذات أبعاد متشعبة تهدف الى قهر افريقيا سياسيا
واقتصاديا وثقافيا وحرمانها من مواردها وقدراتها على التواصل والتوحد.
ومجمل هذه السياسة يكمن فيما يلي:

أولا: سياسة التغريب والتنصير:

لكي يتمكن النصارى من اقتلاع جذور الحضارة الاسلامية في افريقيا قاموا بتركيز جهودهم

الاقتصادية والسياسية والثقافية وغيرها خدمة هذا الهدف في محاولة لفرض الثقافة الأوروبية وفلسفتها الحضارية على الشعوب الأفريقية، ودفع فئة من المفكرين والقادة الحضارة الذين تربوا على أيدي النصارى وفي مؤسساتهم العلمية إلى مقدم الصفوف والقيادة باعتبارهم حماة الثقافة الأوروبية وفلسفتها الحضارية، بهدف إضعاف روح وحدة المسلمين وقوتهم وإشاعة الخضوع والخنوع والاستسلام والبعد عن تعاليم الإسلام.

بعتمد النصارى في ذلك أيضا على الحركات المشبوهة مثل : الماسونية واليهودية وتشجيع استثمار الأموال الأوروبية في الاقطار الأفريقية وتكوين جاليات أجنبية يظهرونها في مظهر اجتماعي وثقافي واقتصادي جذاب بلقده ضعات النفوس من المسلمين، وكذلك استغلال هذه الجاليات والاقليات الأوروبية لإضعاف البناء العام للمجتمعات الإسلامية، ومنها أيضا نشر المدارس المسيحية في كل البلاد الأفريقية واستغلال التعليم بها كأداة لتفكيك الروابط الاجتماعية وسلب الشخصية.

ثانيا : سياسة التجزئة،

تفتيت وحدة المسلمين هدف استراتيجي للنصارى، ومعروف أنهم قسموا أفريقيا إلى دول متعددة وقسموا كل بلد إلى شمال وجنوب وخلقوا المشكلات الحدودية.. ويحاول النصارى في الوقت الراهن أن يركزوا على إبراز التناقض بين العرب والأفريقيين أملا في التفريق بينهما ومنعا للثقافة الإسلامية واللغة العربية من الانتشار جنوبا.

ثالثا : سياسة الحصار الاقتصادي:

يحرص النصارى على نهب الموارد الاقتصادية وتقليصها في البلاد الأفريقية مستخدمين في ذلك سيطرة رأس المال الأجنبي المتحكم في الأسواق العالمية وعلى أسعار السلع بيعا وشرا، بمعنى أن النصارى هم الذين يحددون أسعار المواد التي يستوردونها من البلاد الأفريقية، وهي في حيلتها مواد أولية يشترونها بأرخص الأثمان ويعودون فيبيعون للأفريقيين المواد المصنعة بأغلاها وهو ما يسمى سياسة (إعادة تدوير رأس المال).

ومما يتبعه النصارى في ذلك أيضا خلق أقطار استهلاكية في أفريقيا تخدم مصالحهم الانتاجية ومصانعهم وشركاتهم، هذا علاوة على فوائد الديون المرتفعة التي تقتنص جزءا هائلا من دخول الدول الأفريقية.. ومنها أيضا التدخل في الشؤون المالية الداخلية وتحديد أسعار النقد الأجنبي والسياسة المصرفية، والشروط المحيطة في استخدامات المعونات المقدمة من النصارى للتحكم في توجيه حركتها بما يخدم مصالح الدول النصرانية نفسها.

ويستخدم النصارى أيضا نظرية «وجوب الحرب المحدودة» التي يخلقها في كثير من المناطق بهدف إجهاد التنمية بها وإضعاف قوتها وقدرتها على المقاومة وجعلها أكثر قبولاً ولبونة لتحقيق أهداف الدول الأوروبية، وهذه الحرب المحدودة يخطط لها بحيث لا تهدد السلام العالمي،

ويستكون من السيطرة عليها وقتما يشاءون عن طريق منع السلاح أو غيره من الوسائل وعلى سعيد الحصار ومنع التأثيرات الثقافية أو تهددها عمدت الدول الأوروبية إلى قطع جدار أبراء القارة إلا عن طريق دولة أوروبية.

وعلى الرغم من أن هناك ١٥ دولة أفريقية تفوق فيها نسبة المسلمين اليوم ٨٠٪ و ١٣ دولة أفريقية تزيد نسبة المسلمين فيها على ٥٠٪، فإنه لا يزال الصراع قائما في أفريقيا بين الإسلام والاحيائية من جهة، وبين الإسلام والنصرانية من جهة ثانية، حيث إن العنات البشرية ترمى في مخططها إلى أن تكون أفريقيا قارة مسيحية في عام الفين.. وتتفاد لهذا الخطط الخطير يتعرض المسلمون لالوان الضمط والحرمان في مختلف المجالات، كما اسلفنا. وتضاعفت هذه الضغوط في بعض البلدان إلى درجة الشناعة.

وعلى سبيل المثال لا الحصر، يقول سليمان كاكي بشر، وهو أحد القضاة الذين اسلموا حديثا في السودان، «لقد اسندت إلي مسؤولية جميع المراكز التبشيرية في مديرية الخرطوم، ووضعت خطة محكمة، وعلى ضوء هذه الخطة كنت افقد عملي، وكنت اعتمد على رؤساء القبائل والشيوخ والشباب الواعي الذي له كلمته وسط المجتمعات المختلفة التي كنت اعمل فيها، وفي التبشير كنت اركز اساساً على المسلمين والاحيائيين، فالمسلمون يحتاجون إلى رعاية خاصة ودراسة خاصة واهتمام خاص ووسائل مختلفة واغراض متنوعة يتنوع الازماع الاجتماعية. أما الاحيائيون فمن السهل أن تكسبهم أو تنفهم عن الدعاة المسلمين، هذا إلى جانب سياسة التشكيك في العقيدة الاسلامية وتكفير المسلمين» (١).

وفي تنجيقا نأمر القس جولوس نيريري مع عبيد أماني كرومي - من يهود الدوقه - وذبوا عملية ذبح للمسلمين العرب الموجودين في زنجبار، وقد تجاوز عدد ضحاياها من الشهداء ١٥ الفا والمجرحي ١٨ ألف نسمة. أما القتيات المسلمات العربيات فقد لقين اعتداءات وحشية، وتسلم كرومي الحكم في زنجبار. وضمها إلى تنجيقا ليصبح القس نيريري رئيسا لدولتين تحت اسم «تنزانيا» سنة ١٩٦٤م.

وقد استعان نيريري في هذه العملية بقوات ملتون ابوتي رئيس أوغنده وقسم كبير من اليهود العاملين في بلاده وخبراء من فرنسا والمجلترا والولايات المتحدة الأمريكية (٢). وفي سنة ١٩٥٢م قام الامبراطور هيلاسيلاسي بتنفيذ جزاء كبير من السياسة الصليبية لحاضرة الدعوة الاسلامية وتشتيت صفوف المسلمين في اثيوبيا، إذ أسكن النصارى في المناطق الاسلامية ووزع لهم الاراضي الزراعية المحصنة في وادي زولا، ومنى لهم عدة كنائس في المواطن الجديدة، وما فعله في زولا، فعله في مصوع وعصب وغيرها من المناطق الاسلامية.

(١) مجلة الوعي الاسلامي، العدد التاسع، ١٤٠١هـ.

(٢) الاصلاح، العدد ٢٢، ص ٣٣.

والى جانب النشاط التنصيري المكثف في افريقيا فانه يوجد نشاط خطير للشيوعية واليهودية والبهائية والقاديانية، وغيرها من الحركات المناهضة للاسلام التي ما انزل الله بها من سلطان.

قال تعالى: «ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا» (١). وقال تعالى: «ولن نرضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تشع ملتهم قل ان هدى الله امره ولئن انتعت اهورا هم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير» (٢). وقال تعالى: «يريدون ان يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا ان يمت نوره ولو كره الكافرون». هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون» (٣).

وقال تعالى: «يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون» هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون» (٤). ولذلك فعلى الرغم من الجهود المضنية التي يبذلها النصارى لإفساد العقيدة الاسلامية في نفوس المسلمين الافريقيين. فان الاسلام ينتشر في افريقيا بفضل الله وعنايته، ولو وجد من يدعوا اليه على بصيرة وبيئة لا اعتنق الافريقيون كلهم الاسلام، حيث يواجه التبشير في افريقيا عدة مشكلات نذكر منها مايلي:

١ - تأثر النصارى بالمعتقدات الافريقية المحلية والشرعة الاسلامية فبعض النصارى يؤمنون بالحر والشعوذة الاحيائية ويحرمون الخنزير والخمر والزنا ويسبحون تعدد الزوجات ويسمون ابنائهم بأسماء عربية اسلامية. وهذا ما دفع برؤساء البعثات التبشيرية في «التوجو وساحل العاج وغانا وبوركينا فاسو، والكاميرون وزائير وافريقيا الوسطى والغابون والكونغو الشعبية وكينيا وتنزانيا» الى رفع تقارير مطولة الى الفاتيكان يتحدثون فيها عن الصدع الذي حدث داخل الكنيسة الافريقية وتقهقر المسيحية وضعف الايمان بها في تلك البلاد. الامر الذي حدا بالعديد من الافريقيين الى اعتناق الاسلام او الارتداد الى الاحيائية، واقترحوا في نفس الوقت تشكيل لجنة من كبار رجالات الفاتيكان لدراسة المجتمعات الافريقية الحديثة.

فقد نشأت حركات مسيحية الظاهر احيائية الباطن، وأنشأت الكنائس الافريقية مذاهب جديدة تعتبر في نظر الكاثوليك هرطقة. ومن تلك المذاهب المستحدثة مذهب الكنيسة القومية الافريقية، ويرى ان رسالة النصارية في افريقيا هي التعرف بالمسيح ونشر التعليم وليس لها الحق في ان تعرض على الافريقيين اساليب الحياة الاوروبية العقيمة مما لا يقوم عليه نص صريح في الانجيل، ثم مذهب الاسلاف وشعاره الصليب والطبيعة واقامة الطقوس الدينية على الطريقة

(١) سورة البقرة: الآية ٢١٧.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٢٠.

(٣) سورة التوبة: الايتان ٣٢ - ٣٣.

(٤) سورة الصف الايتان ٨ - ٩.

- الوحدة الاحيائية.
- ١ - ارتباط المشرقين بالادارة الاستعمارية في عهد الاستعمار وبالسفارات المعنية والشركات الاستعمارية الأوروبية بعد استقلال الدول الافريقية، مما أدى الى اتهامهم بالتجسس والعمل من أجل نشر الثقافة الأوروبية وفلسفتها الحضارية لربط الشعوب الافريقية.
 - ٢ - النسر العنصري الذي قارسه الكيسة.
 - ٣ - الصراع الابدولوجي الذي ظهر بين المثقفين.
 - ٤ - الصحوة الاسلامية.
- ومن الطبيعي فان هذه المشكلات التي تعاني منها النصرانية تعتبر من العوامل الهامة التي ساعدت على انتشار الاسلام في المجتمع الافريقي المعاصر.

عاشق طاهر المصطفى
سلام النبي صلى الله عليه وسلم

عاشق (١١)

عاشق فاني ان من الله
من والي ولا عسرا (١٢)

عاشق لا انت بتم نورا لم كيا
على العين كله بالوكس

لو كره الكافرون هم القوم
نور (١٣)

سأد العظيمة الآلات
وصانته ولو يجرى
في النشير في الرجا

أمية فبعض الساري
عون تعدد الزخات يسر
شيرة في النور يسر
والغابون والكوهو الشعب
لجها عن الصداقات
في تلك البلاد الامر الذي
يسد والتمسوا في تلك الزا

ية المحرقة
ان الكائنات الافريقية
حالة مله الكيسة القوية
مع ونشر التعليم وليس لها
ما لا تقوم عليه كرسى في
الطغوس الدينية على الطريقة

الفصل الرابع

وضعية الدعوة الإسلامية في إفريقيا اليوم

رغم مناهضة النصارى للدعوة الإسلامية في إفريقيا بشتى الوسائل، فإن العمل الإسلامي لا يزال متعبها. وإن أكبر عوامل الضعف التي تعوق حركة الدعوة الإسلامية سلبية المسلمين في إفريقيا وخارجها وعدم احساسهم بالتحدي الذي يواجههم. قد تكون السلبية من جانب المسلمين الآفارقة مقهومة لأن فائدة الشيء لا يعطيه، فكثيرهم جهلاء وفقراء، تنتشر بينهم القبيلة والعصبية. ولكن غير مفهوم سلبية المسلمين في البلاد العربية، رغم إدراك كثير منهم لأهميتها الإسلامية والسياسية والاقتصادية والعسكرية والاجتماعية.

ورغم تلك الوضعية القائمة ببعض الشيء، لواقع الدعوة الإسلامية في إفريقيا، فإن هناك عوامل طبيعية يمكن أن تكون مساعدة للدعاة، مثل: بساطة العقيدة الإسلامية وسهولة عبادتها، وعدم ارتباط الاسلام والمسلمين بالاستعمار والفرقة العنصرية، ووضوح مبادئ الاسلام وقيمه السامية، بينما عقيدة النصارى وما فيها من فلسفة وغموض يصعب فهمها للأفريقيين. فالمسلمون عندما دخلوا إفريقيا وعمروها اختلطوا بغيرهم وتزوجوا معهم، بينما لا يزال النصارى في إفريقيا يعيشون وحدهم ويميزون أنفسهم عن الأفريقيين. فتلک عوامل ومميزات طبيعية موجودة بالفعل والدعاة أراها أمام أمرين: فإما أن يستغلوها ويعزّوا الاسلام والمسلمين، لأن تكون لهم الغلبة واليد العليا في إفريقيا. وإما أن يقفوا موقف المتفرج فيتركوا الساحة لغيرهم من المنصرين واصحاب المذاهب الفلسفية الهدامة.

ويمكن القول إن هناك جهدا معتبرا في العمل الإسلامي في إفريقيا، قد بدأ منظما وقائما على أسس علمية، كنموذج منظمة الدعوة الإسلامية بالسنتغال والمركز الإسلامي بالسودان، وغيرهما مما تقوم به رابطة العالم الإسلامي في بقية الدول الإفريقية وإنشاء منظمة المؤتمر الإسلامي للجامعة الإسلامية بالنيجر والجامعة الإسلامية بأوغندا، والاذاعة الإسلامية ببرلين. إلا أن الساحة الإفريقية لا تزال تحتاج إلى أضعاف الجهد المبذول حاليا، وإلى تغيير نظرة المسلمين إلى الثقافة الأوروبية، وفلسفتها الحضارية، واسلوب الدعوة الذي لا يزال عند كثير من الدعاة ينحصر في الخطب والمواظع الدينية في المساجد ووسائل الاعلام السموعة والمقروءة والمرئية.

يبلغ عدد المسلمين في العالم اليوم مليارا ومائتي مليون نسمة، تمثلهم نظريا (٤٦) دولة، إلا

ان حوالي ٦٠٪ منهم من الاقلييات التي تعيش في بلاد الملبستها غير مسئلة يعانون من
مشكلات اجتماعية وسياسية واقتصادية وثقافية معروفة للجميع. ولكن الاحوال ليست افضل
بكثر بالنسبة للآخرين. فحتى هؤلاء الذين يعيشون في البلاد التي تسمى ببلاد الاسلام
بما هو من طروفا اقتصادية واجتماعية وثقافية صعبة، ويفقدون الحرية الفكرية، فالمختلف المادي
الذي يخيم على المجتمعات المسلمة هو نتيجة طبيعية لتخلف الفكري. السمة الطاغية التي تميز
البلدان الاسلامية في افريقيا وآسيا وأوروبا. كلها محسوسة على
المنظر المتخلف أو الثالث أو ما يعرف سخداها - بالدول النامية، وكثير منها يعيش دون
مستوى الاكتفاء. الذاتي. يضاف الى ذلك ان نسبة ٦٠ - ٧٠٪ من عدد اللاجئين في العالم هم
من المسلمين. وان ستة ملايين نسمة حسب احصاء عام ١٩٨٨م في افريقيا وحدها
والشعوب المسلمة في افريقيا تعاني من الجهل والفقر والمرض. ومن هنا يتضح لنا مدى حاجة
الهيئات الاسلامية ورجال الدعوة للمساعدة.

وعلى الرغم مما يحيق بالدعوة الى الاسلام في افريقيا فان الخلافات الحاسية بين المسلمين لم
تعط الفرصة لتشكيل جبهة واحدة لدرء الخطر، وانما تقوم في كل مكان منظمات متعددة وتبقى
كلها ضعيفة لصغر حجمها، وتعمل كل واحدة منفردة محاولة تأمين بعض الجوانب التي يحتاج
اليها اعضاؤها من مدارس أو مستوصفات بل تقوم احيانا ببناء مساجد خاصة بها. وتقوم هذه
المنظمات أو الجماعات على اساس العرق الواحد أو اللغة أو المذهب وفي كثير من الاحيان لا
يوجد أي سبب للافتراق سوى التعصب لهذه الجماعة أو تلك، أو تسلم هذا المركز أو ذاك. وفي
الغالب الاعم ما يصطدم بعضها مع بعض، الامر الذي يسهل على خصومها ضربها أو استغلالها
في زيادة الخلافات بين المسلمين. هذا، بالإضافة الى ان بعض العلماء والدعاة يماثلون الحاكم
الظالم ويتقربون اليه ويكثرون عونا له على عامة المسلمين، مما يؤدي ايضا الى زيادة الفجوة بين
المسلمين، اذ ينتقده بعضهم ويقف بجانبه بعض الذين لهم اغراض ومناويع شخصية دينية، هذا
الى جانب ما أوجده النصارى من فئات تدعى الاسلام وتعمل ضده ويمدونهم بكل ما يحتاجون
اليه. وينظر المسلمون في افريقيا الى الدول العربية نظرة الامل والطمانينة والثقة والاحترام،
خاصة في حل مشكلاتهم التي يعانون منها، ولكنهم لم يجدوا الكثير من الاهتمام والدعم
لذا... لان اكثر البلدان العربية خلق لها اليهود والنصارى مشكلات خاصة تتخطى فيها،
وبعضها لا يفكر في المسائل التي تتعلق بالدعوة الاسلامية، وبعضها ان فكر وقدم شيئا فاما
بقدم كبا دعائية أو عددا قليلا من الدعاة الذين لا يملكون قوت يومهم أو أجرة اقامتهم أو تذكرة
سفرهم، من مكان الى مكان. فما تعمل هذه المساعدات امام السيل الجارف من النصارى
والامكانيات الضخمة والاموال الطائلة التي تقدمها الدول الأوروبية، أو يمنحها اتحاد الكنائس
العالمي؟ هذا بالإضافة الى الاختلافات السياسية بين الدول الاسلامية التي تنعكس سلبا على
الاسلام والمسلمين في افريقيا وفي كل مكان.
ان الدول العربية بإمكانها ان تدفع الدعوة الاسلامية في افريقيا بصورة كبيرة، اذا ما وضعت

هذا الهدف في مقدمة جوارحه الداخلية والخارجية ولست الغفاح عن الاسلام والمسلمين في كل مكان. واستخدمت كافة الوسائل المتاحة لنقوية ارتباطاتها بالدول الاسلامية.
قال تعالى: «وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتياكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة ابيكم ابراهيم هو سبطكم المسكين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأطيعوا الله وأطيعوا الرضا واستعينوا بالله هو حسوبكم فاعلموا انهم على الهدى» (١١)

فهذه لفتة بحق الدعوة ولقعة الناس بالاسلام وأذعنهم طعم الرحمة التي أرسل بها النبي محمد صلى الله عليه وسلم الذي قال الله في شأنه: «وما أرسلناك الا رحمة للعالمين» (٢١).
أخشى ان يتعلق بنا يوم القيامة ألوف من الخائرين يسألوننا لماذا تركناهم دون بلاغ مبين وتوجيه سليم.

قال تعالى: «والعصر إن الانسان لفي خسر» الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالمعروف وتواصوا بالصبر» (٣).

وقال تعالى: «ولكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون» (٤)

(١) سورة الحج: الآية ٧٨.

(٢) سورة الانبياء: الآية ١٠٧.

(٣) سورة العصر: الآيات ١، ٢، ٣.

(٤) سورة آل عمران: الآية ١٠٤.

الفصل الخامس

المستقبل المنظور للدعوة الإسلامية في افريقيا

مستقبل الاسلام في افريقيا جنوب الصحراء مرهون بما يحدث في هذه القارة من تفسيرات في حياتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وما ستجني عنها من تحولات وتطور في المفاهيم. لكن ذلك لا يحول دون النظر الى المستقبل عن طريق استقراء الحاضر. وليس هذا الحاضر في الواقع الا انعكاسا للماضي الذي شرحنا بعضه بقضاياها وحضوره الحق في عقيدة عدة من مسلمي افريقيا. على هذا النحو يتوقف فهم وضع الاسلام اليوم في افريقيا، على تفهم ودراسة المعتقدات المحلية والاضاع الاجتماعية والسياسة والاقتصادية السائدة قبل انتشار الاسلام. وكذلك مختلف الحركات والظواهر التي راقت الدعوة وعاشت بها. كمالاستعمار والنصرانية والشيوعية والبهائية والقاديانية وما تخطف عن ذلك من علاقات وانماط جديدة وايدولوجيات وفدت الى افريقيا في موجات متعارضة متعاقبة، فاستقراء ذلك كفيلا بأن يبرر طريقنا ويوضح معالم ما سيؤول اليه مستقبل الاسلام في افريقيا.

فغير الفصول السابقة حاولنا معرفة معتقدات وعادات وتقاليد وتنظيمات المجتمع الافريقي التقليدي ومدى التأثير بينه وبين الدين الاسلامي. وبأن جليا ان كفة الميزان رحبت لصالح الاسلام. وعلى الرغم من غياب تنظيم اسلامي متخصص للدعوة والوعظ والارشاد، وعلى الرغم من تأخر المسلمين في افريقيا جنوب الصحراء في ميدان ايجاد الوسائل الكفيلة بالتشويق الى الاسلام، وعلى الرغم من مناهضة اليهود والنصارى والاحيائيين والملحدين للدعوة الاسلامية، فان ما يتميز به الاسلام في افريقيا انه يبدأ مشويا بالممارسة الغربية حتى اذا مضى زمن بدأ يستعيد صفاءه وجلاله فتذهب عنه الشوائب ويصل من الادراك وذلك بفضل التعليم الاسلامي واللغة العربية والرقى الحضاري والاجتماعي للمسلمين.

والحقيقة هناك تناقض حاد بين الاسلام والطوائف النصرانية من جهة وبين الاسلام والبهائية والقاديانية والشيوعية من جهة ثانية لاكتساب البقية الباقية من الاحيائيين في افريقيا، وعلى الرغم من تعدد المعوقات للدعوة الاسلامية وتوفر وسائل الاغراء في بداعتها، فان الاسلام يشق طريقه بخطى ثابتة، ولم تفلح النصرانية في اللحاق به، حيث لم يكتف باكتساب الاحيائيين، بل نجح في جذب بعض من ارتقوا في احضان الكنيسة، فمن الواضح ان الاسلام اليوم ينتشر بشكل مطرد في افريقيا، حيث الهداية اليه تستمر على حساب الاحيائية

والنصرانية والمذاهب الهدامة . ان توفر وسائل الاتصال والاعلام الحديثة من سيارة وقطار وبخار
 وخطوط . والرافعة والنفاز وصحف ومجلات ودور سينما . اضافة الى ما حدث من استئناف في
 التبادل الثقافي بين افريقيا جنوب الصحراء . والعالم العربي ، انتهى انقطاعا دام حقبة من الزمن
 يحصل على الاعتقاد ان عهد الانزوال الثقافي والحضاري انقضى بالنسبة للمسلمين في افريقيا .
 وان حركة التبادل عادت الى سالف عهدها . الامر الذي ساعد على تصحيح عقيدة المسلمين
 من التواني . وفهم الاحباطين والنصارى لحقيقة الاسلام . ومن مظاهر ذلك : اسراع نفر من
 الشباب المسلم الى المعاهد والجامعات الاسلامية في البلاد العربية ليتفقهوا في الدين ويعودوا
 الى بلادهم لينفثوا ما اوجع من تعاليم الاسلام . وقد بدأ هذا النشاط يعطي ثماره بفضل
 المساعدات المالية والمنح الدراسية التي تقدمها الدول العربية الى افريقيا والمجموعات الاسلامية .
 اصف الى ذلك الندوات والمؤتمرات والملتقيات العالمية التي تعقد هنا وهناك في العالم
 الاسلامي . واصبح العالم الافريقي يحضرها ويأخذ طرفا منها وقد سمحت له تلك المنتديات
 بالاطلاع على ما استجد في العالم الاسلامي . وما المحيطة الامة الاسلامية وما مستجزمه . وكانت
 هذه اللقاءات عاملا لاستئناف صلات الثقافة التي توقفت اثر احتلال افريقيا من طرف
 الاستعمار الاوروبي . واصبح باستطاعة رجال الدعوة الاقارعة اليوم ان يدعوا الى اللقاءات
 الدولية لدراسة قضايا المسلمين والتعرف على مشاكلهم والمساهمة في بحث حلول لها .
 ولكي يستمر الاسلام في انتصاره على أعدائه في افريقيا علينا ان نضع في الاعتبار ما
 يلي :

١ - الامام يحقائق الاحيائية واساليب النصارى في التشهير لمحاورة الجانبين وشرح حقيقة
 الاسلام وتعاليمه .

٣ - انشاء صندوق اسلامي في كل بلد مسلم لتمويل الدعوة الاسلامية في افريقيا يسهم
 فيه المسلمون على مستوى الحكومات والمجموعات والافراد . ولا شك ان الوقت الحاضر هو انسب
 الاوقات للقيام بنشر الاسلام ومحاسنه أمام الافريقيين من غير المسلمين . ذلك لان النصرانية
 التي هي المنافس الرئيسي قد ارتبطت في اذهان كثير من ابناء افريقيا بالاستعمار الاوروبي ،
 لانها جاءت الى افريقيا مع الرجل الاوروبي . ونظرا الى ضعف سلطان الاستعمار الاوروبي
 وبالتالي الى ضعف المنافس . فان الفرصة الآن سانحة لنجاح الدعوة الاسلامية اكثر من ذي قبل .
 وذلك كله اضافة الى ما هو معروف ومعلوم من ان الاسلام دين الفطرة والحركة والعمل المتواصل
 وهو بساطته ووضوحه وسره ونقاته الدين الملائم لكل زمان ومكان .

٤ - ايجاد دعاة من ذوي الكفاءة والاخلاص والاستعداد للتضحية والعمل في سبيل الله .

٥ - الاكثار من المنح الدراسية في الجامعات والمعاهد الاسلامية في البلاد العربية . وذلك
 حتى تتاح الفرصة لأكبر عدد ممكن من ابناء المسلمين في افريقيا للتزود من العلوم الاسلامية
 فيها . ثم العودة الى بلادهم لينفثوا قوتهم . عملا بقول الله سبحانه وتعالى : « وما كان المؤمنون
 لينفثوا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا

الهم لعلهم يحذرون» (٨).

هذا إضافة لعلاقات التبادل التجاري والاستثمارات والمصارف الإسلامية التي من شأنها أن تنوي العلاقات وتحسن من أوضاع المسلمين الاقتصادية.

٦ - الإسلام في حاجة إلى جهود إنثائه المادية والروحية في كل زمان ومكان لمول الله سبحانه وتعالى: «وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج نهذا» على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير» (٢).

وقال تعالى: «ولكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون» (٣).

لقد تعرضت الأمة الإسلامية طوال تاريخها المجيد لأزمات طاعنة كانت كقيلة لأن تقضي على أمم وحضارات. ولكن أمة الإسلام خرجت طافرة من هذه الأزمات التي حرت بها بفضل الإسلام وحده.

فالعزو الصليبي والغزو التنري كان أي منهما كافيا للقضاء على الأمة الإسلامية. ولكن قوة الصليبيين وقوة التتار قد اندحرت أمام قوى الإسلام والمسلمين. وخرج الإسلام منتصرا ليعتقه التتار والمغول ليبشروا به وليكونوا له دعاة في وسط آسيا وفي أوروبا وإستراليا وأمريكا. وكذلك كسب الإسلام من الصليبيين أرضا في أوروبا ومسلمين كانوا من اليهود والنصارى. ومن هنا نستطيع القول أن الإسلام قد انتشر بقوة الذاتية وجهود إنثائه المخلصين العاملين له في كل زمان ومكان. وسير الإسلام وانتشاره لم يتوقف منذ عهد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم حتى اليوم فهو دائما يكسب انتصارا ويزداد تعميقا في النفوس وتطبيقا في السلوك. سواء في عصور قوة المسلمين أم في عصور ضعفهم. وهو لا يزال يسير إلى الأمام رغم كل المعوقات والمواجه التي تعترض سبيله وبالتالي فإن المستقبل له لا محالة. هكذا قرر كثير من الباحثين والمفكرين المسلمين وغير المسلمين على السواء.

وكل من ينظر إلى الصحة الإسلامية التي ظهرت الآن في أفريقيا، بل في العالم كله يزداد إيمانا على إيمان بهذه الحقيقة، وليس أدل على ذلك من أن المسلمين في العالم كان عددهم (٢٧٠) مليون نسمة عام ١٨٨٠م (٤)، وهم الآن (١٩٨٩) مليار ومائتا مليون نسمة، وليست هذه الزيادة عن طريق زيادة عدد المواليد على عدد الوفيات، ولكن دخول مسلمين جدد في الإسلام كان عاملا كبيرا في الزيادة التي حققها الإسلام في تلك الفترة.

(١) سورة التوبة: الآية ١٢٢.

(٢) سورة الحج: الآية ٧٨.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٠٤.

(٤) الشيخ محمد بيرم الخامس: صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والافتقار، ص ٢١.

قال الله سبحانه وتعالى : « ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعسى صالحاً » وقال : « إن من
المسلمين » (٦٩)

وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المصادر والمراجع

- (أبو القاسم محمد):
- ابن حوقل
صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٦٤
- (أحمد بن يحيى بن جابر):
- البلاذري
فتوح البلدان، تحقيق صلاح الدين بن المنجد النهضة
المصرية ٣ أجزاء، القاهرة ١٩٥٨
- (شمس الدين أبو عبدالله محمد):
- القنطري
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، بغداد ١٩٥٦
- (أبو الحسن علي بن الحسين):
- السمعوني
مروج الذهب ومعادن الجوهر ٤ أجزاء، تحقيق الشيخ
محيي الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٦٤
- (أحمد بن أبي يعقوب بن واضح):
- البغدادي
كتاب البلدان، مكتبة بغداد ١٩٦٤
- (أبو عبدالله محمد بن محمد الشريف):
- الأدرسي
نزهة المشتاق في ذكر الأقطار والبلدان، والجزر
والأنفاق، معهد الدراسات الشرقية بباري إيطاليا
١٩٧١م
- (أبو اسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي):
- الأسطخري
المسالك والممالك، تحقيق الدكتور محمد جابر عبدالغفار،
القاهرة ١٩٦١
- (أبو عبد الله ياقوت الحموي):
- الحموي
معجم البلدان ٤ أجزاء، دار صادر بيروت ١٩٥٥
- (أبو عبدالله محمد بن عبدالله اللواتي الطنجي):
- ابن بطوطة
تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ٤
أجزاء، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٦

- التركي

- ابن حيدر الاندلسي

- ابراهيم بن سحنان المغربي

- ابو القزويني

- ابو الحسن بن سعيد المغربي

- ابو عبدالله محمد الزهري

- الدكتور محمود ابو الغلا

- محمد السيد غلاب وآخر

- اسماعيل العربي

- محمود شاكر

- الدكتور حسين مؤنس

- عدنان العطار

(أبو عبدالله بن عبدالمعز)

المسالك والممالك، دار السنابل، الكويت ١٩٧٧

رحلة ابن جسر، تحقيق الدكتور حسني نصر القاهري
١٩٥٧

المسالك وأماكن الحج ومعالم الجزيرة، تحقيق احمد الخليل
دار الينابيع، الرياض ١٩٨٦

(الحسن بن محمد الوزان)

وصف إفريقيا، ترجمة الدكتور عبدالرحمن حميدة وآخر
جامعة الامام، الرياض ١٤٣٩/١٩٧٩ م

كتاب الجغرافيا، تحقيق اسماعيل العربي، منشورات
المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت
١٩٧٧

كتاب الجغرافيا، تحقيق محمد الحاج صادق المعهد
الفرنسي للدراسات العربية دمشق - ١٩٥٠ م

جغرافية العالم الاسلامي مكتب الفلاح الكويت ١٩٨٣

جغرافية العالم، دراسة الخليفة ٣ أجزاء، مكتبة الانجلو
المصرية، القاهرة ١٩٥٩

تاريخ الرحلة والاكتشاف في البر والبحر، المؤسسة
الوطنية للكتاب، الجزائر ١٩٨٦

الكشف الجغرافية، المكتب الاسلامي، بيروت ١٣٠٣ هـ

العالم الاسلامي، المكتب الاسلامي بيروت ١٤٩٣ هـ

اطلس تاريخي الاسلام، الزهراء للاعلام العربي، القاهرة
١٩٨٧

تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الاندلس، دار المعارف
القاهرة ١٩٨٦ م

الاطلس التاريخي للعالم الاسلامي، منشورات سعد
الدين، دمشق ١٩٧٩

جوليان ماكغيفي :

هاري و - هازارد :

- الدكتور عبدالرحمن عمر الماعري :

- الدكتور ابراهيم علي طرخان :

أرتولد توماس :

- الدكتور محمد ابراهيم ابو سليم :

- الدكتور عبدالودود ابراهيم شلي :

- الدكتور شوقي عطا الله الجمل :

- احمد صدقي الدجاني :

- محمد فزاد شكري :

- الدكتور شيخو احمد سعيد :

غلاوت :

- احمد بن ابي الاعراب :

اطلس التاريخ الافريقي، ترجمة مختار السويفي وآخر.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٧م.

اطلس التاريخ الاسلامي، ترجمة ابراهيم زكي خورشيد.

مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٨٧م.

نشأة من الاستعمار حتى الاستقلال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٢.

امبراطورية البرنو الاسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٥م.

الاسلام واللغة، العربية في السودان الاوسط والغربي،

الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٦٩م.

الدعوة الى الاسلام، ترجمة حسن ابراهيم وآخر، مكتبة

النهضة المصرية، القاهرة ١٩٧٠م.

الحركة الفكرية في المهدي، دار الجمل، بيروت ١٩٨١م.

الاصول الفكرية لحركة المهدي السوداني ودعوتها، دار

المعارف، القاهرة ١٩٧٩م.

تاريخ افريقيا الحديث والمعاصر، مكتبة الانجلو المصرية،

القاهرة ١٩٨٦م.

الحركة السنوسية نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر،

دار الكتاب المصري، القاهرة ١٩٨٨م.

السنوسية دين ودولة، دار الفكر العربي، القاهرة

١٩٤٨.

حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، دار المعارف،

القاهرة ١٩٨٢م.

فتح الشكور في معرفة اعيان علماء التكرور، تحقيق

محمد بن ابراهيم الكناس ومحمد حجي، دار الغرب

الاسلامي، بيروت ١٩٨١م.

- آدم عبدالله التوري

الاسلام اليوم وثقا في تيجيريا ، مكتبة واحة ، القاهرة
١٩٨٥م.

الاسلام في تيجيريا وعثمان بن فودق- دار مكتبة
الحياة، بيروت ١٩٧٨م.

تاريخ الاسلام وحياة العرب في اسرا طورية كتام برنو،
مكتبة ومطبعة مصطفى المايي الحلبي وأولاده بمصر،
القاهرة ١٩٧٦م.

المجاهد الاسلامي في شرقي افريقيا، الزهراء للاعلام
العربي، القاهرة ١٩٨٧م.

الاسلام والثقافة العربية في افريقيا، دار الفكر العربي،
القاهرة ١٩٨٦.

انتشار الاسلام في القارة الافريقية، مكتبة النهضة
المصرية، القاهرة ١٩٦٤م.

انتشار الاسلام في شرقي افريقيا ومناهضة الغرب له،
دار المريح للنشر، الرياض ١٩٨٢م.

لمحات من التاريخ الافريقي الحديث، دار المريح للنشر،
الرياض ١٩٨١م.

العالم الاسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي
والثقافي، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٨٣م.

ندوة العلماء الافارقة، بغداد ١٩٨٥م.

الاسلام والتقاليد القبلية، دار النهضة العربية، بيروت
١٩٦٩م.

تاريخ العالم الاسلامي الحديث والمعاصر، الجزء الثاني،
دار المريح للنشر، الرياض ١٩٨٣م.

العالم الاسلامي في التاريخ الحديث والمعاصر، مكتبة
الميلوي، القاهرة ١٩٨٤م.

- الشيخ ابراهيم صالح بن يونس

- احمد محمد كافي

- الدكتور حسن احمد مختود

- الدكتور حسن ابراهيم حسن

الدكتور محمد عبدالله النيرة

- الدكتور احمد ابراهيم دياب

- انور الجندي

- المنظمة العربية للتربية والثقافة
والعلوم

الدكتور محمد سلام زناتي

الدكتور / اسماعيل احمد ياغي وآخر

- الدكتور مصطفى محمد رمضان

- الدكتور صابر طعيمة:

أخطار الغزو الفكري على العالم الإسلامي، عالم الفكر،

بيروت ١٩٨٤م.

- علي محمد حريشة وآخر:

أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي، دار الاعتصام،

القاهرة ١٩٧٨م.

- عبدالله نجيب محمد:

دراسات في الآداب السواحلي، مكتبة النهضة المصرية،

القاهرة ١٩٨٧م.

- محمود شاكور:

العالم الإسلامي ومحاولة السيطرة عليه، المكتب

الإسلامي، بيروت ١٩٨٤م.

- محمد فريد السيد:

العالم الإسلامي، المكتب الإسلامي، بيروت ١٤٠٣هـ.

صفحات من تاريخ الصومال، دار المعارف القاهرة

١٩٨٣.

- نعيم قذاح:

حضارة الإسلام وحضارة أوروبا في إفريقيا الغربية،

المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ١٩٧٤م.

- لوثرروب ستينوارت:

حاضرة العالم الإسلامي، ترجمة عجاج نويهيض وتعليق

الأمير شكيب أرسلان، ٤ أجزاء، في مجلدين، دار

الكتاب اللبناني - بيروت ١٩٧٣م.

- الدكتور عبدالله عبدالرازق إبراهيم:

الحركات الإصلاحية في غرب إفريقيا، منشورات معهد

البحوث والدراسات الإفريقية، القاهرة ١٩٨٣م.

- فتحي غيث:

الإسلام والحشة عبر التاريخ، مكتبة النهضة المصرية،

القاهرة، دون تاريخ.

- أنور الجندي:

التبشير والاستشراق والدعوات الهدامة، المجلد الخامس،

دار الانتصار، القاهرة ١٩٨٣م.

- الدكتور أحمد شلي:

الحروب الصليبية بدؤها مع مطلع الإسلام واستمرارها

حتى الآن، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٨٦م.

- الدكتور خالد محمد نعيم:

الجذور التاريخية لرساليات التنصير الأجنبية في مصر

من ١٧٥٦ - ١٩٨٦م دراسة وثائقية، كتاب المختار،

القاهرة ١٩٨٨م.

الغارة على العالم الاسلامي - ترجمة عبد الميم العليم
ومساعد اليافى

دار السعودية للنشر والتوزيع - جدة - ١٩٨٥ م

فهرس الموضوعات

القسم الاول

مراحل انتشار الدعوة الاسلامية في افريقيا

١١	التمهيد : المعتقدات الشائعة في افريقيا قبل انتشار الاسلام
١٨	الفصل الاول : عالمية الدعوة الاسلامية
٢٤	الفصل الثاني : الدعوة الى الاسلام في شرقي افريقيا
٣١	الفصل الثالث : علاقة المسلمين بالنصارى في الحبشة
٣٥	الفصل الرابع : أوضاع المسلمين في الحبشة المعاصرة
٣٨	الفصل الخامس : الدعوة الى الاسلام في شمالي افريقيا
٤٤	الفصل السادس : الدعوة الى الاسلام في السودان الاوسط
٥٢	الفصل السابع : الاسلام والمسلمون في التشاد
٥٦	الفصل الثامن : الدعوة الى الاسلام في غربي افريقيا
٦٣	الفصل التاسع : الدعوة الى الاسلام في جنوبي افريقيا
٦٧	الفصل العاشر : نجاح الدعوة الاسلامية في افريقيا
٧١	الفصل الحادي عشر : رجال الدعوة الاسلامية وأثارهم في افريقيا

القسم الثاني

الحركات الإصلاحية في افريقيا

٨١	التمهيد : الوضع في العالم الاسلامي قبل ظهور الحركات الإصلاحية في افريقيا
٨٤	الفصل الاول : حركة الشيخ عثمان بن قودي
٩٦	الفصل الثاني : حركة الشيخ محمد الامين الكافي
١٠٢	الفصل الثالث : حركة الشيخ أحمدو لوبو
١٠٢	الفصل الرابع : حركة الشيخ عمر بن سعيد الفتوي
١٠٦	الفصل الخامس : حركة الشيخ ماهاجا خوبا
١٠٨	الفصل السادس : حركة الشيخ ساموري توري
١١٠	الفصل السابع : أوجه الشبه والاختلاف بين الحركات الإصلاحية في الحرب افريقيا

١١٧	الفصل الخامس: حركة محمد أحمد المهدي
١٣٣	الفصل التاسع: حركة رابع بن فضل الله
١٣٩	الفصل العاشر: حركة محمد بن علي السنوسي
١٤٨	الفصل الحادي عشر: حركة محمد بن عبدالله حسن
١٥٥	الفصل الثاني عشر: الآثار التي تركت على هذه الحركات

القسم الثالث

١٥٩	الفصل الأول: مناهضة النصارى للدعوة الإسلامية في إفريقيا
١٦٣	الفصل الثاني: الإسلام بين كيد الكائدين وأعراض المسلمين
١٧٩	الفصل الثالث: مختطف النصارى ضد الإسلام والمسلمين في إفريقيا
١٨٤	الفصل الرابع: واقع الدعوة الإسلامية في إفريقيا اليوم
١٨٧	الفصل الخامس: المستقبل المنظور للدعوة الإسلامية في إفريقيا
١٩١	المصادر والمراجع
١٩٧	فهرس الموضوعات

Bibliotheca Medicea



0324173

Wolfgang Iser



0324173